غلين دانيال

موجز تاريخ علم الآثار

ترجمة

د. عباس سيد أحمد محمد علي



١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م

دار الفيصل الثقافية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غلين دانيال

موجز تاريخ علم الآثار

ترجمة

د. عباس سيد أحمد محمد علي

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

دار الفيصل الثقافية

ح دار الفيصل الثقافية ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
دانيال، غلين
موجز تاريخ علم الآثار/ ترجمة عباس سيد أحمد محمد .ـ الرياض.
٣٤٨ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٢-٦٢-٧٢٦-٩٩٦٠
١ ـ علم الآثار أ ـ عباس، سيد أحمد محمد (مترجم) ب ـ العنوان
ديوي ٩١٣،٠٣١ ٢١/١٥٨١

رقم الإيداع: ٢١/١٥٨١
ردمك: ٢-٦٢-٧٢٦-٩٩٦٠
الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م

أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية:
A Short History Of Archaeology
Glyn Danial
LONDON: THAMES AND HUDSON, 1981.

دار الفيصل الثقافية
ص . ب ٣ الرياض ١١٤١١
المملكة العربية السعودية

المحتويـــات



مقدمة المترجم

إن تاريخ علم الآثار ينبـغي ألا يفهم على أنه سجل للأحـداث التي شكّلت مسيـرة ذلك العلم وقادت إلى تطوره، كمـا أنه ليس رصداً للشخصـيات التي أسـهمت في وضع لبنات صـرحه، وإنما هو قـبل هذا وذاك تتـبع لتطور الفكر النظري والوسائل التطبيقيـة التي لازمت تلك الأحداث والأفراد وحددت مسار ذلك العلم ومصيرَه.

وفي علم الآثار؛ يتطلب أي استعراض كـالذي هو بين يدي القارئ بخاصة أو غيره بعامة وقـفاتٍ عدةً، زمانيةً ومكانيةً، لتفحص طبيـعة القضايا المطروحة وتقويم الأحـداث المرتبطة بتلك القضايا في إطارها الزمـاني والمكاني، وربطها بالمناخ الفكري المعاصر، مـع كامل الإلمام بالإستراتيجـيات والمناهج التي اتبعت في معالجـتها، وتتبع مـسالك الأخذ والعطاء بين علم الآثار والعلوم الإنسـانية والطبيـعية الأخرى. وكمـا جاء على لسان مؤرخ العلـوم جورج سارتون: «إن الأحداث الكبـرى تلقي بظلالها على المناشط الإنسـانية علميـة وغير علمـية». وكان لابد للأحـداث المعاصرة والأفكار السـائدة من أن تؤثر في الفكر الآثاري وقضاياه وتتأثر بها، غير أن المعرفة بتاريخ كل علم تبقى شرطاً مسبقاً لفهم ذلك العلم واستيعابه.

لقد انقـضى قرن ونصف قرن منـذ أن شبّ علم الآثار عن طوقه متـجاوزاً مرحلة التكوين والميـلاد إلى مرحلة البلورة والنضج، وعلى امتداد مـسيرته ظل هذا العلم يضع لبنات مـتزايدة لتاريخـه بتجدد أهدافـه وتوسع مجالات بحـثه

وتصارع مدارسه وتطور مناهجه وأساليبه، كل ذلك وفق إيقاع حافل بالتوافق والتعارض وبالتداخل والتشعب.

إن مهمة شاقة كمهمة كتابة تاريخ علم الآثار هذه لهي في حاجة إلى شخص موسوعي المعرفة، ليس في مجال الآثار وعلمها فحسب؛ وإنما في مختلف فروع المعرفة الإنسانية والعلوم الطبيعية والتطبيقية ذات الصلة. وليس هناك من شخص في علمنا أقدر وأجدر بهذه المهمة وأكثر ملاءمة لها من أستاذنا غ. دانيال G. Daniel (١٩١٤- ١٩٨٦) مؤلِّف هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ، والأستاذ السابق لكرسي الآثار بجامعة كيمبردج، ومحرِّر مجلة **العصور القديمة**، ومحرِّر ومؤسِّس سلسلة **الشعوب والأماكن القديمة**، ومُعِدٍّ ومقدِّم عدد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية، ومؤلِّف عدد من الكتب والمقالات الآثارية، كل ذلك على امتداد حياة حافلة بأعمال أكاديمية جليلة. كان الرجل آثارياً ومؤرخاً وعالماً وأديباً واسع المعرفة، جعل من نشر المعرفة الآثارية وسيلةً وهدفاً، ليس من أجل بقاء علم الآثار واستمراريته فحسب؛ وإنما من أجل تحقيق الأهداف السامية التي يرمي إليها العلم على مستوى الدراسات النظرية والتطبيقية، ومن أجل المساهمات التي يقدمها للمسيرة الإنسانية بوصفها خلاصة لتجربة الإنسان في ماضيه وتفحص رؤياه المستقبلية.

وتمشياً ومسايرة لذلك الهدف؛ جاءت فكرة نقل هذا الكتاب إلى العربية، وأذكر أني حين فاتحته بتلك الرغبة أبدى ترحيباً فائقاً ورغبة في كتابة تصدير للقارئ العربي، إلا أن رحيله حرمنا جميعاً من تلك النفحة. إن البدء بترجمة كتاب يعرض لتاريخ العلم ونشأته وتطوره يوفر مادة علمية تضع الأساس لطرق موضوعات العلم الأخرى.

ليس هذا مجال الحديث عن الترجمة ومشكلاتها وتعقيداتها. يقولون: «إن

الترجمة السلســة لا تكون دقيقة» والعكس كذلك. وكثيراً مــاكان خيارنا ونحن نقل هذا الكتاب إلى العــربية ينحصــر في أمور ثلاثة: تطابق العبارة وســلاسة الصياغة وسلامة المعنى. ويزيد الأمر تعــقيداً أننا ننقل عن شخص عرف بتمكنه اللغوي وبأسلوبه الرفيع المتفرد. ومن مميزات أسلوبه؛ السكوت عن المعاني قبل بلوغها أحيــاناً. وهو أسلوب أدبي رائع بلا شك، لكنه أوجد لنا مشكلات في الترجمة ألزمتنا بالخروج على حرفية النص أحياناً. وكان خيارنا دائماً هو سلامة المعنى، محــاولين إيصال ما أراده الكاتب إلى ذهن القــارئ، مفتــرضين أننا قد أدركنا مراد الكاتب.

لقد كان من الواضح لنا أن الكتاب موجه في الأصل لطلاب الآثار وللقارئ الغربي، ومن ثم كــان لابد من إضافة هوامش لشــرح أمور أو سَدّ ثغــرات قد يحتاجها الطالب والقارئ العربي، إلا أنــه كان لزاماً علينا الاكتفاء بالحد الأدنى منها وإلا خرج الكــتاب عن مساره وابتعــد عما أراده له كاتبــه. كذلك يحوي الكتاب الأصل صوراً ـ في أغلبها ـ لبعض الشــخصيات التي أسهمت في تطور هذا العلم، وقــد رأينا عدم جدوى نقلهــا إلى الطبعــة المترجــمة إذ إن ذلك لن يُنقص شيئاً ذا معنى.

أثناء إعداد هذه الترجمة؛ كانت نيتي تتجه إلى إضافة فصلين، يغطي أولهما النشاطات الآثارية فــيما وراء الغرب، أو بعــبارة أدق؛ في تلك المناطق التي لم يسلط عليهــا الضوء بشكل كاف، مثل اليــابان وأمريكا الجنوبية وأوربا الشــرقية وماكان يعرف بالاتحاد السوفيــتي. أما الفصل الثاني؛ فقد كنت أنوي أن أعرض فيه ما استحدث في علم الآثار خلال العقد التاسع من هذا القرن، وسد الثغرة الزمنية بين ظهور الكتــاب الأصل وظهور النسخة المترجمــة. وعلى أهمية هذه الأمور فيــما أرى، إلا أنني استحــضرت كلمات المؤلف في مقــدمته «. . . في

تلك الحالة، لن يكون تاريخاً موجزاً..».

وهناك بضع مسائل منهجية متعلقة بأسماء الأعلام والبلدان والمؤلفات. وقد درجنا في نقل هذه إلى العربية على صياغة المسميات حسبما علمنا أنها تنطق في لغاتها التي كتبت بها. لذا؛ فأسماء الأعلام وبعض أسماء البلدان الفرنسية والألمانية والأسكندنافية والإيطالية والأوربية الشرقية وغيرها كتبناها كما علمنا أنها تنطق في هذه اللغات، فعسى ذلك يزيل الغرابة التي قد يراها فيها القارئ العربي غير العارف بتلك اللغات. هذا شيء؛ والشيء الثاني هو أننا نورد الاسم للعلم أو المكان باللغة العربية ولغته الأصلية معاً في أول وروده بتقديم الصيغة العربية على الأصلية، ثم نكتفي بالصيغة العربية بعد ذلك بعد أن عرّفنا القارئ بالمقصود. أما أسماء المؤلفات فهذه قد نقلناها إلى اللغة العربية أيضاً، وكما فعلنا بأسماء الأعلام والبلدان أوردنا المنقول والأصل معاً بتقديم الترجمة العربية على الأصل حتى لايفسد السياق، يليه العنوان الأصلي. ولايفهم من ذلك أن هذه المؤلفات مترجمة من قبل إلى العربية، إذ إن العكس هو الصحيح، فليس هناك منها ماهو مترجم إلى العربية حسب علمنا، ولو علمنا شيئاً لأثبتناه عند ذكره. وربما خالفنا بعض الباحثين ورأى أحقية تقديم الأصل الإفرنجي على ترجمته في هذا العمل، وهذا أمر كنا قد وقفنا عنده وقفة تساؤل، ولكن حرصاً منا على انسياب اللغة آثرنا النهج الذي نهجناه.

وفي ختام هذه المقدمة، أود أن أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور عبدالرحمن بن محمد الطيب الأنصاري، عضو مجلس الشورى بالمملكة العربية السعودية، والعميد السابق لكلية الآداب بجامعة الملك سعود، والرئيس السابق لقسم الآثار والمتاحف فيها ـ الذي وقف خلف فكرة ترجمة هذا الكتاب ـ على تشجيعه المستمر ليخرج الكتاب إلى النور، كما أتوجه بالشكر للأستاذ

الدكتور أحمد بن عمر الـزيلعي رئيس قسم الآثار والمدير الأسبق لمركز البحوث بكلية الآداب، على مـا تفضل به من دعم ومـا لقيتـه منه من مساندة بوصـفه رئيساً لقسم الآثار.

والشكر أجزله للأستـاذ الدكتور عبدالـقادر محمود عبـدالله على مابذل من جهد وماتكبد من مشقة في مراجعة الترجمة وتصحيح الصياغة اللغوية، وعلى تصويب ترجمـة عبارات فرنسيـة وألمانية، إضافة إلى مـا وجه به من تعديلات أخرى، فـعل ذلك بمقـدرة ودقة يعـرفهـما عنه كل من عـمل معـه. والشكر موصول للزميل الدكتور يوسف مختار الأمين على ماعاناه من مراجعة للترجمة ومالفت نظري إليه من مـلاحظات. إن ما تحويه هذه الترجمة من مـحاسن أمر يفوق قدراتي، ومـاكان لها أن تخرج بما ظهرت به لولا الحوار والنقـاش المثمر والمقترحات البناءة التي لقيتها من هذيـن الزميلين، أما ماقد يلمس في الترجمة من إخفاق وقصور فإن ذلك يبقى مسئوليتي وحدي.

والشكر أيضاً للزملاء الدكـتور فؤاد أحمد الشرقاوي والدكـتور عاصم نايف البرغوثي والدكتور جمال حسين الحـرامي على ماقدموه لي من عون في ترجمة بعض العبارات الإغريقية واللاتينية وتصحيح كتابة بعض أسماء الأعلام والمواقع من الفترة الكلاسيكية.

ولابـد مـن تسجيل كلمة عـرفان ـ وإن جاءت مـتأخرة ـ لأسـتاذنا الراحل غلين دانـيال على ترحيبـه بترجمـــة الكتاب، والشكر لمؤسسة ثيمس وهدسون ـ الناشر الأصلي ـ على الموافقة على الترجمة.

كما يسـعدني أن أتقدم بجزيل الشكر لمركـز البحوث بكلية الآداب بجـامعة الملك سعود على ما قدمه من دعم مالي لتغطية تكلفة النسخ ومراجعة النص.

والشكر لدار الفيصل الثقافية التي تكفلت بنشر هذا الكتاب مساهمة منها في نشر المعرفة الإنسانية إلى أبناء العربية، وكافة العاملين والمحررين في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

الشكر لأفراد أسرتي الذين كانوا عـوناً لي، ولكل من أسهم في إخراج هذا الكتاب.

والحمد والشكر لله من قبل ومن بعد.

عباس سيد أحمد محمد علي

مقدمة المؤلف

صدر المجلد الأول من سلسلة الشعوب والأماكن القديمة Ancient Peoples and Places ، وهو كتاب البيرو **Peru** لجفري بوشنيل Geoffery Bushnell في عام ١٩٥٦م.

والآن وبعد مضي خمسة وعشرين عاماً على وجود هذه السلسلة، وطباعة خمسة ملايين كلمة وخمسة عشر ألف صورة وشكل؛ وصلنا إلى المجلد المئة. كانت قد جاءت فكرة هذه السلسلة إثر حوار عارض بيني وبين سايمون يونغ Simon Yaung أحد تلاميذي السابقين، الذي كان وقتها من العاملين في مؤسسة ثيمس وهدسون للنشر Thames & Hudson، ثم أصبح مديراً لمؤسسة جون موري John Murray . لكن القرار الخيالي لبدء السلسلة ودعمها بقوة يعود إلى ولتر نيوراث Walter Neurath الذي أسهم فيها بشكل فعّال، والذي كانت وفاته في ١٩٦٧ خسارة فادحة للجميع. كان المجلد الأول من تصميم زوجته إيفا Eva . وإني لجد سعيد أن أهدي هذا المجلد لولتر وإيفا، اللذين كان لهما الفضل في ظهور هذه السلسلة.

أما أهداف السلسلة فهي بسيطة: أن تلخص بشكل موثوق وسلس ماهو معروف عن الشعوب القديمة: (الاسكائيين، والأترسك والفينيقيين والمايا) أو الأماكن القديمة: (بابل والقسطنطينية والمكسيك، ونيوغرينج وبريتاني). وكنا نهدف أن تفي هذه الكتب بحاجة الطلاب والقارئ العام الذي يبحث عن تلخيص يحوي آخر ماتوصلت إليه المعرفة عن شعب معين أو مكان ما أو

موضــوع ما عن الماضي، وفي الوقت نفسه أن تمكن المتخـصص من الانطلاق منها لإعـداد قائمة بالمراجع الخاصـة بالموضوع لاطّلاع أعمق. وقـد كان هدفنا ماوسعنا حماية الآثار من السقوط في وحـلها بعرض الإنجازات الفنية للشعوب القديمة في شكل لوحات. لقـد كان النجاح حليفنا أحيـاناً، وقد وصف سايرل كونولي Cyril Cannolly مرة هذه الـسلسلة بقوله: «إنهـا القنطرة المثاليـة بين محدودي الثقافة وموسوعي الثقافة».

ونحن نتـأهب لإصدار المجلد المئـة، طلب مني الناشر أن نحـتفل بالمناسـبة بإصدار موجـز لتاريخ علم الآثار. لقد كان اعتقـادي أنني قد قلت كلّ ما أود قوله في هذا الموضوع في كتبي: **العصور الثلاثة The three Ages ومئة عام من علم الآثار Hurdred Years of Archaeology وفكرة ماقبل التاريخ The Idea of Prehistory والإنسان يكتشف مـاضيه Man Discovers His Past وأصول ونشأة علم الآثار Origins and Growth of Archaeology ومئة وخمـسون عاماً من علم الآثار Hundred and Fifty Years of Archaeology**. ولكنني وجدت في هذا الطلب مناسـبة لحصـر أفكاري في مقـالة مطوّلة، لذا فهي بالضـرورة انتقـائية وشخصية في أفكارها.

وقد سعـيت لأبرز أموراً أراها مهمـة، ليس في مجال الاكتـشافات الآثارية فحـسب؛ وإنما في مجال تاريخ الفكر الـبشري مما يخص مـاضي الإنسان على حد سواء.

لقد كنت مدركاً منذ البداية استحالة معالجة تاريخ طويل لعلم إنساني متطور يمارس الآن على نطاق واسع في العـالم بأسره معـالجةً تامـة في كتاب مـوجز كهـذا، ولهذا السبب أشـرت خلال المتن إلى مراجع أخرى يـجد فيهـا القارئ معالجات أكثر موثوقية وأوفر معلومـات. لقد جزّأت القصة في الفصول الخمسة

الأولى إلى خمس فترات: الأولى من البداية إلى عام ١٧٩٧، حين كتب جون فرير John Frere خطابه الشهيـر. والثانية في ١٧٩٧ إلى ١٨٦٧، وهو تاريخ إقامـة المعرض الدولي في باريس، بعد انقـضاء ثماني سنوات على نشر كـتاب شارلس داروين **أصل الأنواع Origin of Species** في عام ١٨٥٩. والثالثة من عام ١٨٦٧ إلى قيـام الحرب العالمية الأولى. ثم الفتـرة الرابعة لربع القرن الذي يفصل بين الحربين الذي شهد نمواً مطرداً لـعلم الآثار في العالـم أجمع. وأخيراً الفـترة الخـامـسة من عـام ١٩٣٩م إلى الوقت الحـالي، وهي بالطبع أصـعب الفتـرات من حيث التعـامل معها بشكل وافٍ، بـل حتى غير وافٍ في كـتاب مـوجز. وفي كل واحـد من هذه الفـصـول ـ عدا الفـصل الخـامس ـ طرقتُ موضوعات وأمـاكن بشكل منفصل. أما الفصل السادس فقـد حوى انطباعات شخصية لما أعده أهم المحاور في التطور التاريخي لعلم الآثار.

كان أول مـؤتمر عن تاريخ علم الآثار قـد عقد في أرهـس في عام ١٩٧٨، وكنت وأُول كلنت جنسن Ole Klindt Jensen (الذي توفى عـام ١٩٨٠) قـد اضطلعنا بتنظيمه. ونشرت البـحوث التي قُرأت في المؤتمر في كتاب باسم **نحو تاريخ لعلم الآثار Towards a History of Archaeology**. لقد أفدت كـثيراً من ذلك المؤتمر وأبحـاثه، وبخاصة تلك التـي تخص تطور نظام العصـور الثلاثة، والبـحث الذي قـدمه ديلب شـاكـراباراتي Dilip Chakrabarti عن تاريخ علم الآثار في الهند وك. سلينار K. Slenar عن علم الآثار في تشكوسلوفاكيا.

إنني ممتن لولتر وإيفا نورات للتشجيع المتـواصل الذي تلقيته منها أثناء قيامي بتحرير **سلسلة الشـعوب والأماكن الـقديمة**، وبعد رحـيل والتر لخلفـه توماس نورات Thomas Neurath، وهو أحد تلاميذي وصـديق مقرَّب لي يعمل الآن مديراً للمؤسســة. كما أني ولربع قرن من الزمان ظللت مستـأنساً بآراء أعضاء

هيئة التحرير في مؤسسة تيمس وهدسون متلقياً نصائحهم ومساعداتهم، وبخاصة ما كان من إريك بيترز Eric Peters الذي يدين له الكثيرون ممن كتبوا عن الموضوعات القديمة، لقد قام هو وزميله كولن ردلر Colin Ridler بتحرير هذا الكتاب فأفدت كثيراً من نصحهم ونقدهم. لقد أرادا لهذا الكتاب أن يحوي المزيد، وربما كان هذا هو ما يتطلع له القراء المأمولون أيضاً، لكنه بذلك لن يكون تاريخاً موجزاً، بل إنه في هيئته الحالية قد يصعب وصفه بأنه موجز. وسواء أكان حجمه كبيراً أم صغيراً فعساه أن يحقق هدفه المنشود؛ وهو تحفيز كل من هو مهتم بماضي الإنسان إلى معرفة الكيفية التي تطور بها علم الآثار، ولينطلق من هناك إلى قراءة كتب أكثر تفصيلاً. هذا هو هدف السلسلة، وهو وضع محدودي الثقافة فوق القنطرة المؤدية إلى مرافئ الثقافات الموسوعية. وهنا تكمن حقيقة وإثارة افتتان أن تكون ـ أو حتى أن تحاول أن تكون ـ آثارياً، وأن تلم بما هو معروف في الحاضر عن الشعوب والأماكن القديمة. ولكننا يجب أن نذكر دائماً أن ما هو معروف في وقتنا الحاضر هو كالحاضر نفسه؛ لحظة عارضة. وهناك في علم الآثار أمر واحد لا خلاف حوله، وهو أن ما نقوله اليوم عن السومريين أو الآثار الميغاليثية ليس ما كان يقال قبل ربع قرن من الزمان حين بدأت هذه السلسلة، كما أنه بلاشك سيختلف عما سيقال بعد ربع قرن آخر حين يحتفل محرر جديد لهذه السلسلة بإصدار المجلد المئتين.

غ. دانيال

الفصل الأول
مولد علم الآثار

مقدمـــــة :

علم الآثار هو ذلك الفرع من "دراسة التاريخ" الذي يعنى بدراسة المخلفات المادية والحضــارية لماضي الإنسان. إن دارس التــاريخ بمعناه الشامل يهـتم بكل المصادر، سواء أكانت مكتوبة أم منقوشة أم مخلفات مادية. ومن خلالها يهدف المؤرخ إلى رسم صـورة مكتملة وصادقـة لماضي الإنسان مـا وسعـه ذلك. أما الآثاري فيـتعامل مع الأدوات والأشـياء المادية التي كـان يصنعها الإنســان مثل أسلحته ومســاكنه ومقابره وأماكن عبادته. لقد عُـرفت المصادر المكتوبة أول مرة منذ حوالي خمسة آلاف سنة مضت. وعليه، وبصفة عامة فإن هناك فرعين من علم الآثار: أولهـما هو ذلك الفـرع الذي يهـتم بماضي الإنسان قـبل المعرفـة بالكتابة، وهو الذي يسمى بعلم "ما قبل التاريخ" ويرجع إلى عهد المجموعات البشرية المبكرة التي عـاشت في شرق إفريقية، التي يعود تاريخـها إلى مليونين ونصف مليون سنـة خلت، أو ربما يزيد على ذلك. أما الفرع الـثاني من علم الآثار فهو الذي يختص بالمخلفات المادية للحضارة البشرية التي عرفت الكتابة[1].

---

(١) تقسم الحضارة البشرية حـقبتـين رئيسـتين همـا: أ- حقبـة ماقبـل التاريـخ وب - الحـقبة التاريخية، وقد اتُفق على جعل الكتابة فيصلاً بين الحقبتين. أما أقدم دليل للكتابة معروف لدينا فهو المخطوطات السومرية التي عثر عليهـا في موقع الوركاء بجنوب وادي الرافدين التي يرجع تاريخها إلى ٣٢٠٠- ٣٠٠٠ ق.م. (المترجم).

في بادئ الأمر كانت المخلفات المادية لهذه المجتمعات تحظى بالقدر نفسه من الأهمية الذي تحظى به المصادر المكتوبة والمدونة، وربما تفوقها أحياناً. تلك هي الفترة التي يشار إليها بفجر التاريخ. وعند ظهور المصادر المكتوبة وتعددها تنتقل الحضارة من مرحلة فجر التاريخ إلى الفترة التاريخية بمعناها الدقيق. عندها تصبح دراسة المخلفات المادية للإنسان ـ كما يشاع كثيراً ـ أداةً مساعدة تخدم علم التاريخ.

يحدثنا قاموس أكسفورد الإنجليزي أن أصل كلمة آثار "أركيولوجيا" مشتقة من الكلمة الإغريقية "أرخيولوجيا"[1] التي تعني: "الاهتمام بالأشياء القديمة"، ويحدثنا كذلك عن كيفية استعمالها، فهي تعني أولاً التاريخ القديم بصفة عامة، وتعني ثانياً وصفاً تفصيلياً أو دراسة تفصيلية للمخلفات الأثرية[2]، ثم تعني ثالثاً الدراسة العلمية للمخلفات الأثرية والحضارية لفترة ماقبل التاريخ. في الوقت الذي لم يعد فيه الاستعمال الأول للكلمة مجدياً فإن الاستعمال الثالث لها أصبح محدوداً. إن حقبة ما قبل التاريخ ـ وإن كانت تُعنى بأطول الفترات عمراً تلك التي يهتم بها الآثاري ـ إلا أنها تمثل جزءاً من علم الآثار الذي يعني حسب التعريف الثاني للكلمة: "الوصف المنهجي للآثار ودراستها"، وهكذا يكون التفسير الثاني للكلمة هو الأقرب للحقيقة. أما الشيء الذي لم يوضحه تعريف قاموس أكسفورد الإنجليزي فهو أن الوصف التفصيلي للمخلفات الأثرية ليس المقصود منه وصف المخلفات الأثرية لذاتها، وإنما هو وسيلة

(١) لعل الكلمة الإغريقية هي أرخيولوغيكس. (المترجم).

(٢) في هذه الترجمة تستعمل عبارة «أثرية» لتعني كل ما يتعلق بالمخلفات القديمة، أما عبارة «آثارية» فتعني ما يتعلق بعلم الآثار؛ مثل «مواقع أثرية» و«تنقيبات آثارية». (المترجم).

لتسليط الضوء على ماضي الإنسان في مرحلة ماقبل التاريخ والفترة التاريخية[1].

يوضح جورج دو George Daux في كتـابه الرائع المختصـر عن تاريخ علم الآثار المســمى **مراحـل علم الآثار** (١٩٤٢م) **Les Etapes de L'Archéologie** الذي صـدر في سـلسلة **Que- sais- je** أن لفظة "عـلم الآثار" قـد أُحـيـي استـعمـالها في الوسط العلـمي في القرن السـابع عشـر على يد جاك سـبون (١٦٤٧ - ١٦٨٥) Jacques Spon. وهو طبيب عاش في مدينة ليون ثم أجبر على مـغادرة فرنسـا بعد نقض "أمـر نانت" الملكي[2]، وزار عدداً من الـبلاد يصحبه سـير جورج ويلار George Wheeler (المتوفى في عام ١٧٢٣م) الذي كتـب عـام ١٦٨٢م كتابـه **رحلة في بلاد الإغريق.. في صحـبة الدكتور سـبون** **A Journey into Greece in the Company of Dr Spon**. أعقبه الدكـتور سبون بكتاب نشر في أمسـتردام في عام ١٦٨٩ بعنوان **رحلة إيطاليا ودلماسـيا[3] وبلاد الإغريق والشـام، خلال الأعوام ١٦٧٥ - ١٦٧٦** **Voyage d'Italie, de Dalmatie de Gréce et du Levant fait aux années, 1675-1671** وكـتـاب آخـــر بعنوان

---

(١) جاء تعريف "علم الآثار" في دائرة المعارف البريطانية على أنه: "ذلك الفرع من المعرفة الذي يدرس المخلفات المادية لماضي الإنسان". أما دائرة المعارف الأمريكيـة فتعرفه على أنه: "العلم الذي يتعامل مع ماضي الإنسان بهـدف اكتشاف تاريخه، وصيـاغة تسلسـل الأحداث التي شهدتها حـقب ماقبل التاريخ والحقب التاريخـية المبكرة". كذلك تجدر الإشارة هنا إلى أن المصادر الأمـريكية تورد عبارتي "علم الآثار" و"آثار ماقبل التاريخ" وهما يتبادلان معـناهما أحياناً. لعل ذلك يرجع إلى حقيقة أن المخلفات الحـضارية هناك، التي يتعـامل معهـا علم الآثار، تعود في غالبـها ـ وخاصـة في أمريكا الشمالية ـ إلى حقب لم تعرف الكتابة. (المترجم).

(٢) "أمر نانت" أمر ملكي أصدره الملك هنري الرابع في ١٥٩٨ يمنح البروتسـتانت حرية الاعتقاد، وقد أطلق عليه اسم المدينة الفرنسية التي صدر فيها. (المترجم).

(٣) "دلماسيا" هي الجزء الغربي مما كان يعرف بيوغسلافيا. (المترجم).

منوعـات غنيـة من الشـرق Miscellanea eruditae antiquitatis نشر فـي ليون خلال السنوات ١٦٨٩- ١٧١٣م.

متى ولد علم الآثار إذن؟ ومن هو الآثاري الأول؟ يحدثنا التاريخ بأن الأواخر من ملوك بابل المحليين قـاموا بعدد من المـشروعات العـمرانية فـي المدن القديمة لسومر وأكـاد، وأن بختنصر ونابونيد ـ مـن آخر ملوك بابل ـ قد قامـا بحفريات وعمليات ترميم في مدينة أور[١]. وقد سر الملك نابونيد كثيراً حين وجد في أور مخطوطات قـديمة لأسلافه الأوائل. أما ابنتـه الأميرة إن ـ نيغـالدي ـ ننّا (وكان اسمها قد قرئ من قبل خطأ على أنه بلشالتي ننّر) فقد ظلت لعدة سنوات تقوم بالحفر في معبد أغادة[٢]. وحين أدى هطول الأمطار الغزيرة إلى كشف النقاب عن القاعة الرئيـسة للمعبـد، تذكر السجلات أن: "ذلك الاكتـشـاف قد أثلج صدر الملك وأشـاع البهـجة على محـياه". وكان للأمـيرة إن ـ نيـغالدي ـ ننّا حجرة في قصرها احتفظت فيهـا بما جمعته من قطع أثرية محلية. (للمزيد من التفاصيل عن هذه النشاطات الأثرية في العصـر البابلي نحيل القارئ إلى كتاب جون أوتس Joan Oates، **بابل Babylon** الذي صدر فـي عام ١٩٧٩م، ص ١٦٢.

بالطـبع لم تكن هذه المحـاولات الأولى المـبكرة هي البـداية لعـلم الآثار المعروف، ولـم تعـرف دنيا الإغـريق والرومان الكلاسـيكية علماً يـعنى بدراسة التاريخ الـقديم للإنسان عـبر المخلفـات المادية لحضـارته. هناك مؤرخـون مثل

(١) بختـنصر الثانـي حكم خلال الأعوام ٦٠٥-٥٦٢ ق.م، ونـابونيد حكم حـلال الأعوام ٥٥٥-٥٣٩ ق.م. (المترجم).

(٢) أغادة يقصد بها أكد، ولعل خطأً مطبعياً قد وقع في الأصل. (المترجم).

هيرودوت[١] وبعض علماء الإغـريق ممن سجّل ملاحظات إثنـوغرافية جـيدة، وشاهدوا مـجمـوعات من قبـائل البرابرة البـدائية المعـاصرة لهم[٢] . إن هذه المحـاولات تدخل في نطاق علـم المـوروثات الشعـبـيـة والأعراق البـشـرية والإنثروبولوجـيا، إلا أنهم ليـسوا بآثاريين على أية حال عـلى أنهم رأوا أناساً كشف الآثاريون مخلفاتهم في وقت لاحق.

لقد كانـت للرومان والإغريق أفكارهـم عن الماضي البشـري إلا أنها لم تكن ترتكز على علم الآثار، فـقد عرف الإغـريق الكثيـر عن تاريخهم في العـصر الموكيني قـبل استعـمال الحديد. كـما أن كلاً من الإغـريق والرومان تأملوا في تطور الصناعة على مر العصور وراقبـوها، فكانت لهم عصور حجرية وبرونزية وحديدية، كـما كانـت لهم عصور ذهبـية. كانت هناك مـلاحظات على أصل المدنيات وانتشار الحضارة، ففي عهد ديودور الصقلي Diodorus Siculus ادعى بعض المصريـين أو الإغريق المنحدرين من أصـول مصـرية أن العنصر البـشري انتشر من مـصر القديمة، وفي وقت لاحق عمم هذا الحكم ليشـمل الحضارات الأخـرى كذلك، إلا أن هذا الاعـتقـاد لايعدو أن يكـون منطلقاً من تعـصب محلي، ولـم يكن إرهاصاً للأفكار المشابهة التي سادت في بداية القرن العشرين وجعلت من مصر مركزاً رئيساً للانتشار الحضاري[٣].

ومن الغريب أن هناك نـصوصاً صيـنية يعود تاريخـها إلى عام ٥٢ للمـيلاد

(١) ولد هيرودوت Herodotus في عام ٤٨٤ق.م. في مـدينة ساحليـة تطل على بحر إيجـة في غرب تركيا الحالية، ويعد كتابه هستوريا القاعدة التي ارتكز عليها علم التاريخ. (المترجم).

(٢) أطلقوا على هذه القبائل لفظة "برابرة" والمقصود بها الشعوب غير الإغريقية. (المترجم).

(٣) اظهر كتـاب الفترة الكلاسيكيـة من مؤرخين وفلاسفة (أفـلاطون، أرسطو، هيرودوت وثيكوديدس) خلال القرنين الخامس والرابع ق.م. اهتمامـاً بالماضي، وكانت نظرتهم تتلخص في أن التاريخ يسير في حلقات Cycles، أي أنه يعيـد نفسه Cyclical، وقد سـادت تلك النظرة حتى سقـوط روما وسيادة الديانة المسيحية. (المترجم).

أعطت تسلسلاً لماضي البشرية مبتدأً بعصر حجري فعصر برونزي ثم عصر حديدي. وفي كتاب تاريخ النظرية الإثنولوجية **The History of Ethnological Theory** الذي صدر في عام ١٩٣٧، كتب البروفسر ر. هـ. لووي R. H. Lowie مشيراً إلى هذا التصور: "ليست هذه حالة ذكاء سبقت العلم بألفي عام، فالذكاء المتقد قد يلقي ببعض الاحتمالات دون أن تكون مستندة على أية حقائق، كما أنه ليست هناك محاولة حتى لاختبارها". إنني أعتقد أن النصوص الصينية ربما تضمنت ذكريات شعبية قديمة للتتابع التقني للعصر الحجري والبرونزي والحديدي الذي ترسخ حقيقةً تاريخيةً وأصبح حجر الزاوية لعلم الآثار الحديث في بداية القرن التاسع عشر[١].

إن النصوص الصينية والتصورات الإغريقية والرومانية لم يكن لها تأثير على الفكر الأوربي الغربي في المرحلة التي أعقبت الإمبراطورية الرومانية، ولم يكن علم الآثار معروفاً بعد، وكان ينظر إلى الماضي من خلال كتاب العهد القديم والكتاب الكلاسيكيين. ففي كتاب تاريخ ملوك بريطانيا **A History of Kings of Britain** الذي صدر في عام ١٥٠٨، جاء جفري مونماوث Geoffrey Monmouth ببروتس ابن إينياس Brutus Son of Aeneas إلى إنجلترا في عام ١١٢٥ق.م. ليبدأ به تاريخ بريطانيا. ذلك هو الماضي المفترض، ماضٍ يقوم على الأسطورة والخرافة، وهو كل ماكان بوسع الإنسان عمله قبل إدراكه أهمية الدليل الأثري.

---

(١) هناك إشارة إلى أن هيسويد الشاعر اليوناني قد أشار في القرن الثامن ق.م. إلى تعاقب عصور خمسة على الحضارة البشرية:
أ- عصر ذهبي (عاش فيه الإنسان في سلام).
ب - عصر فضي (كان أقل حظاً من سابقه).
ج - عصر برونزي.
د - عصر أبطال الملاحم.
هـ - عصر حديدي (وهو العصر الذي عاش فيه هيسويد، وأسماه عصر الشقاء). (المترجم).

حوض البحر الأبيض المتوسط ومصر:

تسبب انهـيار الإمبـراطوريات الإغريقـية والرومانيـة في اندثار الأفكار التي سادت في العـالم الكلاسيكي عن الإنسـان القديم. فالتـصورات التي قدمـها هيسويد Hesiod ولوكريتس Lucretius استبدل بها قصة خلق العالم والإنسان وقصة الطوفان الذي عم العالم كما جاء في سفر التكوين(١). ومع ظهور عهد النهظة التعليميـة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر عـاد الاهتمام بالفترة الكلاسيكية وكتابهـا أمثال: لوكريتس وأرسطو Aristotle وهيسويد وهيرودوت وأعيدت قراءة ماجاءوا به. وكذلك الحال بالنسبة لأعمال مثل **تعليقات على حرب الغال** لقيصر و**أغريكولا Agricola** و**ألمانيا**(٢) **Germania** لتاكيتس Tacitus التي تضمنت وصـفاً لحيـاة "البرابرة" في وسط أوربا وشمـالها من شعـوب السلتيين والغال والألمان والبريطانيين والغوط(٣). كذلك شملت وصفاً لطبقة من المجتمع السلتي يدعون الدروديين(٤) كان منهم المعلمون والكهنة والقضاة(٥).

(١) بعد سـقوط روما وانتـشار المسـيحيـة تحولت النظرة للماضي حين نـادى أشخاص من أمـثال سنت أوغستين (٣٥٤-٤٣٠م) إلى أن التاريخ لايعيد نفسه، وإنّما يسـير نحو غاية محددة مرسومة، Pur-posive وأنه يسير في طريق لارجعة فيه Linearpath. وقد أثرت تلك الأفكار كثيراً على كتاب عصر النهضة. (المترجم).

(٢) **أغريكولا** دراسة مدح فيها تاكيتس والد زوجته رغينايوس يوليوس الملقب بأغريكولا، وقد نشرت في عام ٩٨م. أما **ألمانيا** فهي دراسـة عن الشعـوب الجرمـانية شملـت وصف البلاد وأهلهـا وعاداتهم وتقاليدهم. (المترجم).

(٣) السلتيين: أحد الشعـوب الهندية الأوربية التي استقرت قديماً في غرب أوربا، والغـال هم الفرنسيون القدماء، أما الغوط فهم شعب جرماني قديم.

(٤) الدروديين أو الدرود Druids عبارة أطلقها قدماء الإنجليز على الكهنة. (المترجم).

(٥) لعله مـن الجـدير بالملاحظة هـنا أن نقف عند ابن خـلـدون (١٣٣٢- ١٤٠٦) الـذي عـاش فـي شمال إفريقية في القرن الرابـع عشـر الميلادي وترك أعمـالاً ضخمة أفرغ فيها معلوماته عن تاريخ=

إن المدنيات الكلاسيكية عاشت حتى القرن السادس عشر من خلال مخلفاتها الحضارية. كما أن الباحثين الإيطاليين والرحالة من أقطار أخرى ممن زاروا إيطاليا وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى ومصر بدأوا يتعرفون إلى آثار العصر الكلاسيكي وآثار الشرق الأدنى ويصفونها ويبدون إعجابهم بها. كما أن القساوسة والرهبان بدأوا يجمعون التحف والآثار وحولوا منازلهم إلى متاحف خاصة. وفي هذه الأثناء ظهرت في إيطاليا عبارة "دلِتّانتي" لتطلق على المعجبين والمشغوفين بالفنون.

في عام ١٧٣٢م قامت في إنجلترا جمعية مماثلة لمحبي الفنون على أيدي مجموعة من أهل العلم، وعقد اجتماع لها ضم كل المهتمين والرحالة الذين زاروا إيطاليا وقاموا "بالرحلة الكبرى". في مقدمة كتاب آثار الأيونيين **Ionian Antiquities**(١) كتب رتشارد شاندله Richard Chandler عن أصل محبي الفنون ومنشئهم فقال: "إن مجموعة من الرجال ممن كانوا قد قاموا بعدة رحلات في إيطاليا عادوا إلى بلادهم يدفعهم الإعجاب بتلك الفنون التي شاهدوها خارج أوطانهم، فأسسوا جمعية باسم محبي الفنون لتشجيع الاهتمام بالأعمال الفنية وتذوقها".

= المغرب والأندلس والمشرق العربي وسرد فلسفته عن نشوء المجتمعات وتطورها وانحلالها. ويعد ابن خلدون من أوائل من أرسوا قاعدة علم الاجتماع. يرى في مقدمته أن التطور الحضاري أمر حتمي تقف خلفه دوافع معينة، حددها في السببية الاجتماعية وضرورة التعاون والعوامل المؤثرة في المجتمع (وهي الإقليم والمناخ والتربة). ويرى أن المجتمع متى ما نشأ بحكم العوامل السابقة فإنه يتطور وفق مبدأ ثابت من طور بدوي إلى غزوي ثم حضري وذلك قبل أن ينتهي إلى مرحلة التحلل والانهيار. (المترجم).

(١) أيونيا اسم أطلق على الساحل الغربي لآسيا الصغرى وبعض جزر بحر إيجة بعد أن رحلت جماعات من بلاد الإغريق في أعقاب الغزو الفارسي (حوالي ١٠٠٠ق.م.)، ولعلها العبارة التي جاءت منها كلمة «يونان». (المترجم).

لقد شهـدت الفترة ١٧٥٠- ١٨٨٠ التي تمثل عصر النهـضة الثاني في بلاد الإغريق تجدد الاهتمـام بالدراسات الكلاسيكية، حيث تم اكتـشاف آثار العالم الكلاسيكي على أيدي علمـاء فرنسيين وألمان وإنجليـز. لقد بدأ عصر جـامعي التحـف الإنجليز بالرحـالة الفنان جيـمس استـيوارت James Stuart (١٧١٢-١٧٨٦) والمعماري نيكولا ريفت Nicholas Revett (١٧٢٠ - ١٨٠٤). خلال الأعـوام ١٧٥١ - ١٧٥٣ التي قـضيـاها في أثيـنا في رسم الآثار وقـياسـهـا وتسجـيلها، ودوّنا نتائجهـما في كتابهـما العظيم **آثار أثينا The Antiquities of Athens**، الذي ظهر الجزء الأول منه بعـد طول انتظار في عام ١٧٦٢ بينما لم يظهر الجـزء الرابع إلا في عام ١٨١٦، وقد موّلت جـمعية مـحبي الفنون هذا الكتاب، كـما قـامت بتمـويل أول حملة لاسـتكشاف الآثار الأيونيـة في عام ١٧٦٤، وكـانت تضم كـلاً من ريفت وشـانده ووليم بارس William Pars. وقد نشرت نتائج هذه الحـملة في عدة أجزاء بين الأعوام ١٧٦٩- ١٧٩٧ تحت عنوان **آثار أيونيا The Antiquities of Ionia**. في الوقت نفـسه الذي كان فـيه استـيوارت وريفت يعـملان في أثينا؛ كـان اثنان من الإنجليز هـما روبرت وود Robert Wood وجيـمس دوكنز James Dawkins يقـومان بجـولة في آسيـا الصغرى والشرق الأدنى ونشرا نتائجهما في مجلدين لروبرت وود هما **خرائب بالميـرا Ruins of Palmyra** في عام ١٧٥٣ و**خـرائب بعلبك Ruins of Baalbec** في عام ١٧٥٧.

خلال القرن الثـامن عشر فتـر حماس جامعي التـحف الإيطاليين وتضاءل، وانتقل كثير من التحف الرومانية إلى باريس ومدريد وميونخ وبراغ، ومع ذلك فعندمـا كتب يواخيـم وينكلمان Joachim Winchelman في منتـصف القرن الثامن عـشر كتابه الشـهير **تاريخ الفنون History of Arts** (١٧٦٣- ١٧٦٨) لم

يجد غيـر روما لتزوده بالمادة الأساس لذلك الكتاب. لقـد لقب وينكلمان هذا «بأبي الآثار»، فهو بلا شك أول من درس الفنون القـديمة دراسة تاريخية، ومع ذلك فإن تاريخ الفن ليس سوى وجه واحد من أوجه علم الآثار.

في البلاد الكلاسـيكية تزامنت الاكتـشافات الأثرية مع مـرحلة جمع الآثار الكلاسيكية ووصفها، فالمدن القديمة كبومبي وهيركيولانيوم إلى الجنوب الشرقي من نابولي استـمدتا أهميـتهمـا في التاريخ وفي تاريخ علـم الآثار من التدمـير الفجائي الذي لحق بهمـا نتيجة لبركان فيـسوف الذي ثار في ٢٤ أغسطس سنة ٧٩م. وعندما خمد البـركان في اليوم التالي كانت بومبي ترقد تحت سـتة أمتار من الركام والرماد البركـاني. أما في هيركيولانيوم فقد انجرفت الحـمم البركانية وتراكمت فـي طبقات سـميكة لتـغطي المدينة بما بلغ سمكه عـشرين مـتراً من الركام، وهناك كتب بـليني الأصغر Pliny the Younger بوصفه شـاهد عيان على هذه الأحداث المخيفة خطاباته إلى تاكيتس.

لقد اكتشـفت انقاض مدينة بومبي في أواخر القرن السادس عـشر أثناء حفر نفق. وفي عـام ١٧٠٩م بدأ التنـقيـب عن هذه المدن المدفـونة تحت الأنقـاض البركانيـة؛ فبدىء بهيركيولانيـوم أثناء الاحتلال النمساوي حيـث وجد العمال تحت الأنقاض البركانية ثلاثة تماثيل لنساء من المرمر، الشيء الذي أشعل حماس زوجـة الملك شـارل الرابـع ملك نابولي، فـبـدأ الملك حـفـريـاته في مـدينة هيركـيولانيوم في عام ١٧٣٨م. بعـد ذلك بعشر سنوات بدأ العـمل في مدينة بومبي حيث وجد في عام ١٧٦٣م النقش rei publicae Pompeianorum الذي قطع بأن الموقع هو فعلاً لمدينة بومبي.

استمرت الحفريات في هيركـيولانيوم عن طريق شق الأنفاق وغرس الأعـمدة تحت الأطلال حـتى عـام ١٧٦٥م حـيث كـشف النقـاب عن المسـرح القـديم

والبازيلكا وفـيلا البرديات، وتم رسم خريطة توضح كل مـعالم المدينة. وعلى مقربة من مدينتي ستابيا وغراغناتو استمرت الحفريات من عام ١٧٤٩م إلى عام ١٧٨٢م تحت رعاية الملك شارل الرابع ملك نابولي ـ الذي أصبح فيما بعد شارل الثالث ملك إسبانيا ـ وقد أسفرت الحفريات عن اكتشاف اثنتى عشرة فيلا.

لقـد أثّرت الاكتـشافـات والاهتـمام بالآثار الكلاسـيكيـة على الذوق وفن التـصميـم في أوربا في القرن الثـامن عشـر، وقام المتـحف البريطاني باقـتناء مجـموعة من المزهريات الإغـريقية التـي تخص سير وليـام هاملتون William Hamilton الذي عمل سـفيراً لبـريطانيا في نابولي عام ١٧٧٢م. وقـد ألهمت مؤلفاته التي كانت بعنوان **التحف الأتروسكية والإغريقـية والرومانية Antiquities Etrusques, Grecques et Romaines** التي ظهـــرت خـلال الأعـوام ١٧٦٦-١٧٦٧م، يوشع ودجـوود Josiah Wedgwood بتـصـمـيم قـوارير إغـريقـيـة وأتروسكية وبومبية[1]، ولا تزال مصنوعات ودجوود هذه في إسـتانفورد شير بإنجلترا تحمل اسم «أتروريا» اعترافاً بذلك الإلهام وإشارة إلى مصدره.

كـان الرحـالة الأوائل من العـرب والإغريق عـلى معـرفـة بالآثار المصـرية الشاخـصة، فهيـرودوت الذي لقب «بأب التاريخ» قام برحلات في بلاد مـصر جنوباً حتى أسوان، وكتب عن التحنـيط عند قدماء المصريين وعن الأهرامات. كمـا زار مصر كل من ديودور الصقلي وسـترابو Strabo وبوسانيس Pausanis وبليني الكبـير Pliny the Elder، وقد أطلق اسم ممنون بـطل رواية هومر خطأ على التمثـالين الكبيرين لأمنحوتـب الثالث في طيبة، كمـا أطلق الإغريق اسم المعبد الممنوني على المعـبد الجنائزي لرمسيس الثاني، إلا أن ديودور أسـماه قبر

(١) بومبية إشارة إلى بومبي. (المترجم).

أوزيماندیس (وهو اسم رمسيس عند الإغريق)، ونقل ديودور أحد النقوش الموجودة على أحد التماثيل على أنه يُقرأ: «اسمي أوزيماندیس ملك الملوك، فلو عرف أحد عظمتي ومرقدي، فليتفوق عليّ في أي من إنجازاتي» (وربما كان هذا هو مصدر قصيدة الشاعر البريطاني شيلي المسماه "أوزيماندیس"). اهتم الرحالة العرب الذين زاروا مصر في العصور الوسطى بأهرامات الجيزة، وتركزت اهتماماتهم في المجال الأول على العثور على الكنوز من داخل المقابر. أما الرحالة الأوربيون في القرن السادس عشر والسابع عشر وكذلك الثامن عشر فقلما تجاوزوا القاهرة وأهرامات الجيزة. وفي عام ١٦١٠ وصف رجل إنجليزي يدعى سانديس Sandys في كتابه رحلات **Travels** طريقة دخوله إلى الهرم الأكبر؛ فأوضح أن الهرم ليس مستودعاً لكنوز وإنما هو مقبرة لأحد الملوك. أما جون غريفس John Greaves من أكسفورد فقد زار مصر في عام ١٦٣٨ وكتب كتابه **تخطيط الأهرامات Prymidographia**، وكان له الفضل في جمع مقاييس دقيقة للهرم الأكبر، الذي قال عنه: «إنه مقبرة ملكية للفرعون، وإنه شعار الخلود»، كما أنه أتى بأول رسم تفصيلي دقيق للهرم الأكبر من الداخل أسماه «داخل أول وأبهى هرم». كذلك ظهر كتاب رتشارد بوكوك Richard Po-cocke **رحلات في مصر Travels in Egypt** في عام ١٧٥٥م ليوضح أن بوكوك قد ذهب أبعد من أهرامات الجيزة؛ حيث وصف أهرامات سقارة ودهشور وأتى بما يمكن أن يكون أول وصف لهرم جوسر المدرج، كما وصف مساطب الجيزة التي وفق في وصفها بأنها مدافن للأمراء والنبلاء.

كان نابليون بونابرت عندما بدأ زحفه على مصر من طولون في ١٩ مايو ١٧٩٨م قد زود جيشه بأمهر العلماء والرسامين ليتمكنوا أثناء الزحف من رصد جغرافية مصر ومواردها وآثارها، وكان من بين هذه المجموعة من العلماء

دولوميـــو Dolomieu ودومنيـــك فيفان Dominique Vivant وبارون دينون Baron Denon (١٧٤٧- ١٨٢٥م). ويقـال: إن نابليـون استـعـمل مـشهـد الأهرامات لغـرس الحماس في قلوب جنوده، ويذكـر أنه خاطبهم مـرة بقوله: «أيهـا الجنود إن أربعين قرنـاً من التاريخ تنظر إلـيكم من قمـة هذه الأهرام». وعلى الرغم من القـضـاء على الحمـلة الفرنسـيـة في ساحل أبـوقيـر على يد الأدميرال نلسون؛ إلا أن الجيوش الفرنسيـة بقيت في مصر لفترة حتى أغسطس ١٧٩٩م، وذلك حين أبحر نابليـون عائداً إلى فرنـسا. وفي هذه الأثناء أُنشيء المعهد الفرنسي المصـري الذي استمر حتى القرن العشـرين، ولم تشمل أعمال هذا المعهد الآثارية أية حفريات، بل انصبت أعماله على رصد الآثار الشاخصة وتسجيلها، وجمع كل ما يمكن جمعه من آثار.

وكان من بين القطع التي عـثرت عليهـا الحملة الفرنسـية حجر رشـيد الذي اكتشـفه جندي فرنسي مصادفـة خلال الحفر لإقامـة حصن قرب الإسكندرية. والحجر عـبارة عن لوح من البازلت الأسود طولـه ٣ أقدام و٩ بوصات (١١٤ سم) وعرضــه قدمـان و ٤٫٥ بوصة (٧٢سم) وسمكـه ١١ بوصة (٢٨ سم)، وهو يحمل نقـشاً بثلاثة أنواع من الخط، واعتـقد أحد الضبـاط ويدعى بوشار Boussard أن تكون لهذا الحجر أهمية كبـرى فأمر بترحيله إلى القاهرة، وهناك صُبت له قوالب من الجبس على شاكلته وأرسلت إلى باريس. وفي عام ١٨٠٢ عندمـا احتل الإنجـليز مـصر اسـتـولوا على كل القطع الأثرية التي جـمـعهـا الفرنسـيون بما في ذلك ـ وبعـد صعوبة بالغـة ـ حجر رشـيد، وهذا ما يفـسر الوجود الحالي لهـذه القطعة الأثرية التي لا تقدر بثمن في المتـحف البريطاني؛ إنها إحدى غنائم الحرب.

منذ القرن السادس عشر أخذ الرحالة الأوربيون يتجولون في وادي الرافدين، فزاروا التلين الكبيرين بالقرب من الحلة في بابل ومن الموصل في أشور، وهما التلان اللذان ذكرت كتب التراث اليهودية والعربية بأنهما موقعا مدينتي بابل ونينوى. وقد جمع الرحالة من هذه المواقع بقايا أوانٍ فخارية وقطع طينية، وبقايا ألواح مغطاة بكتابة بالخط المسماري كالتي وجدت على القطع الأثرية الفارسية القديمة. وفي عام ١٧٦٥م زار العالم الدنماركي كارستن نيبور Carsten Niebuhr خرائب برسيبولس[1] وأعد نسخاً لكثير من النقوش المسمارية التي وجدها هناك دون أن يعرف أنها تمثل ثلاثة أنواع من الخطوط. وبعد فك رموزها تبين أنها مكتوبة باللغة الفارسية القديمة واللغة العيلامية واللغة البابلية.

جامعو التحف في شمال أوربا وغربها:

مما يلاحظ أنه لم يتوافر لكل واحد من جامعي التحف الأوربيين ما يكفيه من وقت ومال لدراسة الآثار المصرية والكلاسيكية. وقد ذكر الدكتور وليام بورلاس الذي نشر كتابه آثار كورنول **Antiquities of Cornwall** في عام ١٧٥٤م بأنه لجأ إلى تلك الدراسة بديلاً للرحلات الخارجية.

إن نظرة سريعة إلى جامعي التحف البريطانيين توضح لنا ما كان يجرى آنذاك في مجال الآثار، ففي عام ١٥٣٣ عُين جون ليلاند John Leland (١٥٠٦- ١٥٥٢م) مسئولاً عن الآثار الملكية بأمر من الملك هنري الثامن، فتجول في بريطانيا واصفاً الأشياء ذات القيمة الأثرية كالمكتبات والأديرة والمباني

(١) برسيبولس هي المدينة التي أنشأها الإمبراطور دارا في عام ٥١٨ ق.م. لتصبح عاصمة للدولة الأخمينية، وقد دمرها الإسكندر في عام ٣٣١ ق.م. (المترجم).

القديمة. أما وليـام كامدن William Camden (١٥٥١ - ١٦٢٣م) الذي عمل في البدء مديراً لمدرسة وسـتمنستر قبل أن ينتقل إلى هيرالدر كـولدج؛ فقد قام برحلات مكثفة دارساً الآثار الشاخصـة في بريطانيا وداعياً للاهتمام بالآثار التي سمـاها: «تحف الماضي». وقد لاحظ أن بعض الناس يحـتقـرون دراسة الآثار ويزدرونها، بينمـا كان ذا نظرة مغـايرة تماماً. كتب يقـول: «في دراسة الآثار - التي يلازمهـا دائماً شعـور بالعزة وارتباط بالسـرمدية - غذاء دسم لـلعقل يليق بخلق قويم وسام». وفي عام ١٥٨٦م حين لم يتجاوز عـمره الخامسة والثلاثين نشر كتابه بريطانيا **Britannia** الذي يعد أول دليل للآثار البريطانية. ولمئتي عام تلت أعيد نشر الكتـاب عدة مرات بعد مراجعته وتنقيـحه، وفي الطبعة الأولى الأصلية ولأول مرة في أي كـتاب عن الآثار البريطانية يظهـر رسم توضيحي؛ وقد كان لمذبح سكسوني أُعيد استعماله في كنيسة في لويس في سسكس. وفي عام ١٦٠٠ حين أصـدر طبعـة جديدة من كـتابه بريطانيا، ضمنهـا رسومات للأستون هنج[١] وكذلك لعملات رومانية. لقـد كان كامدن دقيق الملاحظة، إذ توصل إلى مانسميه الآن بالعـلامات الدالة على الآثار في الحقول Cropmarks التي يمكن ملاحظـتها بسـهولة من خلال الصـور الجوية. وقد كـتب عن مدينة

(١) استون هنج Stonehenge هي أحد المعـالم الأثرية ليس في الآثار الأوربية فـحسب بل في مـجال الآثار عامة. وهي عبارة عن أنصاب من حجارة ضخمة يزن بعضها مايزيد على خمسة وعشرين طناً وتقف شامـخة إلى ارتفاع يزيد علـى خمسة أمـتار. ولعل أهم مـواقعها ذلـك الذي يقع في سهل سلسبـري في ويلتشير في وسط إنجلتـرا، ويعتقد أن أقـرب مصدر للحجـارة المستعملة فـيه يقع في مقاطعـة ويلز على بعد ٢٥٠ ميلاً من الموقع الأثري. ولايعرف تحـديداً متى أقيم هذا النصب إلا أن البعض يؤرخه في حـدود ٢٠٠٠ ق.م. وذلك أثناء العصر الحجري الحديث حين وفـدت جماعات بشرية من إسبانيا إلى إنجلترا وقامت ببنائه، وهناك ما يشير إلى إعادة بنائه في فترات مختلفة. كذلك لايعرف الهدف من بنائه أو وظيفته؛ إلا أنه يعتقـد أنه كان مكان تجمع للمناسبات الدينية، كما يرى آخرون أنه مرصد فلكي قديم. (المترجم).

ريتشبره الرومانية فقال: «لقد محى الزمن كل أثر لها، ولنتيقن أن المدن تموت كما يموت الإنسان، ها هي قد تحولت الآن إلى حقل للذرة نلاحظ ضعف نموه في تلك الخطوط المتقاطعة التي كانت يوماً شوارع للمدينة».

أما روبرت بلوت Robert Plot وإدوارد لويد Edward Lhwyd، من بين آخرين في بريطانيا فقد سارا على النهج نفسه الذي سار عليه ليلاند وكامدن. أصبح بلوت (١٦٤٠- ١٦٩٦) أول أمين للمتحف الأشمولي في أكسفورد، وظهرت مؤلفاته التاريخ الطبيعي لستافورد شاير **Natural History of Staffordshire** والتاريخ الطبيعي لأكسفورد شاير **Natural History of Oxfordshire** في الفترة من ١٦٧٠-١٦٧٩م. وكان بلوت عالم طوبغرافيا كما كان مؤرخاً وعارفاً بالآثار. وقد اهتم ـ كمعاصريه ـ بالزيارات الميدانية والاستفسارات والأسئلة الموجهة إلى الكهنة وملاك الأراضي ومديري المدارس. وكان من ضمن أسئلة بلوت: «هل سمعتم عن، أو رأيتم أية مقابر قديمة لأناس ضخام الهيئة أو جنرالات من الرومان أو آخرين من العهود البائدة؟». وكذلك فعل معاصره مشيل Machel الذي ضمن استبيانه أسئلة عن ماهية الأماكن التي وقعت فيها معارك سابقة؟ وأين توجد أكوام مستديرة من الحجارة أو التربة على قمم التلال؟ وهل هناك أنفاق أو حصون أو معسكرات؟

تولى إدوارد لويد (١٦٦٠- ١٧٠٨م) بعد أستاذه القديم بلوت أمانة المتحف الأشمولي، وقد كان رجلاً شمولي المعرفة، متعدد الثقافات، كتب في الجيولوجيا واللغة السلتية[١] والآثار، وزار العديد من المناطق في إنجلترا وويلز وأسكتلندا وإيرلندا. وفي عام ١٦٩٩م عندما اكتشفت حجرة الدفن الرئيسة

(١) اللغة السلتية أو الكلتية هي إحدى اللغات الهندية الأوربية القديمة التي سادت في أوربا خلال الألف الأول ق.م.، وقد تفرعت عنها اللغة الأسكتلندية والإيرلندية ولغة أهل ويلز في المملكة المتحدة. (المترجم).

لمقبـرة غرينج إلى الشـمال من دبلن[1]؛ زارها لويد وأعجب بـها كمـا أعجب بالحجارة المنحوتة منها. وقد كتب عن قطعة النقود الرومانية التي عثر عليها في قمـة الركام الموجود على المقبـرة: «إن المنحوتات الهمـجية على مدخل المقـبرة ومابداخلها يـشير إلى أنها أثر بربري، وأن قطعـة العملة تعطيها تاريخـاً سابقاً للغزو الإستماني أو الدنماركي، كما أن المنحوتات والتماثيل ذات طبيعة بربرية، وهذا يعني أن المقـبرة تخص أحد الإيرلنـديين القدماء. إنهـا ليست رومـانية، ولكنها تبـرز حاجتنا لإثبات أن الـرومان قد وطأت أقدامـهم تراب إيرلندا يوماً ما». لعل هذه واحـدة من أقدم الأمثلة وأوضحهـا في المنطق والجدل الآثاري. لقد اعتمد لويد على الحقائق المادية لا على الكتّاب الكلاسيكيين.

أما جون أوبري (١٦٢٦- ١٦٩٧) John Aubrey صاحب كـتاب **الأعمـار القـصيـرة Brief Lives**، الذي كـان صديقـاً للسيـد لويد، فقـد كان مـهتـماً بالدراسات الميـدانية الآثارية. وظل كـتابه **الآثار البريـطانية Monumenta Britannica** قـابعاً دون نشـر في مكتـبة البـودلين بأكسـفـورد حتى عـهد قـريب (١٩٨٠م). لقد كتب عن ويلتشير في عام ١٦٦٠م قائلاً: «دعنا نتخيل ما كان عليه الحـال في هذه البلاد في عصر البـريطانيين القدامى... أشجـار متناثرة، وسكان متـوحشـون كالحـيوانات لا تغطي أجـسادهم سوى جلـودهم... أما ديانتهم، فهي عمومـاً كما وصفها قيصر، لقـد كان كهنتهم من الدروديين، أما أساليبهم في القـتال فيقول عنها قيـصر: لقد عرفوا استعمـال الحديد... كما كانوا أقل توحشـاً بدرجتين أو ثلاث درجات عن الأمريكيين، حتى أخـضعهم

---

(١) يحتل الموقع مكاناً على بعد ٢٥ ميلاً إلى الشمال من دبلن، ويحـوي مستوطناً ومقبرة تضم عدداً من حجرات الدفن وتؤرخ بمنتصف الألف الثالثة ق.م. (المترجم).

الرومان وعلموهم التحضر».

استخدم أوبري كتابات الكلاسيكيين لتفسير المخلفات الأثرية، وإليه يرجع الفضل في أنه أول من نسب أكوام الحجارة الدائرية إلى الكهنة الدروديين. ولقد قادت الحركة الأدبية المسماة بالثورة الرومانسية وما عرف عنها من اهتمام بتصوير الطبيعة إلى جذب الاهتمام بالبريطانيين القدامى وكهنتهم الدروديين.

ولعل خير مثال للآثاريين البريطانيين الرومانسيين وليام استكلي William Stuckley (١٦٨٧- ١٧٦٥م)، الذي يذكره الناس بحبه للكهنة الدروديين، إلى جانب كونه آثارياً ممتازاً ودقيقاً في عمله الميداني. وتعد كتبه **عجائب الرحلات Itinerarium Curiosum** (١٧٢٥م) وأبري **Abury** (١٧٤٣م) **واستون هنج Stonehenge** (١٧٤٠م) من المؤلفات المفيدة في وقتها. لقد كانت غايته واضحة حين قال: «إن قصده هو أن يعد سجلاً لكل الأماكن والمخلفات القديمة بعد معاينتها بدلاً من الاعتماد على أعمال الآخرين وعلى المصادر الثانوية».

لقد شهد القرن الثامن عشر بداية العمل الميداني في حقل الآثار، كما شهد بداية النظرية الفلسفية للماضي البشري. كان توماس بونال Thomas Pownall (١٧٢٢- ١٨٠٥م) الذي عمل حاكماً لولاية ماسشوست خلال الفترة من ١٧٥٧ إلى ١٧٦٠م أحد من أسهموا في هذا المجال، فقد كتب في عام ١٧٣٣م يقول: «كان وجه الأرض مغطى بالغابات والأشجار في كل بقعة عدا تلك التي غمرتها المياه، والبشر الذين كانوا هناك من سكان الغابات عاشوا على جمع الثمار وصيد الأسماك والحيوانات البرية، ثم أعقبهم مستعمرو الأرض الذين استقرت جماعاتهم وتناسلت وتكاثرت، وكما هو الحال في عالم اليوم فأينما جاء مستعمرو الأرض فإنهم يفترسون الأقلية المتناثرة من رجال الغابات».

هذه إذن نظرة مختلفة للماضي تتطلع بدرجة ما إلى الأحوال الاقتصادية في حقب ماقبل التاريخ، كما أنهـا قريبة من تلك الآراء الـتي طرحها أصـحاب المدرسـة «البـدائيـة» الأسكتلندية في القـرن الثـامن عشـر، التي كـان من بين أعضائها توماس بلاكويل Tomas Blackwell وجيمس بيرنت James Burnett الذي لقـب في وقت لاحق بلورد مـــونبـــودو Lord Monboddo (١٧١٤-١٧٩٩م). لقـد استنـد هؤلاء في نظرياتهم على الاعـتقـاد القـديم بأن الكون مخلوق لغـاية معلومـة وبنظام لاينفرط، وهي فكرة السلسلة العـظمى للوجود التي يقع في إطارها كل شيء كـائن، من أحط المخلوقـات إلى الإنسان. لقـد نشر كتـاب مونبودو عن **أصل اللغات وتطورها On The Origin and Progress of Languages** في ست مجلدات في الفتـرة من ١٧٧٣م إلى ١٧٩٢م. كما أن كتابه **الغيبيات القديمة Ancient Metaphysics** ، وهو في ست مجلدات أيضاً قد نشر مابين الأعوام ١٧٧٩م و١٧٩٩م. كان مـونبودو يجادل بأن القرد: «أورانج تان هو واحـد من فصـائل الجنس البـشري، وأن الإنســان يولد وله ذنب وأن القابلات يقفن من وراء عدم انتشار هذه الحقيقة».

أما الدكتور صـمويل جونسون Samuel Johnson (١٧٠٩- ١٧٨٤م) فلم يتفق مع مـلاحظات مونبودو، وكـتب يقول: «إن هناك أُناسـاً يحملون أفكاراً غريبة... لكنهم يخفونها، ولو كـانت لهم أذناب فهم يخفونها كذلك، وربما كان لـورد مونبـودو يغار على ذنبـه كالسنجـاب». كذلك لم يقـبل جونـسون الملاحظات التي تستند على الآثار الشاخصـة فكتب يقول: «إن كل مانعرفه عن بريطانيا القديمة لايتعدى صفحات قليلة، وليس هناك من سبيل إلى معرفة أكثر مما أخبرنا عنه الكُتّاب الأقدمون». هذه النظرة السلبية للآثار هي التي سادت في

أواخر القرن الثامن عشر(١).

أما تطور علم الآثار في الدول الإسكندنافية في عصر النهضة فقد كان موازياً للنمط البريطاني، إلا أن الأولى تميزت ببعض الحفريات المبكرة. ففي عام ١٥٨٨ حفرت بعض المقابر في الشمال في روسكيلد بأمل إثبات وجود العمالقة والمحاربين الذين وردت سيرتهم في الروايات الشعبية. إلا أن الحفريات لم تسفر إلا عن القليل جداً من الأواني الفخارية وبعض الأدوات. وفي أواخر القرن السادس عشر أمر حاكم هولشتاين برسم الآثار الشهيرة بجلنج ووصفها، وهي الموجودة في منطقة جوتلاند إلى جانب نسخ بعض المخطوطات وفك رموزها. كما شجع كل من الملك غوستاف أدولف الثاني ملك السويد والملك كريستيان الرابع ملك الدنمارك على دراسة المخلفات الأثرية. وكان جون بوره John Bure أو يوهانس بوريوس Johnnes Bureus (١٥٦٨-١٦٥٢م) كما عرف اسمه باللاتينية لفترة من الوقت مدرساً للملك غوستاف. قام بوريوس بجولة في أنحاء السويد ودرس بعض المخلفات القديمة ونشر نتائجها في الآثار السويدية القوطية **Monumenta Sveo- Gothica Hactemus Exsculpta** إلى جانب دراسات أخرى لم تنشر، سماها الآثار الدراسة **Monumenta Runica** ثم أوجد الملك وظيفة باسم «المسؤول عن الآثار الملكية» وعين بوره فيها.

أما أولي فورم Ole Worm (اولس فورمس باللاتينية) (١٥٨٨- ١٦٥٤م) الذي كان ابناً لعمدة أرهس فقد انحدر من أسرة لاجئة فرت من الاضطهاد

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى كتابات باتستافيكو (١٦٦٨- ١٧٤٤) الذي كان يرى أن تطور التاريخ يسير في خط لولبي، وطالب بإعادة النظر في دراسة الماضي، وذكر أن هناك عوامل مؤثرة في تطور الحضارة، بل كان على يقين من أن هناك قوانين تقف وراء التطور الحضاري. وقد تأثر بتلك الآراء مفكرين من أمثال: كانت وهيغل واسبنسر. (المترجم).

الديني في هولندا، ومع تخصصه في الطب فقد كـان موسوعي المعرفة، حيث عمل أسـتاذاً للعلوم الإنسـانية ثم العلوم الإغريقـية ثم أسـتاذاً للطب بجامـعة كـوبنهاجن، وجـمع أنواعاً عـديدة من المعـثورات خـاصة المخلفـات النباتيـة والحيوانية والأدوات التي كـان يستعملها الإنسان، ورتبهـا بعناية، وصنفها إلى مجموعات حـسب نظام دقيق ابتدعه بنفسه. وقام بإعداد فـهرس مفصل نشره ابنه وليام في عام ١٦٥٥م بـعد وفاة والده بعنوان **متحف فورم Museum Wor-mianum**. أما متحفه الذي كان مقصد الزوار في كوبنهاجن فقد ضم مجموعة من التحف الغريبـة، بعضها تحف أثرية وبعـضها حيوانات مـحنطة. كان فورم مولعاً بالمخلفات الأثرية الدنماركية، وبالأخص الأطلال والخرائب التي نشر عنها كتابيه **الآثار الدنماركية Monumenta Danica, Fasti Danica والأعياد الدنمـاركية Fasti Danica** في عـام ١٦٤٣م. وفي عام ١٦٢٦م تمكن فـورم من الحصـول على مـرسـوم ملكي يرسل إلى كل رجـال الدين ليـقـومـوا بالإبلاغ عن كل الخرائب والمدافن وكل المخـلفات التاريخـية في دوائرهم ومناطقـهم. وفي عام ١٦٣٩ حين عثر على قرن ذهبي في غـالهس جنوب جوتلاند؛ طلب من فورم لمعرفـته الواسعة بـالأطلال والمخلفات الأثرية أن يقوم بدراسـته ووصفه، فـقام بذلك ونشره في كـتابه **عن القرن الذهبي De aureo Cornu** عام ١٦٤١م. هذا القرن الذهبي وآخر مثله عـثر عليه بعد مئة عام سرقا من المجـموعة الملكية في عام ١٨٠٢م وحطمـا، وعليه فإن الوصف الـذي تركه فورم للقـرن والمخلفات الأخرى وتصاميمهما ظلت محل عناية بالغة على مدى ثلاثمئة عام.

في عام ١٦٨٤م عين تومـاس بارثولين Thomas Bartholin أستـاذ التاريخ مسـؤولاً عن الآثار الملكيـة الدنماركيـة، وفي عام ١٦٨٩م نشـر هو ومسـاعده الإيسلندي أرني ماغنسون Arni Magnusson كتاباً من ثلاثة أجزاء بعنوان حول

أسباب تدهور الدنماركيين القدماء من البداية وحتى النهاية Antiquatatum Dan-icarum de Causis Contemptae a Danis adhuc gentibus mortis وظفا فيه المصادر المكتوبة إلى جانب المخلفات الأثرية بغرض توضيح نظرة الدنماركيين الوثنيين إلى الموت.

أما في السويد فقد شهد عام ١٦٦٢م إنشاء كرسي للدراسات الآثارية بجامعة اوبسالا وكان أول من شغله هو أولف فيريليس Olaf Verelius. وفي عام ١٦٦٦م عين في وظيفة المسئول الملكي عن الآثار، ثم أنشأت كلية لدراسة الآثار ألحقت بجامعة اوبسالا. هذه الكلية كانت نتاج أفكار يوهان هادروف Jo-han Hardorph الذي عمل أميناً للمتحف. وقد أعد يوهان مسودة مرسوم ملكي لحماية المخلفات القديمة بمملكة السويد وفنلندا، أعقبه بعد سنوات مرسوم ملكي آخر ينص على حماية الآثار المنقولة كذلك، وبهذه المراسيم والأوامر الملكية إضافة إلى كلية الدراسات الآثارية؛ استطاعت السويد أن تتصدر الدول الأوربية في دراسة الآثار. وفي عام ١٦٩٢م انتقلت تلك الكلية إلى أستكهولم وسميت بكلية وثائق الآثار.

في الدنمارك قام إريك بونتوبيدان Erich Pontoppidan قسيس البلاط الملكي آنذاك، ومعه ولي العهد - الذي أصبح في وقت لاحق فريدريك الخامس - بحفر قبر ميغاليثي[١] في يغربريس في عام ١٧٤٤م. وربما كانت هذه أول حفرية آثارية تتم بطريقة صحيحة. وقد نشر التقرير في أول نشرة لمداولات الجمعية الملكية في عام ١٧٤٤م. وأكد بونتوبيدان أن هذه الآثار هي مقبرة

(١) ميغاليثي Megalithic تعني مباني (مقابر أو غيرها) شيدت من حجارة ضخمة، وهي ظاهرة آثارية تنتشر في غرب أوربا وتعود إلى العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي. (المترجم).

لأناس عاديين، وليسوا عمالقة كما كان يسود الاعتقاد من قبل، وعلى حد قوله: «بناها أجدادنا الورعون رغم وثنيتهم قبل ما يزيد على ١٨٠٠ سنة خلت». وفي عام ١٧٦٣ لخص بحوثه في مجال الآثار الدنماركية في مؤلفه الكبير **الأطلس الدنماركي Dendanske Atlas**. إن الإنجازات الآثارية في الدنمارك والسويد في القرنين السابع عشر والثامن عشر لتعد عظيمة بحق.

وفي فرنسا اكتشفت مقبرة ميغاليثية في كوشرل قرب درو في منطقة أور وقد تم حفرها في عام ١٦٨٥. وتعد المقبرة مثالاً جيداً لما نسميه اليوم بالممر المسقوف Allée couverte، ويعطينا هذا السجل واحداً من أقدم أوصاف حفريات المدافن ذوات الغرف في أوربا الغربية، وقد نشرت في كتاب برنار دي مونتفوكو Bernard de Montfaucon **الأزلية مشروحة ومصورة في أشكال L'Antiquité expliquée et representée en Figures** الذي ظهر في عام ١٧١٩م، وكذلك كتاب لوبراسور LeBrasseur **التاريخ المدني والديني لولاية أفرو Histoire Civile et Ecclesiastique du comté d'Evreux** الذي نشر في عام ١٧٢٢م.

لقد جذب الجزء الجنوبي من بريتاني(١) بما يحويه من كم هائل متنوع من الآثار الميغاليثية القسط الأكبر من اهتمام الآثاريين الأوائل، وفي الحقبة الممتدة بين عام ١٧٢٧ و١٧٣٧م وصف دو روبيان de Robien المباني الميغاليثية لمنطقة كارنا ولكماريكة، واستأجر أحد الرسامين ليقوم برسمها. أما الدوق دي كايلس Comte de Caylus (١٦٩٢-١٧٦٥م) فقد ضمن في المجلد الأخير من

---

(١) بريتاني: مقاطعة فرنسية تقع في الجزء الشمالي من فرنسا على بحر الشمال في مواجهة الجزر البريطانية. (المترجم).

كتاب مجموعة آثار المصريين والإترسك والإغريق والغال **Recueil d'antiquités égyptiennes, etrusques, grecques et gauloises** الذي نشر في عام ١٧٦٧م، رسومات لعدد من منشئات ماقبل التاريخ. وفي عام ١٧٩٥م تم انتخاب ليجرا دوسي Legrand d'Aussy (١٧٣٨- ١٨٠٠م) عضواً في الأكاديمية وقدم بحثاً بعنوان المدافن القديمة **Les anciennes Sepulture nationale** أشار فيه إلى أنه يتفق مع ماجاء في كتاب لاتور دو فيرن كور LaTour d'Auvergne- Coret المسمى الأصول الغالية الخاصة بأقدم شعوب أوربا **Origines gauloises des plus anciens peuples d'l'Europe** الذي نشر في عام ١٧٩٦م، وقد أصاب فيه حين نسب مخلفات البريتانيين الميغاليثية إلى الغال الذين سبقوا الغزو الروماني.

قدم الإنسان والأدوات الحجرية:

كما رأينا فقد توافرت لرجال الآثار في القرن السابع عشر أربعة مصادر هي: أ/ القصص الشعبية. ب/ الخرافة والأساطير. ج/ المخلفات الأثرية. د/ كتابات الكتاب الكلاسيكيين والعهد القديم. ومن بين هذه كان العهد القديم هو الوحيد الذي أعطى دليلاً على تسلسل تاريخي للإنسان، حيث ضمن في سفر التكوين قائمة بأعمار شخصيات العهد القديم الذين بدأوا وكأنهم قد عمروا لفترات طويلة. حاول الأقدمون ترجمة هذه التواريخ إلى تسلسل زمني أكثر تحديداً، فقام جيروم Jerome الذي ترجم ايوسيبوس Eusebius إلى اللاتينية، بحساب ٢٢٤٢ سنة من آدم إلى طوفان نوح و٩٤٢ عاماً من الطوفان إلى إبراهيم (عليهم السلام). إلا أنه راجع هذه الأرقام في وقت لاحق وعدلها إلى ١٦٥٦ سنة و٢٩٢ سنة بالتالي. هذه الإضافات التي قام بها جيروم أعطت التسلسل التاريخي مقياساً زمنياً حسابياً أرسى عليه المؤرخون الغربيون نظام

التأريخ، كما أعطت الفكرة القائلة بأن عمر الكون لا يتعدى ستة آلاف سنة.

لقد عد لوثر[١] عام ٤٠٠٠ ق.م. بداية للخلق، إلا أن هذا الرقم التقريبي لم يعـجب البعض، فـجاءت اقـتراحـات بأرقام أخرى مـثل ٤٠٣٢ و٤٠٠٤ و٣٩٤٩ و٣٩٤٦. وزعم العـالم الفلكي كـبلر أنه اكـتشف خطـأً في التقـويم المسـيحي يتطلـب إضافـة أربع سنوات فـأدى ذلك إلى ظهور التـأريخ ٤٠٠٤ ق.م. على هامش طبعة **العهد القديم** التي ظهرت في عام ١٦١١م.

ذلك هو التاريخ الذي دافع عنه رئيس الأساقفـة الإنجليز اسشر Ussher في القرن السـابع عشر وضمنه مـؤلفه الذي صدر بالإنجليـزية في عام ١٦٥٨ تحت عنوان **حـوليات العـالم مـستـقاة من بدء الزمـن ومتـصلة ببـداية عهـد الإمبـراطور فسباسيان وتحطم وهجـرة المعبد والرابطة اليهودية Annals of the World Deduced from the Origins of Time and continued to the beginning of the Emper Vespasian's Reign, and the total Destruction and Abolition of the Temple and Common wealth of the Jews**. قال اسـشر: «إنني أمـيل إلى الرأي القائل بأنه منذ تلك الليلة السابقة لليوم الأول للعالم وحتى منتصف تلك الليلة التي بدأ بها العهد المسيحي فقد انقضت ٤٠٠٣ سنة وسبعون يوماً و٦ ساعات» ثم قطع بأن الإنسان كان قـد خلق في اليوم السادس، وهو يوم الجمـعة الثامن والعشرين من أكتوبر.

في عام ١٦٤٢م قام الدكتـور جون لايتفوت John Lightfoot رئيس كلية القديسة كاثرين ومـدير جامعة كيمبـردج بإنجلترا بنشر بحث بعنوان **ملاحظات بسيطة وجـديدة عن سفر التكوين أغلبهـا مؤكدة والباقي مـحتمل وهي في مجـملها**

(١) يقصد به مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) الذي قاد حركة الإصلاح الديني في أوربا. (المترجم).

A Few and New Observations on غير ضارة رغم غرابتها وكونها تقال لأول مرة **the Book of Genesis, the most of them certain, the rest probable, all . harmless, strange and rarely heard of before**

كتب يقول: «إن أجسادنا، السماء والأرض، المركز والمحيط، قد خلقت معاً في لحظة واحدة والسحب المحملة بالمياه، وليست تلك التي نراها تتكون بالتبخر، ولكنها تلك التي نسميها بنوافذ السماء وشلالاتها. خلق الإنسان بواسطة الثالوث المقدس في حوالي الساعة الثالثة بعد الشروق أو التاسعة صباحاً من يوم ٢٣ أكتوبر عام ٤٠٠٤ ق.م».

لقد كانت هذه الأفكار والمعتقدات سائدة في أوساط عامة الناس مما قاد شكسبير في روايته **كيفما تريدها** (١٦٠٠م) لأن يقول على لسان روزالند في المشهد الأول من الفصل الرابع: «العالم المسكين عمره ستة آلاف سنة، ولم يحدث في كل هذه السنوات أن مات إنسان من تلقاء نفسه بسبب قضية حب». هذا هو العالم نفسه الذي مكن توماس براون Tomas Brown في كتابه **الطب الديني Religo Medici** المنشور في عام ١٦٤٣م من أن يقول: «إننا نستطيع أن نستوعب الزمن إلا أنه يكبرنا بخمسة أيام وإن كان يشارك الكون البرج نفسه»(١). إن الاعتقاد بقصر الوقت وإمكانية الإحاطة به قد عاش في مخيلة الإنسان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ذكر صمويل روجرز في قصيدة: «**إيطاليا وداعاً**»... معبدٌ يعادل عمره نصف عمر الزمن». وقد استعار صديقه بيرجن العبارة ذاتها في قصيدته: «**البتراء**» التي نالت جائزة نيودقيت في أكسفورد عام ١٨٤٥م، حيث وصف فيها العاصمة النبطية الجميلة المدهشة،

(١) أي التاريخ نفسه. (المترجم).

فقال: «مدينة كالوردة الحمراء.. عمرها نصف عمر الزمن».

إلا أن النظرية القائلة بأن عمـر الخليقة هو ستة آلاف سنة أخـذت تضمحل بنمو علم الجيولوجيا ودراسة ترسـبات الأنهار التي استندت على تعاليم المدرسة الاتساقية[1] في الربع الثاني من القرن التاسع عشـر. وكذلك باكتشاف أدوات كان يستعملها الإنسان وجدت في طبقة واحدة مع عظام حيوانات منقرضة، مما يؤكد حسب مـا يشير علم الجيـولوجيا الوليد أن عـمرها يزيد كثيـراً على ستة آلاف سنة، إلا أنه بقي عـلينا التيـقن من أن هذه الأدوات من صنع الإنسـان وتطويره.

لقد انقضت فـترة طويلة قبل أن يتم الاعتراف بحقـيقة هذه الأدوات، وساد اعتـقاد بأنهـا قد نتجت من الصـواعق وسماهـا آخرون «سهـام الجن»، وجاء يوليسـيس الدروفاندي Ulysses Aldrovandi في منتصف الـقرن السابع عـشر ليصف هذه الأدوات الحجرية بأنها جاءت: «نتيجة لخليط من زفير الرعد والبرق مع مادة مـعدنية في سـحب داكنة وهي متخـثرة بالرطوبة التي تطوقهـا، فأدى ذلك إلى التصاقـها في شكل كتلة (كالدقيق بالماء) وفيـما بعد تصلبت بواسطة الحرارة كالطوب»، وفي الفترة نفسـها تقريباً زعم توليوس Tollius: «أن شظايا الصوان قد نتجت في الـسماء من زفير مضيء تكوّر على هيئـة سحابة بواسطة بخار الماء المحيط بها».

إن الوصول إلى أمـريكا قد كشف الـنقاب عن أناس معـاصرين يستـعملون الأدوات الحجرية. ومـا لم يفترض الإنسان أن هؤلاء أناس متخلفـون حضارياً انحدروا من أقوام عرفوا صناعة الحديد فـإن ثمة سؤالاً يطرح نفسه: ما دام أنه

(١) المقصود هنا Uniformitarianism التي تعرف بالنظامية أو الاتساقية أيضاً. (المترجم).

قد وجدت جماعات بشرية هنا في أمريكا تستعمل الأدوات الحجرية، أليس من الممكن أن تكون هنالك جماعات أخرى مشابهة لم تعرف استعمال الحديد قد عاشت في الماضي القديم في أوربا القديمة؟ لقد كان لاكتشاف كولمبس لأمريكا في عام ١٤٩٢م تأثير فوري في هذا المجال. فقد ناقش كل من بيتر مارتير Peter Martyr (Pietro Martive d'Anghiera)، في مؤلفاته التي صدرت بين عام ١٥٠٤ و١٥٣٠م وفيرانتي إمبراتو Ferrante Imperato في كتابه عن **التاريخ الطبيعي Dell'Historia Naturale** الذي صدر في عام ١٥٩٩م قضية طبيعة الأمريكان الذين مازالوا يستعملون الأدوات الحجرية.

كان ميشيل ميركاتي Michele Mercati (١٥٤١- ١٥٩٣م) أحد الأوائل الذين قبلوا حقيقة الأدوات الحجرية التي ترجع إلى حقبة ماقبل التاريخ. وكان قد عين مشرفاً على الحدائق النباتية في الفاتيكان من قبل البابا بيوس الخامس، وظل محتفظاً بوظيفته تلك خلال عهدي غريغوري الثالث عشر وسيكتس الخامس. لقد كان عارفاً بالطب شمولي الاهتمامات، واسع الخبرة والمعرفة. إلى جانب ذلك فقد كان عارفاً بعلم المعادن وهو أحد مؤسسي علم الباليونتولوجيا[1]. جمع ميركاتي متحجرات ومعادن ومخلفات حضارية وكتب عنها في كتابه **المعدنيات Metallotheca** الذي بقي مخطوطاً في مكتبة الفاتيكان حتى عام ١٧١٧م حين تم نشره. في هذا الكتاب جاء ببعض الرسومات لأدوات حجرية قال عنها: «إنها أسلحة حرب استعملت في وقت سابق للمعرفة بالمعادن. وقد استعان بالكتاب الكلاسيكيين و**بالعهد القديم** ليبرهن على الطبيعة

(١) هو العلم الذي يبحث في نشأة الحياة وتطورها في العصور القديمة، وذلك عن طريق دراسة المخلفات النباتية والحيوانية المتحجرة (علم المستحثات). (المترجم).

الوظيفـية لهـذه الأدوات واستعـمال الإنسـان لها. كمـا أنه بقي مبـهوراً بتلك الأدوات الخاصـة بالهنود الأمريكيين التي جـمعت من الفـاتيكان هدايا قدمـها الرحالة الإسبان والبرتقاليون والإيطاليون.

في عام ١٦٥٥م نـشر إسحق دولابـيرير Issac de la Peyrére من مواطني بوردو في كل من امستـردام ولندن كتابه **النظام الديني القائم على افـتراض وجود الإنسـان قـبل آدم A Theological System upon that Pre- Supposition that Men were before Adam**، وفيه يقول: «إن ما عرف بحجارة الصواعق[1] لم تكن سوى أدوات استعـملها أناس بدائيون سبقوا الجنس البشـري وعاشوا قبل آدم». وانتقـدت هذه النظرية بقسوة، وبخـاصة زعمـه القائل بأن أناساً مـا قد عاشوا قـبل آدم. وكان أن تمّ اعتقـاله وجمعت كتـبه بواسطة محكمة تـفتيش كاثوليكية وأجبر على التخلي عن أفكاره وأحرقت كتبه علناً في باريس. ولكن هل كانت هذه هي المرة الوحيدة في تاريخ علم الآثار التي عوملت فـيها قضية أصل الإنسان وأدواته الحجرية بهذه الطريقة؟

في السنة التي تلت نشر كـتاب دولا بيرير آنف الذكر، وصف ولـيام دقديل William Dugdale (١٦٠٥-١٦٨٦م) في كتابه **آثار وريكشير The Artiquities of Warwickshire** الذي ظهر في عـام ١٦٥٨م فأساً حجرية، وجـاء برسم لها وأشار إلي وجود أخريات مثلها بقـوله: «مما يدعو للدهشة أنها قد شكلت على هذه الهيئة بواسطة الصقل أو وسيلة أخرى مـشابهة... لقد صنعها البريطانيون القدمـاء... وقد اسـتعملت سـلاحاً، إذ لم يكونوا على دراية بصـنع الحديد

---

(١) نتج ذلك عن الاعتقاد بأن بوارق الصواعق الرعدية هي قضبان مادية ضوئية تنتج عنها قطع حجرية. (المترجم).

والنحاس». لم يكن عند الدكتور روبرت بلوت شك في حقيقة الأدوات الحجرية. وكذلك كان سير روبرت سيبالد Robert Sibbald وإدوارد لخويد Ed- ward Lhwgd . لقد ركز لخويد على الدلائل الأمريكية وذكر في خطاب بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٦٩٩ : «إنني لا أشك، ولكنك كثيراً ما رأيت رؤوس السهام هذه التي ينسبونها إلى الجن، إنها ذاتها قطع الصوان التي يضعها أهل نيو انجلند[1] على سهامهم حتى يومنا هذا، وهناك الكثير من هذه الفؤوس الحجرية وجدت في هذه المملكة لا تختلف كثيراً عن تلك التي يستعملها الأمريكيون. . . إنها لم تصنع سدى وإنما استعملت هنا يوماً للصيد كما هو الحال اليوم في أمريكا. إن الباحثين وكذلك السوقة على امتداد هذا البلد يكتفون بالتفسير القائل بأنها سقطت من الفضاء بعد أن أطلقها الجن، ويربطون أحداثاً كثيرة بها، إلا أنني سأحتفظ بوجهة نظري حتى أرى واحدة منها تسقط علينا من السماء».

وفي نهاية القرن السابع عشر عثر شخص يدعي كونيرز Conyers على فأس حجرية مصنوعة من حجر الصوان على مقربة من جرين لين في لندن. لقد كانت مصاحبة لهيكل عظمي لفيل، ويغلب أن يكون من فصيلة الماموث. وفي خطاب بتاريخ ١٧١٥م وصف جون بغفورد John Bagford هذه المخلفات، وقبل بتزامنها مع المخلفات العظمية إلا أنه أرجع عظام الفيل إلى عهد الرومان. أظهرت الحفريات التي أجريت في عام ١٦٨٥م من مقبرة كوشريل الميغاليثية ـ التي سبقت الإشارة إليها ـ فؤوساً حجرية مصقولة صنعت إحداها من العقيق. وكتب قسيس البلدة في عام ١٧٢٢م مشيراً إلى أن هذه الفؤوس

---

(١) تقع نيو انجلند على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية. (المترجم).

شـبيـهـة بتلك التي يسـتعـملهـا الهنود الأمريكيـون، وذهب إلى القـول بأن الأسكاتيين ربما كانوا حلقة الوصل بين أولئك الأمـريكيين وبين الجماعات التي أقامت هذه المقـابر في كوشريل. وفـي وصـفه لمقابـر كوشـريل خلص دوم بـرنار دومونفـوكو Dom Bernard de Mantfaucon في عام ١٧١٩ بـصدق ووعي إلى أن دلائل الأدوات الحجرية تشـير إلى أن المقبرة تخص شعبـاً همجياً لم يعرف صناعة الحديد أو أية معـادن أخرى. وهنا نجد واحدة من أقدم الأمثلة الدالة على أن هذه الآثار والفـؤوس الحجـرية ورؤوس السهـام لفتـرة ما قـبل التاريخ.

وفي القرن الثامن عشـر وبخاصة بعد ظهور مؤلف ميـركاتي (السابق ذكره) في عام ١٧١٧م، ذهب الكثـيرون في فرنسـا من أمثال دو جسـيو de Jussieu ولافيـتو Lafitau وماهوديل Mahudel وغوجـية Gorguet إلى تأكيـد صحة الأدوات الحجـرية ووجـود عصـر حجري. فـجـاء مؤلـف بير لافيتـو بعنوانه المـثير المعبر **عادات البدائيين الأمريكان مـقارنة مع عادات الأزمنة المبكرة Moeurs des Sauvages Amériquains Comparée aux Moeurs dePremiers Temps** الذي نشـر في عـام ١٧٢٤م ليركـز علـى المقارنـــة لدراســة ماضي الرجـل الغربي: «إنني لم أكتف بمعرفة طبـيعة المجتمعات البدائيـة وبدراسة عاداتهم وممارساتهم فقط. . . إنما بـحثت في هذه الممارسـات والعادات لأجـد الدلالة على الماضي السحيق». في عام ١٧٣٨م قام أنـطوان إيف غوجيه (١٧١٦- ١٧٥٨م) بإعداد كـتاب ترجم إلى الإنجليـزية بعـد ثلاث سنوات بعنوان **أصل القـوانين والآداب والعلوم وتطورها وسط الشـعوب الأقـدم عهـداً The Origin of Laws Arts and Sciences and their Progress Amang the Most Ancient Nations** أعلـن غوجيه أنه بإمكاننا تخمين ماكان عليه الحال في ماضي الإنسان القديم في أوربا

بما هو عليه الحال في الدنيا الجديدة حين تم اكتشافها لأول مرة، ومضى يقول: «إن استعمال البرونز قد سبق استعمال الحديد. . . وقبل ذلك كان استعمال الحجارة والصوان والعظام والقرون وعظام الأسماك والأصداف والقصب والشوك، التي استعملت في كل ما تستخدم فيه المعادن في عالم اليوم المتحضر، إن أولئك البشر البدائيين يقدمون لنا صورةصادقة للمجتمعات القديمة».

ومما هو واضح؛ أن فرنسا في القرن الثامن عشر كان بها من هم على استعداد لقبول وجود عصر حجري بل وجود نظام عصور ثلاثة: حجري وبرونزي وحديدي. وفي إنجلترا كانت هنالك قلة تتبع خطى دوقديل وسيبالد وبلوت. في عام ١٧٦٥م أعد لايتلتون Lyttelton أسقف كارلابل بحثاً تم نشره في المجلد الثاني من مجلة أركيولوجيا في عام ١٧٧٣م يقول فيه: «إنني اتفق تماماً مع دوقديل بأنها كانت أدوات حرب استعملها البريطانيون قبل أن يتقنوا فن صناعة الأسلحة من النحاس والحديد، كما أني أذهب إلى أبعد من ذلك لأقول إنهم حين صنعوا هذه الأدوات لم تكن لديهم أية معرفة بالمعادن. . . ومن وجهة نظري فإن هذه الفؤوس الحجرية هي إلى حد كبير أقدم مخلفات تركها أجدادنا البريطانيون، وهي في الغالب معاصرة للمجموعات الأولى التي سكنت هذه البلاد».

في هذه الأثناء تأكدت حقيقة العلاقة بين المخلفات البشرية والأدوات الحجرية والحيوانات المنقرضة، حين نشر يوهان فريدريش أسبر Johann Friedrich Esper أعماله في كهف غايلنرويت بالقرب من بامبورج بألمانيا في عام ١٧٧٤ في مؤلفه **تقرير مفصل لاكتشافات حديثة لمخلفات حيوانية من ذوات الأربع والكهوف التي تحتويها في مرتفعات جبال بايرويت Detailed Report on Recently Discovered Zooliths of Unknown Quadrupeds and the Caves**

containg them in the upper Mountainous Countries of the Margravate of Bayreuth . سأل الكاتـب نفسه: «هل تتـبع هـذه للدروديين أم إلى مـاقبل الطوفـان أم لأناس من وقت قـريب»؟ وأجاب على تسـاؤله بحـزن: «إنني لا أجرؤ ـ دون أدلة كافية ـ على افتراض أن هذه المخلفات البشرية في عمر العظام الحيوانية المتحجرة، ربما وصلت إلى هنا بطريق الصدفة».

قدم رجل من الريف الإنجليزي من شرق إنجليا في بريطانيا يدعى جون فرير John Frere (١٧٤٠ - ١٨٠٧م) استنتـاجاً صـحيحـاً من خلال مـلاحظته من محجـر في هوكسن بالقرب من ديس في سفـولك. كتب في عام ١٧٩٧م إلى سكرتير جمعية الآثار البريطانية في لندن مرفقاً بعض الأدوات الحجرية: «إن لم تكن هذه الأدوات مثـيرة للدهشة والفـضول في حد ذاتها فـإنه ـ كما أعتـقد ـ يجب عـدها كذلك بحـسب الوضع الذي وجـدت فيـه». لقد كـانت فوؤسـاً حجرية ترجع إلى العصر الحجري القديم الأسفل، وقد وجدت على عمق اثني عشر قدماً (ثلاثة أمتـار ونصف المتر) تحت سطح الأرض في عمق طبقة لاتظهر عليهـا آثار عبث أو تخريب، وكـان إلى جانب تلك الأدوات عظام لحـيوانات منقـرضة. لقـد أصاب فـرير حين وصـفهـا بأنهـا: «أسلحة حـرب، صنعت واستعملت بواسطة أقـوام لم يعرفوا استعمال المعـادن». حتى الآن لايبدو فرير متـقدماً على تلك القـائمة الطويلة من الآثاريين بدءاً بميـركاتي وانتـهاء بالقس لايتلتون، الذين أقـروا بوجود أدوات حجـرية وعصر حـجري. إلا أن أفكاره سبقـتهم حين ذكر أن تراكم اثني عشـر قدماً من الركام فوق الفـؤوس الحجرية يأخذ وقتـاً ليس بالقصير إن كـان لنا أن نؤمن بعلم الجيولوجيـا الحديث، كتب يقول: «الحالة التي وجدت عليها هذه الأسلحة قد تقودنا إلى إرجاعها إلى فترة زمنية جد سحيقة؛ أبعد من عالمنا المعـاصر. إلا أنه ومهما كان تخميننا فإنه من

الصعب أن نتصور عمر الطبقات التي تراكمت عليها وتلك التي تراكمت من بعدها التي ربما كانت تمثل يوماً ما القاع أو على الأقل، ساحلاً للبحر».

وهنا يكمن لبُّ القضية، ففي ذلك المقطع: «أبعد من عالمنا المعاصر» الذي قصد به بالطبع ذلك العالم الذي قدر عمره بستة آلاف سنة الذي بدأ في عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، ولخصه سير توماس براون. لقد وصفت البتراء على أن عمرها هو نصف عمر الزمن. أما فؤوس هوكسن فإن عمرها يزيد مئات المرات على عمر «الزمن»، زمن يوسبيوس وأسشر ولايتفوت. إن الخطاب البديع الذي خطه فرير كان نذيراً بقبول فكرة قدم الإنسان، وتلك هي إحدى أهم أطروحات علم الآثار، إلا أن أحداً لم يعره اهتماماً. لقد نشر خطابه في أركيولوجيا في عام ١٨٠٠م، ونسيته الغالبية العظمى من الناس لستين عاماً بعد ذلك.

أمريكا:

منذ أن اكتشف كولمبس العالم الجديد في عام ١٤٩٢ أخذ العالم القديم يبحث في أصل الهنود الأمريكيين والمخلفات الأثرية التي وجدت هناك. في البدء كانت التخمينات نظرية، حيث إن المصادر الآثارية لم تستغل إلا في منتصف القرن التاسع عشر، وسرح الخيال بعيداً حيث نُسب الأمريكيون للمصريين القدماء ثم إلى الفينيقيين وإلى القبائل المفقودة من بني إسرائيل وأحياناً إلى قارة أطلانطا الغارقة.

لقد جذبت تلك التلال الأثرية في وسط أمريكا الشمالية وجنوب غربها الانتباه إليها. أما: «من هم بناة هذه التلال»؟ فذلك هو السؤال الذي طرح مراراً من قبل المهتمين بالآثار الأمريكية. بعث الجنرال صمويل بارسونز Samuel Parsons بتقرير

إلى عزرا ستـايلز رئيس جامعة ييل عن تلك التلال الموجـودة في ماريتا بولاية أوهايو. وفي حديث عـام ذكر ستـايلز في عام١٧٨٣ أن هذه التـلال قد بناها الكنعانيـون بعد أن طردهم يوشع. وكتب سـتايلز إلى بنجـامين فرانكلين الذي قال بأنه لا يملك تفسيراً لهذه الظاهرة إلا أنه كـان يظن أنها ربما بنيت بواسطة جنود هيرنادو دو سوتو الذين قامـوا برحلة من تامبا في فلوريدا إلى نيواورلينز خلال الأعوام ١٥٣٩ - ١٥٤٢م.

قامت شـركة أوهايو التي أسـسهـا اللواء روفس بتنام Rufus Putnam بشق بعض الطرق في أوهايو عـلى مقـربة من مـاريتا في الأعـوام ١٧٨٧- ١٧٨٨ ومابعدها. وقد قام بتنام بإجراء مسح دقيق للتلال في المنطقة؛ الشيء الذي قاد براين فيغان[1] Brian Fagan ليقول عنه لاحـقاً في كتابه الكنز المفقود **Elusive Treasure**، الذي نشـر عام ١٩٧٦م ص ٩١: «إن المسح الـدقيق الذي قـام به ومـقـاييسـه المحـددة يمثل عـلامـة مميـزة في طريق البـحث الجـاد في الماضي الأمريكي»، كـما أن هنري شـترون Henry Shetrom وصف في عام ١٩٣٠م خريطة بتنام بـأنها: «أصل علم الآثار في أمريكا». لقـد تجنبت الشركـة منطقة التلال وعدتها مخلفات تاريخية وحفظتهـا فـي ميادين عامـة.

وجد وكيل بتنام في ماريتا، وهو القس مناسيح كتلر Manasseh Cutler في ماسشوست مجموعة من العمـال يقطعون الأشجار على التلال، فأخذ يحصي الدوائر المكونة لجـذع كل شجرة حـيث وجد في إحـداها ٤٦٣ دائرة، وعندها افترض كتلر أن كل دائرة من هذه تمثل عـاماً كاملاً ومن ثم فإن التل الذي نمت

(١) براين فيغـان، أحد علماء الآثار المعاصـرين ويعمل حالياً بجامـعة كلفورنيا، سـانتا باربارا. له عدة مؤلفات في مجال الآثار الإفريقية وعلم الآثار بوجه عام. (المترجم).

عليـه هذه الشجرة لابد أن يـكون أقدم منها ولابـد أن يكون قد بني قـبل عام ١٣٠٠م[1].

في عام ١٧٨٧م تحدث ب.س. بارتون BS Barton عن هذه التلال وربطها بالدنماركيين الذين هاجروا بعد ذلك إلى المكسـيك ثم عرجوا إلى تلتكس. غير أن وليام بارترام William Bartram عزا هذه التلال إلى مجـموعات من الهنود مجـهولة الهوية عـاشت في الماضي، وهي في رأيه ليست بأية حـال من عمل الهنود الحاليين. أما الجنـرال وليام هنرى هاريسون William Henry Harisson الذي أصبـح فيمـا بعد الرئيـس التاسع للولايات المتـحدة، فـقد مـال في عام ١٨٣٩م إلى الاعتقاد القائل بأنها من فعل أجناس مجهولة.

في عام ١٧٨٤م قام تومـاس جفرسون Thomas Jefferson الرئيس الثالث للولايات المتحدة باعـتزال السياسة لفـترة مؤقتة ولجـأ إلى منتجع خاص به في مونتسلو، وهناك كتب **مذكرات عن ولاية فـرجينيا Notes on the State of Virgina**[2]. ومن بين أشيـاء أخرى كثـيرة كان مشـغوفاً بأمـر بناة التلال. ولكي يرضي حبه للمعرفة؛ فقد نظم حفريات لاكتـشاف الطبيعة الحقيقية لتلك التلال مسـتغلاً وجود بعض منـها في أراضيه الخـاصة. وبالفعل شق خندقـاً في أحد التلال وتعـرّف إلى طبقات مـتتابعـة، كما عـثر على كمـية كبـيرة من العظام البشـرية، ولاحظ أن بعض العظام مغطاة بطبـقة من التراب تفـصل بينها وبين عظام أخرى مغطاة بطبقة أخرى أيضاً، وهكذا تكررت العملية على هذا المنوال

(١) لعل هذا هو أقـدم دليل معـروف على استـعمـال حلقات الأشـجار Dendrochronology وسيلة للتاريخ المطلق في علم الآثار. (المترجم).

(٢) نشر هذا الكتاب أول مرة في عام ١٧٨٧م. (المترجم).

حتى ارتفع الـتل إلى اثني عشر قـدماً، وقد لاحظ مـا سمـاه بـ «ست حالات غريبة» هي: (١) كمية العظام؛ (٢) طريقـة وضعها؛ (٣) وجودها في طبقات مختلفة؛ (٤) تباين الطبـقات؛ (٥) الفارق الزمني في الدفن؛ (٦) وجود عظام أطفال بينها. لقـد قال ليمان ـ هارتلبن Lehmann- Hartleben: «إن حفريات جفـرسون قد قدمت الـنموذج والمدخل الأساس لعلم الآثار الحـديث منذ قرن تقـريباً». وقـال عنها السـير مـورتمر ويلر Mortimer Wheeler[1]: «إنها أول حفريات علمـية في تاريخ علم الآثار. . . فريدة ليس في زمانهـا فحسب، بل ولفترة طويلة بعـد ذلك». إلا أن حفريات جفرسـون لم تحل مسألة تأريخ هذه التلال: «كونها مسـتودعات للموتى فذلك أمر معروف للجـميع إلا أن مناسبة بنائها هي الأمر المشكوك فـيه». كما أن جفرسون لم يعلق علـى المسألة العامة المتعلقة ببناة هذه التلال.

في عام ١٧٩٩م أثناء فترة رئاسته للجمعيـة الفلسفية الأمريكية في فلادلفيا، أرسل جفرسون منشوراً للأعضاء المراسلين فيـها أوضح فيه أن الجمعية: «تضع في اعتبارهـا دائماً المخلفات الأثرية والمتغيرات، وكـذلك الوضع الحالي للبلاد كأمور أسـاسية في البحث»، وقد حث المنشـور المراسلين على: «الحصول على خرائط دقيقة ورسومات وأوصاف لكل ماهو مثير للاهتمام . . . وبصفة خاصة الحصـون القديمة والتلال الأثرية، إلـى جانب الأعمـال الفنية الأخرى الخـاصة بالهنود . . . ويمكن حفر خنادق في مختلف الاتجاهات للتحقق من محتوياتها، في وقت يمكن فيه الاستفادة من عدد الحلقات المكونة لجذع أضخم شجرة على هذه التلال لإعطاء فكرة عن عمر ذلك التل».

(١) أحد مشاهير الآثاريين في النصف الأول من القرن العشرين (انظر الفصل الرابع). (المترجم).

لقد كان جفرســون وكتلر من رواد «الدندروكرونولوجيا» (Dendrochronology) وهي الوسيلة الخاصة بالتأريخ بواسطة حساب حلقات الأشجار.

لقد لقب جـفرسون بـ «أب علم الآثــار الأمريكي» إلا أنه كمــا أشار ويلي وسابلوف Willey and Sabloff في **تاريخ علم الآثار الأمريكي ١٩٧٤م** ص ٣٩ **A History of American Archaeology**: «افــتــقــر إلى من هم على شــاكلتــه ليخلفوه مــباشرة». إن ما نذكره دائمــاً عن أعمال جفرســون ليس كونه أجرى بعض التنقيــبات بطريقة جيــدة وراقب تعاقب الطبقات فــقط؛ وإنما لأنه أجرى تنقيبات لا بحثاً عن كنز، بل بحثاً عن حل لقضية علمية.

المتاحف والجمعيات العلمية:

نشأت المتــاحف المبكرة من المجموعــات الخاصة للملوك والدوقــات ورجال الكنيسة وبعض الأشخاص العاديين. وكانت مجــموعة التحف الخاصة بيوليسيس الدروفاندي Ulysses Aldrovandi (١٥٢٧- ١٦٠٣م) هي التي أرست دعائم متــحف بولونيا. كــما أن مجــموعــة توماس هوارد Thomas Howard وايرل أرونديــل (١٥٨٦- ١٦٤٦)، الــذي لقــبــه هــوراس ولبول Horace Walpole بـ «أب الفضيلة في إنجلترا»، وجدت طريقها في الختام إلى بعض المتاحف. أما جون تراد سكانت John Tradescant (مات في عام ١٦٣٨) وابنه جون (متوفى في عام ١٦٦٢م) فــقد كانا من أوائل الإنجليــز الذين اهتموا بجــمع التحف ومن المهتمين بالتاريخ الطبيعي. وكانت «حجرة العجائب» الخاصة بترادسكانت تحوي مجموعــة قيمة من «المتنوعات والغــرائب»، وقد عرفت على نطاق واسع باسم ســفــينة ترادسكانت في لامــبث، حــيث زارها عــدد كبــيــر من الناس. أمــا

تراد‌سكانت الابن فقـد نشر في عام ١٦٥٦ **المتحف التـرادسكانتي: أو مجمـوعة النوادر المحفوظة في جنوب لامبث بالقرب من لندن Museum Tradescantianum; or a callection of Rarities preserved at South Lanmbeth near London.**

ولقـد تحصل إليـاس أشمـول Elias Ashmole على هذه المجـموعة فـي عام ١٦٥٩م، وأضاف إليهـا مجموعتـه الخاصة، ثم أهدى المجموعـة بكاملها إلى جامعة أكسفورد في عـام ١٦٨٢م. وقد كانت تلك هي نواة المتحف الأشمولي Ashmolean Museum الذي تم افتتاحه في السنة ذاتها على يد جيمس الثاني، الذي كان وقتها حاكمـاً على يورك، وكان أول أمين له ـ كما سبقت الإشارة ـ هو روبرت بلوت مع أدورد لويد مساعداً له.

تعد مـجموعـة التحف الخاصـة بأولى فورم في الدنمارك واحدة من أشـهر المجموعات الخاصـة. وقد تعرفنا إليها من الرسومات التي حـواها متحف فورم في الكتلوج الذي ظهر بعد وفاته في عام ١٦٥٥م. وبعـد وفاته آلت المجموعة إلى فـردريك الثـالث ملك الدنمـارك، الذي خطط لمبنى مـواجـه لقلعـتـه في كرستـيانبرج ليحوي هذه المجمـوعة إلى جانب مكتبتـه الخاصة. إلا أن الطابق الثاني من المبنى المعد للمـتحف لم يكتمل إلا بعد وفاته. وبنهـاية القرن السابع عشر كان هذا المتحف (Kunstkammer) قد أقام حوالي خمسة وسبعين عرضاً لآثار ماقبل التـاريخ، ومن ثم افتتح للجمهور مـقابل دفع رسوم تذهب لأمين المتحف.

كان بطرس الأكـبر[1] أثناء أسـفاره في أوربا قـد أظهر اهتـماماً بالمـتاحف ومجمـوعات التحف الخاصـة إلى جانب الصناعة وبناء السفن. وكـان متحف

(١) هو قيصر روسيا الذي جعل منها دولة أوربية عظيمة خلال فترة حكمه (١٦٨٢-١٧٢٥). (المترجم).

ألبـرت سيـبا (١٦٦٥- ١٧٣٦م) (Albert- Seba) واحداً مـن أكـبـر المتاحف الخاصة في القرن السابع عشر في هولندا. بدأ سيبا حياته صيدلياً في أمستردام، ثم عمل مع شـركة الهند الشرقيـة الهولندية، وجمع ثروة ضـخمة أنفقـها في جـمع الأشيـاء النادرة في عالم الحـيـوان والنبات والمعـادن. وحين زار بطرس الأكبر أمستـردام عام ١٧١٦م قام بشراء متحف سيبا (ومـا كان من سيبا إلا أن أخذ ينشيء متـحفاً آخر). ونقل المتحف الأول إلى مـدينة بطرسبرج[1] ليصبح نواة لمتحف تم افتتـاحه في عام ١٧١٩م، وطور فيما بعد إلى الهـيرمتاج الذي أنشأته رسـميـاً الإمبراطـورة كاثرين[2] متـحفاً للبـلاط في عام ١٧٦٤م، وتم افتتـاحه للجمهور في عـام ١٨٥٢م. وكان بطرس الأكبر قـد كلف سفراءه في أمستردام وباريس وفينا بجمع التحف لمتـحف بطرسبرج، وقد كان مولعاً بجمع الكثير من الأشيـاء الغريبة النادرة غير الأثرية وعرضها، وقـد أصدر أمراً ملكياً في فبراير عام ١٧١٨م بتوجيه كل شخص يعثر على شيء غريب أو قطعة أثرية قديمة أن يقوم بتسليمها إلى الحكومة.

كان سـير هانس سلون (١٦٦٠-١٦٥٣) Hans Sloane الطبيـب الإنجليزي المشهور ورئيس الجمعية الطبية والجمعية الملكية يملك واحدة من أشد المجموعات ندرةً على مر الزمن. كانت مكـتبته التي أوصى بها لبلده قـد قدرت عند وفاته بثمانين ألف جنيه إسترليني، وفي عام ١٧٥٣م صدر أمر بشراء متحف سـلون ومكتبـته وكذلك مـخطوطات هارلي لتجـمع وتضـاف إلى مكتبـة كوتـون لتكوّنا معاً مكتبـة ومتحفاً عاماً، وأضيفت إليـها بعض الأشياء في وقت لاحق

(١) تحول اسمها لاحقاً إلى لينينغراد وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي عادت إلى اسمها القديم. (المترجم).

(٢) إمبرطورة روسيا، كاثرين الثانية التي حكمت خلال الفترة ١٧٦٢- ١٧٩٦. (المترجم).

وتم افتتاحها للجمهور في يناير ١٧٥٩ لتصبح المتحف البريطاني بلندن.

أما في فـرنسا فقد كـانت هناك مجموعـتان من هذه المقتنيات لفـتتا إليـهما الأنظار، الأولى تخص ن. فـابري دوبيـريس N Fabri de Peirese (١٥٨٠-١٦٣٧) الذي يشار إليه بوصفه مؤسساً لدراسة المخلفات الأثرية في فرنسا. أما الثانـية فقـد كانت تخص الكونت كـايلسM le Comte Caylus أحد باحـثي القرن الثامن عشر ورحالتـه. ولتوضيح الأسلوب الذي رتبت به المقتنيات نحيل القارئ إلى صـفحة الـغلاف الخاصـة بمؤلفه مجـموعـة التحف **Recueil d'Ar- tiquitiés** (المجلد الأول، ١٧٥٢)، التـي تضم مــجـمــوعـة القـطع الأثرية الكلاسيكية من الحفريات التي أجراها في آسيا الصغرى.

وشهد القرن السابع عـشر قيام أول الجمعيات العلميـة، فأكاديمية دي لنيشي dei Lincei في روما التي كـان ينتمي لها جاليليـو ازدهرت بين الأعوام ١٦٠٣ إلى ١٦٣٠م. كمـا أن أكاديمية دي سـمنتو del Cimento قد أسـستهـا عائلة مديشي Medici في فلورنسـا في ١٦٥٠م، وأكاديمية سكـرتوريم ناشري Sic- vetorum Naturae (طبـائع الأسـرار) كانت قـد أُنشـئت في نابولي منذ عـام ١٥٦٠م. أما الجـمعيـة الملكية في لندن فـقد أنشئت في عـام ١٦٦٠م وكذلك أكاديمية العلوم Academie des Sciences في باريس في عام ١٦٦٦م.

ومنذ عام ١٥٧٢م قامت في إنجلترا جمعيـة لحماية الآثار القومية، وكان من أبرز مؤسسيها القس ماثيو باركر وجون استو ووليام كامدن وتلميذه سير روبرت كـوتون. وهؤلاء تقدمـوا بطلب للملكة إليـزابيث الأولى لإصدار أمـر ملكي لحمـاية الآثار، إلا أن وفاة الملكة عاق إصـدار هذا الأمر. وقام جـيمس الأول خليفـتها بحل الجمـعية إذ عدها ذات غـايات سياسية. وفـي عام ١٧٠٧م قام بعض الشبـان المهتمين بدراسـة الآثار والتاريخ بتنظيم أنفسـهم في نادٍ، وكانوا

يلتقون في حانتين في الاستراند في لندن. ومن تلك المجموعة تكوّنت رابطة تنهج النهج نفسه الذي طرحته الجمعية المقترحة في عهد إليزابيث، ثم أخذت هذه شكلاً أكثر جدِّية فأصبحت هي الجمعية الآثارية اللندنية في عام ١٧١٨م، وتسلمت أمر تأسيسها الملكي في عام ١٧٥١م.

وفي مجال الدوريات فقد ظهرت جرنال دوسكفان **Journal des Scavans** في فرنسا في عام ١٦٦٥م، ومسلينيا كيوروسا **Miscellanea Curiosa** (عجائب متنوعة) الخاصة بالأكاديمية الألمانية في ١٦٧٠م. وظهرت أركيولوجيا **Archaeologia** مجلة الجمعية الآثارية اللندنية في عام ١٧٧٠م بقصد: «إزالة كل ما استند على خيال مُشرِّعي الأكاذيب وناشيرها». إلا أن ما نشر في أركيولوجيا لم يكن محل رضى الجميع، فقد انتقد هوراس والبول أعضاء الجمعية الآثارية بعنف، واتهمهم بقلة الحس الفني والذوق، كتب بعد أن اطلع على العدد الثاني من المجلة يقول: «لترحمنا السماء.. يا لها من شحنة من الطوب والقمامة والحطام الروماني تراكمت معاً». وأضاف في مكان آخر: «إن هؤلاء المهتمين بالآثار ظلوا كما هم سخفاء وما دام أنه قد أصبح من المستحيل بث الذوق فيهم فإنهم سيظلون يكتنفهم الجفاف والملل شأن سابقيهم، وربما نستطيع أن ننبش ما عفا عليه الزمن، إلا أن الزمن سيعفو عليه مرة أخرى إن لم نعطه من القوة أكثر مما كان فيه... وليست لديَّ رغبة في معرفة مدى تخلف الإنسان وعدم براعته في فجر الحضارات وفي فترات اضمحلالها».

إن وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن يتم الاعتراف بعمل الآثاريين بوصفه عملاً علمياً جاداً.

الفصل الثاني
جامعو التحف والآثاريون
(١٧٩٧-١٨٦٧م)

علم الجيولوجيا الحديث والحضارة البشرية :

نشر دانيال ولسون في عام ١٨٥١م كتاباً بعنوان آثار وحوليات ماقبل التاريخ في أسكتلندا The Archaeology and PrehistoricAnnals of Scotland ، وكما فعل الكثيرون غيره؛ فقد ظنّ أنّه ابتدع عبارة «ماقبل التاريخ» أول مرة. وفي مقدمة الطبعة الثانية لكتابه، التي ظهرت في عام ١٨٦٣م كتب يقول: «إن استخدام عبارة «ما قبل التاريخ» قد تم لأول مرة - إن لم أكن مخطئاً - في هذا الكتاب». لكنه كان مخطئاً فقد استخدم تورنال أمين متحف ناربورن العبارة في عام ١٨٣٣م(١).

نشر تورنال قبل خمس سنوات من ذلك التاريخ مقالاً في حوليات العلوم الطبيعية Annales des Scienecs naturelles (العدد الخامس عشر، ص ٣٤٨) يحوي أعماله في مغارة بيز، حيث وجد مخلفات عظمية بشرية وأخرى لحيوانات بعضها منقرض، وبعض الفخار كذلك. وأكد مرسيل سيفر Marcel de Sevres أن العظام البشرية في قدم العظام الحيوانية المنقرضة.

(١) يرى آخرون (انظر: C.Chippindle "The inventien of Words for the idea of Prehiotony", Proceedings of Prehistoric Society, 54. P. 303-14.) أن دانيال نلسون هو فعلاً أول من استعمل العبارة، إذ إن الكلمة التي أوردها بول تورنال هي antihistorique وليست prehistorique . غير أن عبارتي anti و pre في اللغتين الفرنسية والإنجليزية قد تعنيان «قبل». (المترجم).

ومرة أخرى أعلن تورنال في عام ١٨٢٩م في بحث نشر في **حوليات العلوم الطبيعية**، العدد ١٨، ص ٢٤٤) عن اكتشاف عظام لحيوانات منقرضة تظهر عليها علامات نتجت عن استخدام أدوات قاطعة. وفي العام التالي أعد دي كرستول de Christor of Montepellier كتيباً باسم **ملحوظة عن العظام البشرية في كهوف الغار** (١٨٣٠) **Notice Sar les Ossements Humains des Cavernes du Gard** تحدث عن مكتشفاته في مونبلييه حيث كان قد وجد في أحد الملاجيء الصخرية مخلفات عظمية بشرية إلى جانب عظام لضبع ووحيد قرن. لقد أثار هذا الاكتشاف في جنوب فرنسا حماس الدكتور ب. شميرلنج P. Schmerling الذي بدأ حفريات له في عدد من الكهوف في أنجهول بالقرب من لييج في بلجيكا، وكان أشهرها كهف إنجي الذي كشفت حفرياته عن سبع جماجم بشرية وعدد كبير من الأدوات، بعضها وجد إلى جنب هياكل عظمية لوحيد القرن والماموث[1]، ونُشرت نتائج هذا العمل تحت عنوان **بحث في العظام المتحجرة المعثور عليها في كهوف مقاطعة لييج Recherches sur les Ossements Fossils découverts dans les Cavernes de la Province de Liege** في عام ١٨٣٣م وفيه يقول: «ليس من شك في أن هذه العظام الآدمية قد دفنت في الفترة نفسها التي دفنت فيها المخلوقات المنقرضة وللأسباب ذاتها». إلا أن هذا العمل لم يؤخذ مأخذ الجد عند معاصريه كما قال شارلس لايل Charles Lyell في عام ١٨٦٣م في **الدليل الجيولوجي لقدم الحضارة البشرية**[2]

(١) الماموث هو الفيل المنقرض. (المترجم).

(٢) الطبعة التي ظهرت في عام ١٨٦٣ من هذا الكتاب هي الطبعة الثانية المنقحة، ولا نعلم على وجه التحديد متى صدرت الطبعة الأولى منه، إلا أنه من المؤكد أنها قد صدرت بعد مبادئ الجيولوجيا (١٨٣٠). (المترجم).

The Geological Evidence for the Antiquity of Man : «لقد انقضى ربع قرن قبل أن يكلــف أساتذة جامعــة لييج المجاورة أنفسهم مشقــة التحقق من صدق نظرية مواطنهم الذي كان يتمتع برؤيا واضحة ونفس لاتعرف الوهن».

إن التجاهل وعدم الاهتمام كـانا من نصيب القس الكاثوليكي ماكينري Ma-cEnery أيضاً، الــذي أجرى حفـريات في كهف توركـي في مقاطعـة «كنت» خلال السنـوات من ١٨٢٤ إلى ١٨٢٩م. ففي أثناء هذه الأعـوام وجد أدوات حجرية إلى جانب عظام حـيوانات منقرضة كوحيد القرن، مـتراصة تحت طبقة سليمة ورواسب جـيرية في قاع الكهف، أوحت هذه الاكتشـافات لماكينري أن المخلفات ـ مستخدماً عبارة جـون فرير ـ: «تعود إلى فترة موغلة في القدم أقدم من عـالمنا الحالي». أرسل مـاكـينري إلى بكلاند William Buckland أستـاذ الجيـولوجيا باكسـفورد يستـشيره في الأمـر، إلا أن الأخير رفض استنتـاجات ماكينري قائلاً: «إن البريطانيين القـدماء الذين عثر على أدواتهم في كهف كنتْ قد قاموا بحفر تجويفات عبر الأعمدة الكلسية في أرض الكهف لإقامة الأفران، وإن أدواتهم قد تسربت عبر هذه التجويفـات ووجدت طريقها إلى قاع الطبقة، وعليه فإن تزامنها المزعوم مع عظام الحيـوانات المنقرضة هو من قبيل الصدفة». احتج ماكينري بأن هذه الأفران لاوجـود لها، إلا أنّ بكلاند الذي رفض السفر من أكـسفور إلى كـنت لمعاينة الموقع قـد حث ماكـينري على مواصلة البـحث مؤكداً له أنه سيـعثر عليها في النهاية، كـان ذلك مثبطاً لهمة ماكـينري ومفقداً لحماسه. وعليـه فقد أحجم عن التمسك بدلائل رآها أمام عينيـه على معاصرة تلك الأدوات الحجرية لعظام الحيوانات. وعلى أنه واصل عمله في كهف كنت حتى وفاته في عام ١٨٤١م إلا أنه ثني عن عزمه في نـشر مكتشفاته التي بقيت غير مـعروفة في زمانهـا، وكشأن شمـيرلنج كان عليه أن ينتظر لـربع قرن آخر

حتى يُعترف له بإسهامه.

في تلك الفترة كان أمي بووي Ami Boué يقوم بحفريات في ترسبات ترجع للعصر الجيولوجي الرابع في جنوب النمسا، حيث وجد مخلفات عظمية بشرية متحجرة إلى جانب عظام لحيوانات منقرضة. وفي وقت لاحق في عام ١٨٣٥م قُدّم وصف علمي لجمجمة قديمة وجدت في كانشتات في عام ١٧٠٠م وظلت رهينة بمتحف اشتغارت[١] منذ ذلك التاريخ. ولم تعط تلك الجمجمة التي تعد أول جمجمة لإنسان قديم يتم العثور عليها ما تستحقه من اهتمام. وفي عام ١٨٤٨م وُجدت جمجمة لما نسميه الآن بإنسان نياندرتال في منطقة جبل طارق، ولم تثر هذه اهتماماً ولم توصف بطريقة علمية إلا في عام ١٩٠٧م[٢].

تراكمت الدلائل تدريجياً، ولكن لماذا استغرقت فكرة قدم الإنسان هذا الوقت الطويل قبل أن يتم الاعتراف بها وقبل أن تنبذ فكرة ستة الآلاف سنة؟ كان ذلك لأن الناس ـ في المقام الأول ـ لم يشؤوا أن يؤمنوا بعمق الحضارة البشرية؛ لأن ذلك ربما ترتب عليه التخلي عن التسلسل الزمني الذي بني على سفر التكوين ومن ثم المساس بالعقيدة المسيحية. ولذلك لجأ الناس إلى استعمال تفسيرات بديلة وحجج باطلة، فقد قدم دينواييه Desnoyers نظرية تقول: إن بعض الأدوات التي وجدت في الكهوف شبيهة بتلك التي وجدت في المواقع الميغاليثية: (لقد كان بعضها كذلك بلا شك؛ إلا أن هذا لاينطبق على تلك

(١) استغارت، مدينة في جنوب ألمانيا. (المترجم).

(٢) التفت العلم الحديث لهذه الجماجم البشرية المتحجرة بشكل جاد أول مرة في عام ١٨٥٨ بعد أن عثر على إحداها في موقع نياندرتال بالقرب من ديسلدوف في ألمانيا الحالية. (المترجم).

الأدوات التي وجدت مع عظام الحيوانات المنقرضـة)، وعليه فإنها ليست بأقدم من بداية التاريخ المُدوَّن.

أصبح شائعاً أن هذه الكهـوف قد تعاقبت عليها جماعـات بشرية، وأنها قد استعملت في بعض الأحيان جـبانات لدفن الموتى، وأن طبقاتها ربما تكون ـ أو هي فـعلاً ـ قـد تبدلت بفـعل الحيـوانات التي تنبش أرض الكهف، وكـذلك ماتحدثه الفيضانات والأنهار من تخريب فيها. في عام ١٨٢٣م سافر بكلاند إلى جنوب ويلز حيث اكتـشف كهف «حفرة العنز» في بيفـلاند على ساحل غوار، وهناك وجد مـخلفات بشـرية تعرف اليوم على أنهـا لشاب من حـقبة العـصر الحجري القديم الأعلى. وقد سميت المخلفات وقـتها «سيدة بيفلاند الحمراء»، وذلك لأن العظام كـان تكسوها مغـرة حمـراء، وإلى جانب العظام عـثر على أدوات حجـرية وعظام حيوانات منقـرضة، وأعلن أن الهيكل البـشري لم يكن معـاصراً لعظام الحـيوانات المنقـرضة، وفـسّر وجود الهـيكل على أنه من قـبر رومـاني ـ بريطاني وأقحـم على تلك المخلفات. وكـان عليـه كذلك أن يجـد تفسـيراً لوجود العظام البـشرية المغطاة بقشـرة من الرواسب الكلسية كـانت قد وجـدت في كـهف في بيـرندون في المنديـز. قال بـكلاند: «إن الكهف ربما استعمل مكاناً للذبح في الزمان القديم، وربما يكون مأوى للبائسين الذين ماتوا فيـه في وقت كانت بلادنا ترزحُ فـيه تحت نيـر العمليات العـسكرية». وذهب بكلاند ليقرر: «أن حالة العظام تشيـر إلى قدم شديد جداً» ولكنه يضيف: «إلا أنه ليس هناك ما يمنعنا من إرجاعها إلى فترة ما بعد الطوفان».

لقد كانت الأسباب متوافرة لمثل هذا الافتراض إذ إن القبول البطيء بالدلائل الأثرية من كهوف فرنسا وبلجيكا وبريطانيا، والمحاولات المتكررة لردها؛ ما هي إلا نتيـجة، لأن مـعظم الجيـولوجيين كانـوا من المؤمنين بنظرية الكوارث التي

يفسرون بها تراكم الطبقات.

إن تطور الفكر الجيولوجي في غرب أوربا بشكل عام كان تطوراً تدريجياً طويلاً، ومن الخطأ الشائع الاعتقاد بأن تحولاً دراماتيكياً قد حدث حين نشر شارلس لايل (١٧٩٧- ١٨٧٥م) كتابه مبادئ الجيولوجيا[1]، **The Principles of Geology** بدأ التغيير تدريجياً من حيث الوعي بمفهوم الطبقة وترسب الطبقات الجيولوجية. وعلى الطريق نفسه ـ كما سنرى لاحقاً ـ سار أمر تبني نموذج التطور التقني الخاص بأدوار العصر الحجري والبرونزي والحديدي، فقد جاء العالم الفرنسي جورج كوفييه Georges Cuvier (١٧٦٩- ١٨٣٢م) وقال بأنه ليس هناك سوى طريقة واحدة لتفسير السجل الصخري، وذلك بافتراض تعاقب الكوارث والأحداث العظيمة على الأرض، وأن فيضان نوح الذي جاء ذكره في سفر التكوين ما هو إلا آخر هذه الكوارث. وأطلق على كوفييه لقب يستحقه وهو «مؤسس علم باليونتولوجيا الفقاريات». إلا أنه أنكر وجود أي عظام بشرية متحجرة قائلاً: «إن ذلك أمر مستحيل». وقد لقب «بابا العظام» وعُرِف في أوربا دارساً للمتحجرات أو كما سماها «ميداليات الخلق». وقد واصل تلاميذه العمل من بعده؛ حيث قام برونيار Brongniaert ودوربيني d'Orbigny بإعداد قائمة تضم سبعة وعشرين حدثاً متتالياً من فعل الكوارث.

أما في إنجلترا فإن القس و. د. كونيير W. D. Conybeare (١٧٨٧- ١٨٥٧م)، وهو جيولوجي أصبح في وقت لاحق رئيساً لأساقفة خلانداف، قد أحصى ثلاثة طوفانات قبل طوفان نوح. كذلك كان كل من آدم سدويك Adam Sedgwick (١٧٨٥- ١٨٥٧م) أستاذ الجيولوجيا بجامعة كيمبردج

(١) صدر كتاب مبادئ الجيولوجيا في مجلدين في عام ١٨٣٠. (المترجم).

ووليام بكلاند (١٧٨٤- ١٨٥٦م) من محبذي فكرة الطوفـان. والأخير سبقت الإشارة إليـه في حديثنا عن بيفـلاند وبيرنغدون وكـهوف «كنت». عُين بكلاند أستاذاً مشاركاً في قسم علم المعادن بجـامعة أكسفورد في عام ١٨١٣م، ولفتت محاضـراته انتباه جامعـته وإعجابها، كـما أنها لعبت دوراً في اعتـراف العامة بالجيولوجيا بوصفها علماً، مما قـاد إلى تأسيس كرسي أستاذية لعلم الجيولوجيا بأكـسفـورد في عام ١٨١٩م، إلا أنه في ذلك الوقت كـان قد ترك أكـسفـورد ليصبح عميداً لوستمنستر. وفي عام ١٨٢٣م نشر كتابه **ملاحظات حول المخلفات العضوية الموجودة في الكهوف والشقوق والمقابر ذات العلاقة بالطوفان وحول بعض الظواهر الجيـولوجية الأخـرى التي تبرهن على وقوع طوفـان كوني Riliquiae Diluvianae: or Observerations on the Organic Remains Contained in Caves, Fissures and Diluvial Graves and on Other Gealogical Phenomena Attesting the Action of an Universal Deluge**. وبعـد ذلك بثـلاثة عشـر عاماً نشر كـتابه **الجيـولوجيـا وعلم المعادن في ضـوء علاقـتهمـا باللاهوت الطبيعي Geology and Minerology Considered in Relation to Natural Theology** وقد ناقش قضية الطوفان وذكر أن السجل الصخري يؤكد حدوثها[1].

غير أن المعارضة لنظرية الكوارث كانت تنمو تدريجياً؛ فنظرية الفيضان الذي عمّ العالـم كله أصبحت أقلّ إقناعاً، بينما كان التقويم المتأني للأدلة المستنبطة من

(١) خلال الفترة التي سبقت بداية القرن التاسع عـشر كان الفكر اللاهوتي مسيطراً على الحياة الفكرية في أوروبا، ولم يكن بمقدور الجـيولوجيين الخروج علـيه أو الاصطدام به، حتى إن الجيـولوجيين الأوائل أنفسهم كانوا لاهوتيين. لذا فقد جاءت أفكار مدرسة الكوارث متوافقة مع التفسير اللاهوتي. يصف أرلي تعاليم هذه المدرسـة بأنها كانت «مزيجـاً» من الحقائق العلمـية التي ينظر إليهـا عبر معـتقدات الأسطورة وأحلام الرومانسية. (المترجم).

الصخور آخذاً في النمو، لقد عرف مفهوم «الطبقة» الجيولوجية في القرن السابع عشر.

إن جون مشيل John Michell (١٧٢٣- ١٧٩٣م) الذي كان قد انتخب أستاذاً للجيولوجيا بجامعة كيمبردج في عام ١٧٦٢م، أظهر معرفة واسعة بالطبقات في مختلف نواحي إنجلترا وخارجها، وأعد شرحاً واضحاً لعملية تعاقب الطبقات، فقد كتب يقول: «إن الأرض لاتتألف من ركام من الأشياء التي ألقيت عشوائياً، وإنّما تتكون من طبقات منتظمة ومتسقة، فهذه الطبقات التي لايزيد سمكها في الكثير من الأحيان على أقدام قليلة، بل وربما بوصات، تمتد أحياناً إلى عدة أميال طولاً وعرضاً». وفي عام ١٧٨٥م نشر جيمس هاتون (١٧٢٦- ١٧٩٧) كتابه **نظرية الأرض أو بحث في القوانين المستقاة من تركيب الأرض وتفتيتها وإعادة تكوينها Theory of the Earth: or an Investigation of the Laws Observable in the Conpositian Dissolution and Restoration of Land upon the Globe** وكان من رأيه أن ترسبات الرمل والحصى والطين هي نتاج لترسب الطمي مع بعض المخلفات العضوية تحت الماء في الأنهار أو البحار تماماً كما يحدث اليوم. وقال: «إن الجزء الأكبر من اليابسة كان يوماً ما مغطى بالمياه حتى ظهر تدريجياً بطريقة طبيعية (لا يد للكوارث فيها)» ومضى يقول: «لم تكن هنالك أحداث غير عادية شاركت في هذا العمل ولم تقع أحداث غير تلك التي نعرف أسبابها». قام وليام اسمث (١٧٦٩- ١٨٣٩م) William Smith - أو استراتا اسمث Strata Smith ، كما كان يطلق عليه - بإعداد قائمة تحوي ثلاثاً وثلاثين طبقة مختلفة وجد فيها بعض العظام المتحجرة.

وكانت هذه المتحجرات بالنسبة له ليست «ميداليات خلق» وإنما مخلفات طبيعية قديمة. ونشر الجزء الأول من كتابه **الطبقات كما تعكسها**

المتـحجـرات **Strata, Identified by Organized Fossils** في عام ١٨١٦م، ولم يكتف فيه بتقدير أعمار تلك الطبقـات على ضوء ما تحويه من مخلفات عضوية متحجرة، وإنما جادل في أمر تركـيب الطبقات وأنه قد تم في فترة زمنية طويلة للغاية[١].

بدأت مبـادئ الإستراتغـرافيا الجيـولوجية وتعـاليم مدرسة الاتسـاقيين **Uni-formitarianism** تحتل مكانهـا في الصدارة قـبل أن يظهر كتـاب شارلس لايل مـبادئ الجيـولوجـيا، إن الاسم الكامل للكتـاب هو أفـضل تعريف لمدرسـة الاتساقيين **مبـادئ الجيـولوجيـا: محاولة لـفهم التغـيرات التي حـدثت على سطح الأرض كمـا تفسرها العوامل الحـالية** **The Principles of Geology being an At-tempt to Explain the Form Changes of the Earth Surface by Reference to Causes now in Action**. وصف العـميـد كونيـبيـر ـ أحـد المؤمنين بنظرية الكوارث ـ هذا العمل بقولـه: «إنه عمل مهم، ومعلم يبدأ به عـهد جديد من تطور علم الجيولوجيا» والكتاب كشأن **أصل الأنواع** لداروين ـ وداروين نفسه قد تأثر بكتاب لايل[٢] ـ لم تكن فيـه أفكار جديدة تمامـاً، ولكن الجديد فـيه هو الطريقـة العقـلانيـة الواضحـة التي قـدمت بهـا تلك الأفكار إلى كل من يود قراءتهـا[٣]. وقد كتبت أخت زوجة لايل عنه في عام ١٨٩٤م تقول: إنه كان

---

(١) تضمن هذا الكتاب أول خريطة جيولوجية تشمل وصفاً للتركيبات الصخرية. (المترجم).

(٢) يقول داروين: «أحس وكـأن نصف كتاباتي قد جـاءت من عقل شارلس لايل». وللمـزيد من إلقاء الضوء على هذا الأمر انظر: L.C.Eiseley Op. Cit. (المترجم).

L.C.Eiseley: Charles Lyell Reading From Scientific American,1967, P,19-26.

(٣) كان لايل أول من قـسم حقـبتي العـصر الجيـولوجي الثالث والـرابع على عصور أربـعة: ايوسين، مايوسين، بلايوسين، بلايستوسين. (المترجم).

صاحب رسالة وهي: «تحرير العلم من الإسرائيليات» وذلك ما فعله تماماً، حيث أسدلت أعماله الستار على نظرية الكوارث، ومن الآن فصاعداً فإن الكوارث قد زالت عن علم الآثار والجيولوجيا، إن الآثاريين في مرحلة ما بعد لايل لم يعودوا يربطون تفسيراتهم بنظرية الكوارث.

كان جاك بوشيه دي كريفكير دو بيرت (١٧٨٨- ١٨٦٨م) Jacques Boucher de CreveCoeur de Perthes يعمل ضابطاً للجمارك في أبيفيل في شمال فرنسا، وأصبحت لديه اهتمامات بالمعثورات «السلتية» التي يلقي بها من يقومون بنظافة قناة السوم. وقد حوت هذه المعثورات أدوات حجرية من الصوان وفؤوساً مصقولة تعود إلى العصر الحجري الحديث، وقطعاً عظمية تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. ثم أصبح دوبيرت أكثر اهتماماً بالمخلفات البشرية من حقبة الطوفان أو ما سماها: «بفترة ماقبل السلتية» من نوع أدوات الصوان المشحوذة وعظام الحيوانات المنقرضة التي عثر عليها في محاجر أبيفيل. وقد قام بعرض هذه الأدوات في أبيفيل في عام ١٨٣٨م، وفي معهد باريس في السنة التالية. ثم ضمنها في كتاب من خمسة أجزاء سماه **عن الخلق: بحث في أصل المخلوقات وتطورها** **De la Création: essai sur L'origine et la progression des ètres** وقام بنشره خلال الأعوام ١٨٣٨- ١٨٤١م ولم تجد تلك المعثورات ترحيباً، بل عده الناس شخصاً مهووساً، وقد ذكر مرة أنه: «كلما ذكرت عبارة "فاس حجرية" و "رواسب قديمة" ألاحظ ابتسامة (السخرية) على وجوه هؤلاء الذين أتحدث إليهم»، إلا أنه استمر في عمله. وفي عام ١٨٤٧م نشر الجزء الأول من مؤلف من ثلاثة أجزاء باسم **الآثار السلتية، ماقبل الطوفان** **Antiquities Celtiques et Antédiluviennes** . يوضح الاسم المدى الذي بلغته أبحاثه، فالفؤوس الطوفانية كما سماها أولاً أصبحت الآن فؤوس

ماقبل الطوفـان، كما أن وجود مـخلفات حضارية إلى جانـب عظام حيوانات منقرضة في ضفاف السوم لم تعد تفسر في ضوء نظرية الكوارث.

في هذه الأثناء كان معظم الجيولوجيين الفـرنسيين المعاصرين القائلين بنظرية الكوارث لايؤمنون بأن للإنسان يداً فيـما سماه دو بيرت «مخلفـاتٍ حضاريةٍ». ومما أضر بقضيـته أنه كان ضمن مخلفاته الحضاريـة قطع حجرية تشكلت بفعل عوامـل الطبيـعة. وقام دكـتور ريغـولو Regollet من أميـا ـ وهو جيـولوجي معروف ـ بحفريات في سانت أشول ليثبت خطأ مزاعم دو بيرت، إلا أنه عدّل عن رأيه وقـال في مـذكراته التي نُشِـرت في عـام ١٨٥٤م بعنوان **مذكـرة عن الأدوات من الصـوان المعـثـور عـليهـا في سـانت أشـول Mémoires sur les Instruments en Silex trouvées a Saint-Acheul** أنّه عـثـر عـلى دلائل جـديدة لمعاصـرة الإنسان لحيوانات منقـرضة. وقام عالم بـاليونتولوجيـا فرنسي ناشيء اسمه ألبـير غودري Albert Gaudry بإجراء حفريات في أمـيا وسانت أشول، واقتنع بصحة آراء دو بيرت، ثم انقلب الوضع بعد ذلك.

في عام ١٨٤٦م أنشئت في إنجلتـرا لجنة انبثقت عن جمعـية توركي للتاريخ الطبـيعي الحـديثة التكوين، وذلك للـتنقيب في كـهف «كنت»، وبالفعـل قام بالعـمل مدير مـدرسة مـحلية يدعى وليـام بنجلي William Pengelly، كان مشغوفاً بالبحث الجيولوجي، فبرهن هو أيضاً على صحة استنتاجات ماكينري. وفي عام ١٨٥٨م أثنـاء قيام البـعض بقطع حجـارة من جبل مطل على مـيناء بركسـام مقابل تـوركي وجدوا كهـفاً آخر، فـأجرى بنجلي حـفريات في هذا الكهـف مـن صيف عام ١٨٥٨م وحتى صيف عام ١٨٥٩م، وأثبتت الحفريات ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ تزامناً بين أدوات حجـرية وعظام حيوانات منقرضة في أرض الكهف. وكتب بنجلي: «في أرض الكهف ترقد طبقة ترسبية سمكها

ما بين ثلاث إلى ثماني بوصات (٥ر٧سم- ٢٠سم) تحوي في داخلها ومن فوقها بقايا من عظام الأسد والضبع والدب والماموث ووحيد القرن والأيل».

لقد أقنعت مكتشفات بركسام الكثيرين، وقبل بالدليل كل من برسوتش Prestwich ولايل، فكتب لايل في عام ١٨٥٩م يقول: «إن الحقائق التي كشفت عنها حفريات بركسام قد هيأتنا - كما أظن - إلى الاعتراف بأن الشكوك التي أثيرت حول قدم الحضارة البشرية كان قد دُفع بها إلى حد ما كان لها أن تصل إليه».

وفي تلك الأثناء كان عدد من الجيولوجيين والآثاريين الإنجليز قد زاروا حفريات دو بيرت على ضفاف السوم، واقتنعوا هم أيضاً بما كان قد قاله. فقام برسوتش وجون إيفانز بزيارة إلى أبيفيل في عام ١٨٥٩م، وكتب إيفانز بعد تلك الرحلة يقول: «إن الفؤوس الحجرية وأدوات أخرى وجدت داخل طبقات حصبائية على ضفاف السوم قد تزامنت بلا شك مع مخلفات بشرية في زمن سيادة الطوفان أو أيا كان الحدث الذي أدى إلى تراكم هذه الطبقات». ولدى عودته إلى إنجلترا قرأ برسوتش بحثاً أمام الجمعية الملكية في ٢٦ مايو ١٨٥٩م بعنوان: **عن وجود أدوات حجرية وتزامنها مع بقايا سلالات حيوانية منقرضة في طبقات جيولوجية حديثة في أميا وأبيفيل وفي إنجلترا في هوكسن**. وهكذا انقلبت الأمور تماماً، وتم الاعتراف بقدم الحضارة البشرية، وكان من حسن الطالع أن برسوتش وإيفانز لم يكونا قد نسيا خطاب جون فرير في عام ١٧٩٧م. وفي العام نفسه كتب بروفسر رامسي يقول: «إن الفؤوس الحجرية التي وجدت في أميا وأبيفيل هي - كما يخيل لي - عمل فني شأنها شأن المدى التي تصنع الآن في شفيلد». وكما يبدو الآن فإن الفؤوس الحجرية وصانعيها يعودون إلى أزمان سحيقة أقدم من ستة آلاف سنة.

وإذا ما كانت هذه الأشـياء مدى، فأين هي عظام من قاموا بصناعـتها؟ في عـام ١٨٥٧م وجدت جـمجـمة إنسـان وبعض من عظام الأطراف في كـهف فينيـاندرتال على نهر دوسـل في بروسيا، وقـدم شافـهاوسن Schaaffhausen وصفاً لتلك المخلفات، حـيث لاحظ كبر الحجم وقصر الجبهـة وضخامة عظمة الحاجب، وهي سمات مطـابقة لما يعرف اليوم بإنسان نياندرتال. وكـان اعتقاده أنها ترجع إلى أفراد جمـاعات البرابرة والشعوب المتوحـشة في أوربا، وصنفها على أنها تنـتمي إلى أقدم جـماعات اسـتقرت في أوربا، وطبـيعـياً ثار بعض الجدل، فقال فيرشوف Virchow: «إنها لمخلوق مشوه». أما هكسلي فقد قبل أفكار شافهـاوسن وصنف هذه المخلفات على أنها تخص سلالات بشـرية أكثر تخلفاً من سكان أستراليا الأصليين[١].

لم يكن العلماء الفـرنسيون راضين عن عدم وجـود مخلفات عظميـة بشرية ضمن مـعثورات دوبـيرت، وقد كـان هو نفسه مـؤملاً في أن تقـدم مثل هذه المخلفات دعماً قوياً لقدم الحضارة البشـرية. وكذلك فإن أخصائيي التشريح قد صرحوا بأن العظام الأولى التي كـان قد عثر عليها في حفـرة مولان - كينيون (Muilin Quiynon) في ابيفيل كانت في حالة من السوء لا تسـمح بتشخيصها تشخيصاً دقيقاً. وعندها أعلن دو بيرت عن مكافأة مقدارها مئتا فرنك لمن يعثر على بقايا عظمية متحجرة لإنسان، وبعد الإعلان بفترة وجيزة أعلن عن العثور

(١) وصل الإنسـان إلى أستراليـا أول مرة منذ حـوالي ٣٥ ألف سنة. أما سكـان أستراليـا الأصليين أو «الأبروجونيين» المشار إليهم هنا فهم الذين كانوا يسكنونها حين وصل الرجل الأبيض إليها من القرن السـادس عشـر، ولايزال أحـفادهم مـوجـودين بهـا إلى الآن، إلا أنهم قد انحـصـروا في المناطق الصحراوية الأقل خصوبة في الأجزاء الغربية من القارة، وقد تمت عدة محاولات لجذبهم لمستوطنات حديثة. (المترجم).

على عظمة الفك وبعض الأسنان إلى جانب أدوات حجرية في الحفرة نفسها وذلك في مارس من عام ١٨٦٣م. وأكد دوبيرت: «أن صدق هذا الاكتشاف مطلق»، ووثق به كل من كاترقاج في باريس ولايل في لندن. أما برسوتش وإيفانز فكانا على شك. وأخيراً كشف النقاب عن الاكتشاف الذي كان زائفاً، واتضح أن دو بيرت كان قد خدعه عماله وأنه كان ضحية لطموحاته ولجشع عماله وحيلتهم، «إن الأدوات الحجرية والفك البشري. . . في مولان كينيون من إنتاج حديث». هكذا كتب إيفانز وكان محقاً، إلا أن الكثيرين من الفرنسيين صدّقوا بأمر تلك المعثورات على أمل أن تكون لفرنسا مساهمتها في هذا المجال، ومات دوبيرت وهو مؤمن بما وجد في مولان ـ كينيون.

العصور الثلاثة: الحجري والبرونزي والحديدي:

إن المراحل التقنية الثلاثة: الحجري والبرونزي والحديدي كانت قد اقترحت بشكل واضح منذ عام ١٧٣٨م على يد غوجيه، إلا أنها لم تلق قبولاً فورياً أو واسعاً. إن علم الآثار يتطلب إجراء حفريات، إذ إن المخلفات لا تكشف عن نفسها، وليس هناك توضيح لهذه الأمور في كتابات الكلاسيكيين أو العهد القديم. لقد أجريت بعض الحفريات في كل من إسكندنافيا وفرنسا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في مقابر ميغاليثية ترجع إلى فترة ماقبل التاريخ، إلا أن نتائج هذه الحفريات لم تفسر في ضوء هذه العصور الثلاثة المتعاقبة، لأن هذا النموذج الخاص بالتطور التقني للماضي لم يكن قد تمّ قبوله بعد.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر شهدت إنجلترا حفريات آثارية جادة كتلك التي قام بها القس براين فوست Bryon Faussett في كنت،

والقس جيمس دوغلاس James Douglas. حيث قام فـوست بحفريات في مقابر إنجلـو ـ سكسونية خلال الأعوام ١٧٥٧- ١٧٧٣م، ونـشر دوغلاس في عام ١٧٩٣م كتابه نينا بريتانيكا: أو تاريخ المدافن البريطانية.

ربما استحق كل من وليام كننغتون William Cunnington ورتشارد كولت هور Richard Colt Hoare أن يكنيا بأبوي الحفريــات الآثارية في إنجلترا، فقد قال كولت في كتابه تاريخ ولتشير القديمة **History of Ancient Wiltshire** الذي نشر بين عــامي ١٨٢٠-١٨٢١م: «نحن نتحدث عن حـقائق لا نظريات، إنني لن أبحث عن أصل مدافن ولتشــير في عالم الرومانسية الحـالمة». ويذكر وليام كننغتون وهو يقــوم بحفر بعض المدافن في سهل سالسـبري في عام ١٨٠٣م: «أن الأمل معقــود على العثور على شيء يبدد الشك»، وقد قــام الاثنان بحفر الكثير من المدافن في زمن وجيز. قام كولت هور بحفر ٣٧٩ مدفناً وقدّم تقريراً مفصلاً عن تلك الحفريات، مـيز فيه بين الأنواع المختلفة لأشكال تلك المدافن، كمــا ميّز بينها على أســاس طرق الدفن، وبيّن المدافن التي استعــملت أول مرة وتلك التي أُعيــد استعمالــها، ولقد تخلى عن تلك العبــارات التي توصف بها مخلفــات الدرود وفرّق بين المدافن المستطيلة والمســتديرة، وقسم الأخـيرة على أربع مجموعات، إلا أنّه لم يستطع تحـرير نفسه كليةً من الأسلوب الرومانسي، فقد أطلق على إحدى تلك المجموعات مدافن الدرود، كما أن الرسومات على واجهة كتابه عن ولتشير القديمة تنم علــى تلك النزعة الرومانسية حيث استعمل الطريقة الهيجائية القديمة داخل إطار من رؤوس السهام.

كان هدف كــولت هور هو تحديد أيٍّ مِنْ تلك المجـموعات المتــعاقـبة على الجزيرة البريطانية تعود إليه تلك المخلفات التي ترجع لفترة ماقبل التاريخ، وهل هي تخص جميعها مجموعة واحدة أم مـجموعات مختلفة؟ وبعد عشر سنوات

من العمل المضني أجبر على الاعتراف: «بـجهله التام بما يختص بأصحاب هذه النصب التـذكارية» (أي المدافن)، فكتب يقـول: «لدينا دليل على قـدم مدافن ولتشير لكننا لا نعرف شيئاً قائماً على أساس متين عن المجموعات البشرية التي أنشـأت تلك المدافن». لقـد واجهت الـدراسات الآثارية في فـرنسـا والدنمارك المشكلة نفسـها، ففي فرنسا أنشـئت في عام ١٨١٨م إدارة قومية «لـلتحقق من آثار الغال والإغريق والرومان»، إلا أن الإدارة لم تفلح في حل مشكلة التعاقب الزمني لهذه المخلفات.

أما في الدنمارك فـقد نشر الأستاذ راسـمس نيروب Rasmus Nyerup كتابه بعنوان: **Oversyn foedrelandets midesmaerker fra Oldtiolen** الذي أوصى فيه بإنشاء متحف قومي للآثار في الدنمارك. وفي العام التالي شكلت الحكومة الدنماركيـة لجنة ملكية لجمع الآثار القـومية وحفـظها وعين نيروب مقـرراً لها. وكان نيروب لسنوات طويلة يقـوم ـ بصفته الخاصـة ـ بجمع المخلفات الأثرية، حتى أنشأ بها متحفاً صغيراً بجامعة كوبنهاجن التي كان يعمل بمكتبتها، لم يكن بوسـعه أن يصنف تلك المخلفـات بأي أسلوب ذي معنـى؛ فقد أقـرّ: «أن كل ماوصل إلينا من آثار تخص تلك المجموعات الهمجيـة يلفه ضباب كثيف، فهو يعود إلى فترة زمنيـة لاندري كيف نحددها، إننا نعلم أنها أقدم من المسـيحية، إلا أننا لا ندري إن كانت أقـدم منها ببضع سنوات أو ببضع قـرون أو أكثر من ألف عام، إن كل ما نستـطيع فعله هو أن نخمّن طول تلك المدة». إن في هذه الكلمات ـ كـما هو الحـال في كتابات كـولت هور ـ ما يدعـو لليأس، إلا أن الإجابة كانت موجودة فقد قدمها غوجيه، وكان من المفروض أن تكون معروفة حين فرّق كولـت هور وكننغتون بين المدافن الأولية والثـانوية، كان من الممكن للضبـاب أن ينقشع وللجـهل أن يزول، إلا أن الأمر كان من نـصيب اثنين من

الدنماركيين هما طومسن Thomsen وفارسيه Worsaae.

لقد أصبح نظام الـعصور الثلاثة حقـيقة بالنسبة للمـؤرخين الدنماركيين منذ بداية الربع الأخيـر في القرن الثامن عشـر. ذكر ب.ف. سوهم P. F. Suhm في كتابه **تاريخ الدنمارك والنرويج وهولشـتاين History of Denmark, Norway and Holstein,** الذي نشـر في عـام ١٧٧٦م أن الأسلحـة في هذه المناطق قـد صنعت في البدء من الحجارة ثم من البرونز وأخيراً من الحديد. وفي كتاب **ثور ومطرقته وبعض الأسلحة القـديمة الخاصة بها Concerning Thor and his Hammer and the earliest Weapons that are related to it** الذي نشـــر في عــام ١٨٨٢م استـخدم سكولي ثورلاكـيوس Skuli Thorlacuis مراراً فكرة تعاقب عصور ثلاثة: حجري، وبرونزي، وحديدي. كما كتب فيديل سايمنسن Vedel Simansen في **Udsight over National historiens aeldste og maerkeligste Perioder** (1813-16) يقول: «في البـداية كانت أسلحة الإسـكندنافيين الأوائل وأدواتهم تصنع من الحـجارة أو الأخـشاب، ثم تعلم الإسكندنـافيون صنـاعة النحاس وبعـدها صهـره وطرقه وفي الختـام تعلموا صناعـة الحديد. ومن هذا المنطلق فإن تطور حضارتهم يمكن تقسيـمه ـ ومن وجهة النظر هذه ـ على عصر حجـري وعصـر نحاسي وعصـر حديدي. إن هذه العـصور لا يمكن فـصلها بحدود واضـحة إذ إنهـا متداخلة، فـممـا لا شك فيه أن اسـتعـمال الأدوات الحجرية قد استـمر بين جماعات أكثر تطوراً عرفت استعـمال النحاس، كما أن بعض الأدوات النحاسـية قد اسـتعملت حـتى بعد أن عرفت صناعـة الحديد، وطبيعي أن الأدوات المصنوعـة من الأخشاب قد أصابها التلف مـثل ما أصاب الصـدأ الأدوات المصنوعـة من الحـديد، أمـا تلك التي صنعت من الحـجـارة والنحاس فكانت أوفر حظاً في درجة الحفظ».

وهنا تكمن بوضوح فكرة تعاقب العصور الثلاثة الحجري والنحاسي ثم الحديدي، ولكن هذه الآراء لاتعدو كونها تخمينات مؤرخ تحتاج للدليل والبرهان الأثري وذلك ما فعله طومسن وفارسيه.

خلّف كريستيان يرغنسن طومسن (١٧٨٨- ١٨٦٥م) Christian Jurgensen Thomsen نيروب في سكرتارية الجمعية الدنماركية في عام ١٨١٦م وعين في العام نفسه أول أمين للمتحف القومي وهي الوظيفة التي احتفظ بها حتى وفاته.

كان طومسن ابناً لأحد تجار كوبنهاجن، وظل يمضي جزءاً من وقته في العمل مع والده أثناء توليه إدارة المتحف، أظهر طومسن منذ شبابه ميلاً نحو جمع القطع النقدية والتحف القديمة المختلفة، ثم عمل على تصنيف تلك القطع التي جمعها. في هذه الأثناء كانت المخلفات الأثرية ـ ضمن أشياء أخرى غير أثرية ـ تقبع في حجرة صغيرة في مكتبة جامعة كوبنهاجن. قام طومسن بتصنيف المخلفات الأثرية إلى مجموعات ثلاث معتمداً على نوع المادة الخام التي صنعت منها كل قطعة، وكان من رأيه أن هذه المجموعات تمثل عصوراً ثلاثة متعاقبة: عصراً حجرياً ثم برونزياً ثم حديدياً، وفي عام ١٨١٩م افتتح المتحف للجمهور. وبعد ذلك بسنوات قليلة منح عدداً من الحجرات في قصر كريستيانبرج الملكي، وهناك وجد طومسن الفرصة كاملة لتنفيذ خطته في ترتيب المخلفات القديمة في الدنمارك وتصنيفها، فبعد أن صنّف تلك المعثورات إلى مجموعات ثلاث حجرية وبرونزية (نحاسية) وحديدية؛ خصص لكل مجموعة حجرة منفردة.

ظهر أول تعليق واضح على هذا المفهوم الجديد «للعرض المتحفي»، كما أطلق عليه (إذ إن عمل طومسن هذا هو بالضرورة تنظيم أو عرض متحفي)

ضمن دليل للمتحف القومي الـدنماركي نشر في كوبنهاجن في عام ١٨٣٦[١].
وقد ظهرت ترجمة إنجليزية له قام بها لورد إليسمير Lord Ellesmére تحت اسم المرشد إلى آثار الشمال في عام ١٨٤٨ **A Guide to Norlhern Antiquities** وقام طومسن بتنقيح المرشد. كتب يقول عن الجزء الخاص بالآثار القديمة في الشمال: «إن المجموعات الأثرية بين أيدينا. . . قريبة العهد، والحقائق قليلة ولا تسمح لنا بالوصول إلى نتائج مطلقة الدقة. . . إن الملاحظات التي نود الآن تقديمها يجب أن ينظر إليها على أنها تخمينات ربما يكون مصيرها التأكيد أو التعديل وذلك كلما زاد الاهتمام بهذا العلم».

وجاء بعد ذلك بتصوره **للعصور الثلاثة:**

العصر الحجري: أو تلك الفترة التي كانت الأسلحة والأدوات فيها تصنع من الحجارة والأخشاب والعظام أو مواد أخرى في وقت لم يعرف فيه الشيء الكثير عن المعادن أو أنها لم تعرف أصلاً.

العصر البرونزي: وفيه صُنعت الأسلحة والأدوات الحادة من البرونز أو النحاس ولم يعرف شيء عن الحديد والفضة، أو عرف عنهما الشيء القليل. .

العصر الحديدي: هو الحقبة الثالثة الأخيرة من العهود الوثنية، وقد استعمل الحديد في تلك الأدوات التي يصلح استعماله فيها بدلاً من النحاس.

كان ينز ياكوب أسمسن فارسيه Jens Jacob Asmussen Worsaae (١٨٢١- ١٨٨٥م)، طالب القانون بجامعة كوبنهاجن يساعد طومسن في عمله بالمتحف، جاء فارسيه أصلاً من منطقة جتلاند، وهناك كان منذ صغره يجمع المخلفات الأثرية ويحفر القبور، وفي وقت لاحق خلف طومسن أميناً للمتحف القومي، ثم مفتشاً عاماً للآثار في الدنمارك وأستاذاً للآثار بجامعة كوبنهاجن.

---

(١) ظهر هذا الدليل تحت عنوان: **Ledetraad til Nordisk Oldkyndiged** (المترجم).

جاء خليفته في القرن العشرين يوهانس برونستد Johannes Bronsted ليطلق عليه محقاً لقب: «أول آثاري محترف» في عام ١٨٤٣م ـ وعندما كان في الثانية والعشرين من عمره ـ نشر كتابه **Danmarks Oldtid Oplyst ved Oldsager og Gravhoje** الذي ترجم إلى الإنجليزية في عام ١٨٤٩م تحت اسم **الآثار البدائية في الدنمارك Primeval Antiquities of Denmark**.

لقد كان الكتاب عملاً رائعاً، فقد خرج بنظام العصور الثلاثة من متحف كوبنهاجن لتطبيقه على المخلفات الأثرية في الحقل وبرهن بالتجربة الميدانية على التعاقب الطبقي لهذه العصور بعد إجراء حفريات في بعض القبور. خلال الأعوام ١٨٢٩-١٨٤٣م أخذ نظام العصور الثلاثة مكانه حقيقةً واقعةً مثلما أصبح ماقبل التاريخ حقيقة واقعة. إن الضباب والظلمة اللذين سادا في أيام كولت ونيرب قد أزيحا، وحل مكانهما نور ساطع مسلط على مخلفات ماقبل التاريخ، وقد كان ديشلت Dechellette محقاً حين أشار إلى نظام العصور الثلاثة في عام ١٩٠٨م على أنه: «أساس دراسة ماقبل التاريخ» أو كما سماه ماكالستر Macalister في عام ١٩٢٠م: «حجر الزاوية لعلم الآثار الحديث».

لقد استطاع فارسيه أن يبرهن في الحقل حقيقة نظام العصور الثلاثة، ثم جاء دليل عملي آخر من الحفريات التي أجريت على مستوطنات البحيرات السويسرية القديمة.

في أثناء شتاء جاف خلال الأعوام ١٨٥٣-١٨٥٥م كشف انخفاض في مستوى بحيرة زيورخ في أوبرمايلن عن بقايا أكوام خشبية وفؤوس حجرية وأدوات مصنوعة من قرون الحيوانات وفخار وأخشاب متفحمة. قام دكتور فيردناند كيلر Ferdinand Keller من زيورخ بفحص هذه المخلفات ونسبها لمستوطن قديم حول البحيرة. ومنذ سنوات خلت تحدثت تقارير لصائدي

الأسماك عن غابات مغمورة على مقـربة من سواحل البحيرات السويسرية، إلا أن علم الآثار لم يتوصل إلى حقيقة مسـتوطني البحيرات هؤلاء إلا بعد العمل الذي قام به كـيلر في بحيـرة زيورخ. فبعـد الاكتشـاف الذي تم في أوبرمايلن تلاحقت اكتـشافات قرى البحـيرات كتلك التي عرفت من مـورج على بحيرة جنيف وكـورتايو وأوفـيرنيـيـه وكونسـيـر وكورسلـيت على بحيـرة نويشـاتل وروبنهاوزن على بحيرة بفافيكن. في عام ١٨٦٣ قام الكولنيل شفاب Schwab بحصر ست وأربعين من هذه القرى على ضفاف بحيرة نويشاتل، وبحلول عام ١٨٧٥ أمكن حصر مئتي موقع في سويسـرا. وقد طبعت تقارير عن مكتشفات كيلر في البدء في شكل سلسلة مـذكرات في زيورخ ثم ترجمت إلى الإنجليزية في عام ١٨٦٦ تحت اسم **مستـوطنات البحيرات في سـويسرا وبعض مناطق أوربا** **The Lake Dwellings of Switzerland and Other Parts of Europe**. احتـوى هذا الكتـاب على أبحاث دكـتور روتماير Rutimeyer عن المخلفات الحـيوانية وكذلك أبحـاث هير Heer وRutimey عن المخلفات النبـاتية في هذه المواقع، وكانت هذه من أوائل المسوحات الأثرية. في ذلك الحين كـان يسود اعتقاد بأن هذه المستوطنات قد بنيت فوق مصاطب أنشئت داخل البحيرة، وتتصل باليابسة عبر ممرات كـما يلاحظ عند بحيـرة كونستانس، لقـد كان ذلك تفسيـراً خاطئاً والرأي السائد اليوم أن هذه المستوطنات قد أقيمت على شواطئ البحيرات.

اتضح بعد فترة وجيزة أن قرى البحـيرات في سويسرا لاتعود إلى فترة زمنية واحدة، فقد قام ترويون Troyon بتصنيفـها إلى مجمـوعات ثلاث تتوافق مع العصور الثلاثة، الحجري، والبرونزي، والحديدي[1].

(١) انتشـر هذا النوع من مستـوطنات البحيرات في أوربا خلال حقب ماقبل التـاريخ، ولعل موقع استار كار Star Carr (الألف الثامن ق.م.) المشهور في بريطانيا يقع ضمن هذه المستوطنات. (المترجم).

بانتشار نظام العصور الثلاثة الإسكندنافي إلى بقية الدول اتضح جلياً أن العصر الحجري في الدنمارك كما تعكسه مواقع المستنقعات وركام الأصداف والمقابر لايشكل سوى مرحلة متأخرة من العصر الحجري، وأن هناك مراحل مبكرة تمثلها تلك الأدوات من حجر الصوان التي عثر عليها جون فرير في هوكسن بإنجلترا، وبوشيه دوبرت في السوم بفرنسا، وماكينري وشميرلنج وبنغلي في حفرياتهم في كهوف بلجيكا وبريطانيا. واقترح رجال الآثار الفرنسيون التمييز بين عصرين حجريين: عصر الأدوات الحجرية المشحوذة وعصر الأدوات الحجرية المصقولة.

أما سير جون لوبك John Lubbock (١٨٣٤- ١٩١٣م)، الذي أصبح فيما بعد لورد افبري فقد نشر في عام ١٨٦٥ كتابه **أزمان ماقبل التاريخ Prehistoric Times** وأخذ بالتقسيم الفرنسي لكنه ابتدع عبارتي: «عصر حجري قديم» Pa-leolithic و:«عصر حجري حديث» Neolithic لهذين العصرين. وعرّف العصر الحجري القديم أنه: «تلك الفترة التي شارك فيها الإنسان الحياة مع الماموث ودب الكهوف ووحيد القرن ذي الشعر الكثيف وغيرها من حيوانات منقرضة»، أما العصر الحجري الحديث: «فهو الأحدث أو عصر الحجارة المصقولة، وهي حقبة تميزت بأدوات وأسلحة جميلة صنعت من الصوان وأنواع أخرى من الحجارة، ولا يوجد ما يدل على معرفة الإنسان خلال هذه الفترة بأي نوع من المعادن سوى الذهب الذي يبدو أنه قد استعمل في بعض الأحيان للزينة».

وهكذا أصبح نظام العصور الثلاثة الدنماركي يتكون من أربعة عصور: عصر حجري قديم، عصر حجري حديث، عصر برونزي، وعصر حديدي، وقد أصبح هذا هو القالب الذي تصب فيه جميع المكتشفات الأثرية خلال العقد السادس من القرن الماضي.

وسرعان مـا اتضح أن العصر الحجـري القديم نفسه يـحتاج إلى تقسـيمات فرعية: فهناك عصر حجري قديم أسـفل يتميز بتلك الفؤوس الحجرية التي عثر عليها في هوكـسن والسوم، ثم عصر حجري قديم أعلى تمـيزه تلك المعثورات التي وجدت في كهـوف الجنوب الفرنسي. إن اكتشاف إنسان العـصر الحجري القديم الأعلى سيظل دوماً مرتبطاً باسم إدوار لارتيه Edward Lartet (١٨٠١-١٨٧١) الذي عمل قاضـياً في مقاطعـة غير Gers ثم هجر القـانون إلى حقل الباليونتولوجيا. في عام ١٨٥٢م وضع أحد عمال الطرق من أورينياك Aurignac في أوت غارون Haute - Garonne يده في جـحر أرنب وأخـرج منه عظمـاً بشرياً، ثم قـاده الفضول إلى مـواصلة الحفر لينتـهي إلى ملجأ صخـري يسده حجر. وهناك كان يرقد سبعة عشر هيكلاً عظمياً بشرياً إلى جانب عظام بعض الحيوانات المنقرضة وأدوات مصنوعة من حجر الصوان والعاج إلى جانب بعض المنحوتات على العظام. وقد أعيد دفن تلك الهياكل البشـرية في مقبرة مسيحية قريبة من الموقع وبقـيت دون أن تثير الانتباه حتى علم لارتيـه بالأمر، وقد ظنّ في البدء أنها مقـبرة جماعية ترجع إلى العصر الحـجري الحديث، إلا أنه عدل عن رأيه وأعلن أنها تعود إلى ماقبل العصر الحجري الحديث.

في عام ١٨٦٠م قام لارتيه بالتنقيب في موقع آخر في البرنيز هو ماسات في ارييج، حيث عثر على مواقد للنار وبجانبها عظام الرنة وأدوات حجرية ورماح لصيد السمك ومخارز ورأس رمح منحوت عليه رسم لرأس دب، ونشر لارتيه هذا الاكتشـاف في عام ١٨٦١م إلى جانب نقشين لغـزالين على عظم رنة كان بروي قد عثر عليهما في كـهف شافو في الفِيَنّ مابين عامي ١٨٣٤ و١٨٤٥م، وظنّ بروي وآخرون أن المعثور يرجع إلى عـهد السلت، إلا أن لارتيه أعلن أن النقش أقدم من ذلك بكثير. إن تقديره لمغزى تلك المعثورات وتاريخها كان أول

إشارة واضحة لما نسميه فنون العصر الحجري القديم الأعلى في أسبانيا وفرنسا.

أثناء عمله في كهوف برنيز وصل إلى لارتيه صندوق يحوي أدوات حجرية وشظايا من العظام جمعت من كهف ليزايزي في وادي الدوردون، وقيل له: إن كهوف بريغور تزخر بمثل هذه المعثورات، مما جعل لارتيه ينتقل إلى ليزايزي حيث بدأ في عام ١٨٦٣م سلسلة حفريات في كهوف مثل جورج دنفير لوجيري أوت ولامادلين ولومستييه وجميعها أسماء لامعة في حقل الآثار اليوم.

قام رجل أعمال بريطاني يدعى هنري كرستي Henry Christy بمساعدة لارتيه بماله وبشخصه، وقد نشرت النتائج الأولى لأعمالهما المشتركة في عام ١٨٦٤م، وكانا يخططان لمشروع أكبر إلا أن وفاة كرستي في عام ١٨٦٥م ومن بعده لارتيه في عام ١٨٧١م قضت على تلك الفكرة، غير أن روبرت جونز Robert Johnes وجون إيفانز John Evans قاما بنشر الأعمال الكاملة لكرستي ولارتيه بين عامي ١٨٦٥ و١٨٧٥م تحت عنوان **المخلفات الأكواتانية: مساهمة في فهم آثار وباليونتولوجيا بريغور والمناطق المجاورة في جنوب فرنسا Reliquiae Aquitanicae: being contributions to the Archaeology and Palaeantology of Perigord and the adjoing provinces of Southen France** لقد كان هذا العمل علامة مميزة في مسيرة تطور علم آثار العصر الحجري القديم.

كان هناك آخرون يعملون في أجزاء أخرى من فرنسا في مجال آثار العصر الحجري القديم الأعلى، فقد كان الفيكونت دو لاستك ساجاك Vicomte de Lastic - Saint Jal وفيكتور برن Victor Brun يعملان في برينيكل، وكان غاريغو Garrigou ومارتا Martin يعملان في لورد، كما كان فري Ferry وارسلان Arcelin ينقبان في سلوتر. أما دوبون Dupont فقد كان ينقب في كهوف بلجيكا وقد نشر في عام ١٨٧٢ كتابه **عصور ماقبل التاريخ في بلجيكا:**

الإنسان خلال العصور الحجرية في مـاجاور دنيان - سير - ميز، **Les Temps ante-hist oriques en Belgique: L'Hmme pendant Les Age de la Pierre dans les Environs de Dinant-Sur-Meuse** كـذلك قـام البـريطانـي بويد دوكنز Boyd Dowkins بنشر استكشافـاته في بعض الكهوف في كتابه **البحث عن الكهوف: أبحاث في حياة سـكان أوربا القـدماء** **Cave-Hunting: Researches on the Evidence of Caves respecting the Early Inhabitants of Europe**. وفي كـتاب **المخلفات الأكواتانية** ذكر لارتيه عن مواقع لوموسـتيه ولوجيري أوت ولامادلين ما نصه: «على الرغـم من كونها تقع في إطار ذلك العصر الـذي تميز بصناعة الأدوات الحجرية البسيطة ولم يعرف استئناس الحيوان؛ إلا أنها لا تشكل وحدة صناعية أو تـقنية تبرز انسجامـاً في ما بينها». وهكذا كان لابد إذن مـن تقسيم العصـر الحجري القـديم الأعلى، وعليه اقتـرح لارتيه تقسيـمات تعتـمد على المخلفات الحيوانيـة المصاحبة لكل فترة مثل: ١- فتـرة دب الكهوف. ٢- فترة الماموث ووحيد القرن. ٣- فترة الرنة. ٤- فترة الجاموس الوحشي. أما غاريغو فقد جعل هذا التقسيم مسبوقاً بفـترة زمنية دافئة سابقة لاحتلال الكهوف سادت خلالها الأفيال وفرس البحر تشمل مواقع سنت أشول وأبيفيل حين كان الإنسان يقطن المواقع السـهلية. لقـد ارتكزت تقسيـمات لارتيـه وغاريغـو على أساس زيولوجي وباليونتـولوجي، بعدها اقتـرح لارتيه ثلاثة أقسـام للعصر الحـجري القـديم: أسـفل (فـرس البـحـر) وأوسط (دب الـكهـوف والمامـوث) وأعلى (الرنـة).

لقد طرحت هذه المقـترحات التقدمـية مبدأً جديداً تمامـاً يقوم على تصنيف المخلفات الأثرية اعتماداً على مادة غير أثرية، إلا أنه على امتداد النصف الثاني من القـرن التـاسع عشـر فـضّل الآثاريون تصنيف المخـلفات الحـضـارية التي

يدرسونها على أساس تلك المواد نفسها، حتى جاء غبرائيل دو موريتيه Gabriel de Mortillet ليضع تقسيمات لارتيه في قالب أثري: فأصبحت فترة لارتيه الأولى (عصر فرس البحر) هي الفترة الشيلية، وتحول جزء كبير من حقبة دب الكهوف والماموث ليصبح حضارة العصر الموستيري التي أخذت اسمها من كهف موستيه. أما الفترة التي تلت ذلك فتمثلها الحقب السلترية والأرغناسية والماجدلينية[1]. كان لارتيه يرى ضرورة تقسيم حقب الماضي على أساس المخلفات العظمية، والحق أن تلك الحقب هي من صنع جماعات بشرية كما هو الحال في الفترات التاريخية التي جاءت نتاجاً لأعمال الإغريق والأترسكان والرومان. أما نظام دو مورتييه الذي اعتمد في النهاية على دراسة الطبقات الجيولوجية وتطورها اللاحق فقد أصبح الصيغة المعتمدة لما يعرف: «بما قبل التاريخ» واستمر الأمر كذلك خلال القرن العشرين.

مصر ووادي الرافدين:

إن مجموعة المئة وسبعة وستين عالماً الملقبين تهكماً «بالحمير» ـ الذين اصطحبهم نابليون معه إلى مصر لتشكيل بعثة للدراسات العلمية والفنية ـ قد بدأت عملها بمجرد وصول نابليون إلى مصر في ٢١ يوليو ١٧٩٨م (ومن الجدير بالذكر أن نابليون كان قد أخذ معه إلى مصر نسخة من كتاب كارستين نيبور Carsten Niebuhr **رحلات في جزيرة العرب Travels in Arabia**). لقد أقيم المعهد الفرنسي المصري في أحد القصور في القاهرة، وخلال ثلاث سنوات استطاع أن ينجز أعمالاً كثيرة. وكان نشر كتاب **وصف مصر Description de L Égypte**

(١) تمثل هذه الحقب الأدوار الثقافية للعصر الحجري القديم الأعلى في فرنسا. (المترجم).

لجومار Jomard (١٧٧٧- ١٨٦٢م) بداية للدراسات الجادة في الآثار المصرية، حيث ظهر المجلد الأول من تلك السلسلة عام ١٨٠٩م، وقد تم نشر المجموعة في أربعة وعشرين مجلداً فخماً تزخر بالرسومات خلال الأعوام ١٨٠٩- ١٨١٣م.

كان من بين أعضاء هذه البعثة العملاقة دومنيك فيفان بارون دو دنون Dem-inique Vivant, Baron de Denon (١٧٤٧- ١٨٢٥م) الذي عمل مديراً للمتاحف في فرنسا خلال الفترة ١٨٠٤- ١٨١٥م. وكان قد رافق نابليون إلى النمسا وأسبانيا والبرتغال. وجاء في الطبعة الرابعة عشرة من دائرة المعارف البريطانية عنه: «كان مستشاراً للفاتح في اختيار الغنائم الغنية من مختلف المدن التي أخضعها»، لقد نشر وصف رحلاته إلى مصر في عام ١٨٠٢م في فرنسا، وفي وقت متأخر من السنة نفسها ظهر باللغة الانجليزية تحت عنوان أسفار في مصر العليا والسفلى أثناء غزوات جنرال بونابرت **Travels in Upper and Lower Egypt during the Campaign of General Bonaparte**

على أن حجر رشيد قد استولى عليه الإنجليز ونقلوه إلى لندن؛ إلا أن أحد جنرالات نابليون ـ وقد كان عالماً ـ استطاع أن يعد ترجمة للجزء المكتوب بالإغريقية في أسفل النقش. وكان في رأيه أن النقش قد كتب في عام ١٩٦ق.م بواسطة كهنة من ممفيس، وهو يحوي مدحاً للملك البطلمي أبيفانس لإحسانه الجم ويهب له التشريف الإلهي. أما الجزء الأعلى من المخطوط فقد كان مكتوباً بالهيروغليفي، وهو خط سبق أن لاحظه الرحالة في مصر إلا أنه لم يقرأ. وكان الجزء الأوسط مكتوباً بالديموطيقي وهو نوع من الخط تطور من الهيراطيقي وهي كتابة مختزلة لأحد أشكال الكتابة المصرية القديمة، وقد ثبت في وقت لاحق صحة افتراضه وهو أن هذا النقش يحوي لغات ثلاث، وأن

الخطين الديموطيقي والهيروغليفي يمكن قراءتهما بالاستعانة بالخط الثالث وهو الإغريقي.

وهكذا فقد جنّد الباحثون في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا أنفسهم لفك رموز هذا النقش مستعينين بنقوش أخرى كذلك الذي وُجِد على مسلة عُثِر عليها في عام ١٨٢٢م بجزيرة فيلة[1]. واستطاع الفرنسي سلفستر دوساسي Sylvestre de Sacy أن يقرأ عدة أسماء من النص الديموطيقي كان من بينها اسم بطليموس، إلا أنه اعتقد استحالة فك كل رموز النقش. وبمقارنة النص الديموطيقي بالنص الإغريقي تمكن السويدي ج.د. أكربلاد Akerblad من قراءة كل أسماء الأعلام وعدد من الكلمات الديموطيقية.

أما المحاولة الجادة الثانية في هذا المجال فقد قام بها الدكتور توماس ينج Thomas Young، وهو طبيب من كيمبردج اشتهر باكتشافاته في حقل البصريات وبنظريته في الموجات الضوئية، عمل دكتور توماس على قراءة النقش الديموطيقي ونشر نتائجه في معجم المفردات الديموطيقية وفي مقال في دائرة المعارف البريطانية.

إلا أن الفضل في فك رموز حجر رشيد بصفة نهائية يرجع إلى الفرنسي جان فرانسوا شامبليون Jean Francois Champollion (١٧٩٠- ١٨٣٢م). يحكى عنه في صباه - وكان ابن أحد عشر عاماً - أن عرض عليه عالم الرياضيات جوان - بابتست فورنييه Jean-Baptiste Fournier كتابات هيروغليفية على برديات وألواح، وسأله إن كان أحد يستطيع قراءتها، وحين

(١) فيلة، جزيرة صغيرة قرب أسوان عند الشلال الأول تضم عدداً من المعابد التي تؤرخ إلى الفترة من القرن الرابع ق.م. إلى القرن الأول الميلادي. (المترجم).

أجاب فـورنييه بالنفي قـال شامبليون: «أنـا سأقرؤها»، وكان له مـا أراد. كان شامبليون طفلاً عبقرياً، فقـد ألّف كتاباً وهو في الثانية عشرة من عمره، وحين بلغ الثالثة عشـرة كان في استطاعته أن يقرأ العربية والسـريانية والقبطية. ومنذ ذلك الحين جنّد نفسه لعلم المصريات، حيث بدأ العـمل في دراسة حجر رشيد في عام ١٨٠٨م وأمضى أربعة عشر عاماً وهو يفك رموز النقش. وفي سبتمبر من عام ١٨٢٢م اكتـشف ختماً فرعـونياً جاء من أبي سمـبل يحمل اسم أحد الملوك وقد استطاع أن يميز اسم الفرعون المصري رمسيس، واستنتج من ذلك أن الهيروغليفية كانت لغة تخاطـب. وهنا أسرع إلى أخيه صائحاً: «لقد وجدتها» وسقط مغشياً عليه. وسرعـان ما عاود عمله ليكمل رسالته المشهورة **رسالة إلى السيـد داسييه، الـسكرتير الدائم للأكاديميـة الملكية للكتابات والآداب، في مـوضوع أبجدية الرموز الهيروغليـفية الصوتية Lettre á M Dacier, Secretaire perpéluel L'Academic royale des Inscriptions et Belles- Lettres relafivea L'alpha- bet des hiérgolyphes phonetiques des hiéroglyphes phonétiques** التـي نشرت في ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢م، وفيها أتم فك الرموز الهيروغليفية. وبعد ذلك بعامين ظهر مجلده **مختـصر نظام الكتابة الهيروغليـفية Precis du Systéme hié- roglyphique** الذي أوضح فيه أن الهـيروغليفية خليط من رمـوز المعاني ورموز الأصوات.

تم تعيين شامبليون أميناً لمتحف اللوفـر، وبعد ذلك قاد بعثة أثرية إلى مصر في عام ١٨٢٨م بمعـاونة تلميذه نكـلو روسيليني Nicolo Rosellini وعاد إلى باريس في عام ١٨٢٩م إلا أن المنية عاجلته بعد ثلاثة أعوام، وبعد وفاته نشر له كتاب **قواعد اللغة المصرية القديمة Grammaire Egyptienne** والقاموس المصري **Dictionnaire Egyptinne**.

امتد المسح الذي قام به شامبليـون وروسيليني جنوباً حتى أسوان، وفي عام ١٨٤٠م أجرى رتشارد لبسيوس Richard Lepsius مسـحاً لمنطقة النوبة امـتد جنوباً حتى الخرطوم، كـما أجرى حفريات في ممفيس وأمـاكن أخرى واكتشف نقشاً آخـر شبيهـاً بحجر رشيد مـتمثلاً في مـرسوم كانوب[1]، كما عثر على نقوشٍ مصرية قديمة في سيناء تركها العاملون في مناجم النحاس هناك.

بدأ بعض المغمورين يشغلون أنفسهم بما يمكن تسميته مجازاً «حفريات»، إلا أنه كان في الواقع نهباً للقبور، وكان أشهر هؤلاء جيوفاني باتستا بلزوني Gio-vanni Battista Belzoni الذي لقب «بسـامـسون الـبتـغـوني»، ولد في بادوه وعاش في إنجلترا حـيث كان يتكسب من القيام بأعـمال جسمانيـة بهلوانية في السيرك، ثم سافر إلى مصر لتـسويق مضخات الري، وحين فشل في هذه اتجه بقدراته تلك إلى جمع التـحف ونهب القبور. بدأ بحثه عن الفـراعنة في طيبة في عام ١٨١٧م ووصف كـيف دخل أحد هذه المقابر شاقـاً طريقه وسط حطام الآثار قـائلاً: «في كل خطوة خطوتها كنت أحـطم جزءاً من مـوميا. . فـحين أدوس بثقلي على جـسد أحد المصريين كان يـتفتت من تحتي كصـندوق خشبي هش، لقد ابتلعتني الموميات المُهشّمة إلى جانب العظام والخرق والصناديق، ولـم يكن بوسعي تحـاشي الأمر فـقد كانت العظام تغطينـي في وقت كانت الأرجل والسواعد والجماجم تنهال عليَّ من أعلى».

---

(١) كانوب هي الميناء الرئيس في مصـر لتجارة الإغريق قبل الإسكندرية، وقد شهـدت تجمعاً للكهنة في عام ٢٣٧ق.م. (٢٣٩ق.م.)، أصـدر ما يعرف بمرسـوم كانوب الذي منح بطلميـوس الثالث لقب «المانح»، كتب المرسوم بالهيروغليفية والديموطيقـية والإغريقية، ويعد هذا المخطوط الثاني بعد حجر رشيد في فك رموز الهيروغليفية والديموطيقية. (المترجم).

لم يكن مدهشـاً أن يغمى على بلزوني مـراراً أثناء تلك الأعمـال الطائشة، وفي أحد المرات كـان مسحوراً إلى الحـد الذي جعله «يهيم في نشـوته». كان بلزوني يعمل لحساب القنصل العام البريطاني كما عمل لحسابه الخاص، ونتيجة لذلك وجد عدد هائل من المقتنيات طريقه للمتحف البريطاني.

قدّم بلزوني سجلاً لرحلاته تلك سماه **قصة العمليات والاكـتشافات الأخيرة في الأهرامات والمعابد والمقابر والحفريات في مصر والنوبة (١٨٢٣) Narrative of the Operations and recent discoveries Within the Pyramids, Temples, Tombs and excavations in Eygpt and Nubia** احتوى الكتاب على مداخلات رائعة مـثل: «المصاعب التي سـببـها السكان المحليـون... وجندي يطلق النار عليه... وإفزاع ضبع»، لقد كان بحق أحد الشخصيات الغريبة الفظيعة الممتلئة بالنشاط والحيوية في علم الآثار، وهي صفات لها مدلولها.

عند عودته إلى إنجلترا في يوم ١٨٢١م قام بلزوني بعرض مقتنياته في القاعة الملكية في بيـكادلّي، وهي قاعة للعـرض أنشأت في عام ١٨١٢م ذات واجـهة شيّـدت على الطراز المصري. لقي المعـرض إقبالاً هائلاً وبرهن على الاهـتمام المتزايد بالآثار، فقد زار المعرض في يوم افـتتاحه ١٩٠٠ شخص دفع كل منهم نصف كراون[١]. وقبيل الافتتاح استعان بلزوني ببعض الأطباء في إزالة الغطاء عن مومياء، ووصف بلزوني تلك المومياء في وقت لاحق بأنها كانت: «سليمة في كل جزء منها».

سئم بلزوني البحث فـي علم المصريات والإقامة في لندن فسـافر إلى غرب

(١) الكراون عملة نقدية بريطانية تعادل خمسة شلنات (٢٥ر. جنيه). (المترجم).

إفريقية في عام ١٨٢٢م لاكتشاف منابع النيجر وهناك وصل إلى بنين[١] حيث هاجمه مرض الدوسنتاريا الذي أودى بحياته.

بحلول منتصف القرن الماضي كانت معظم الآثار المصرية البارزة للعيان قد اكتشفت ووصفت بدءاً من كتاب **وصف مصر** حتى أعمال لبسيوس، كما أن الهيروغليفية والديموطيقية قد فكت رموزها. وأخذت بعض الكتب العامة التي تصف آثار مصر تظهر في الأسواق، مثل كتاب جون كنريك J Kenrick **مصر القديمة تحت الفراعنة** (١٨٥٠) **Ancient Egypt under the Pharoahs** وكتاب سير جون قاردنر ويلكنسون Sir John Gardner Wilkesnson **عادات وتقاليد المصريين القدماء** (٨٣٧ و١٨٤١) **Manners and Cusstoms of the Ancient Egyptians**. ومنذ ذلك الحين ظهر بعض الكتّاب الذين يزعمون أن مصر هي أقدم المدنيات وأنها الأصل الذي نبعت منه المدنيات اللاحقة، كتب كنريك: «ليس هناك صعوبة في تحديد البلد الذي بدأ منه التاريخ القديم»، وقال أيضاً: «إن آثار مصر ونقوشها وآدابها تسبق رصيفاتها في الهند والصين بعدة قرون».

بدأ اهتمام أوغستي ماريت Auquste Mariette (١٨٢١-١٨٨١) بالآثار في شبابه الباكر، حيث شب في بولون، ثم عمل بالتدريس فيها. وفي عام ١٨٤٩م حصل على وظيفة متواضعة في متحف اللوفر، وفي العام التالي أرسل إلى مصر ليجمع المخطوطات القبطية، إلا أنه أصبح مولعاً بالآثار الشاخصة أكثر من جمع الوثائق، وبدأ يجري بعض الحفريات. لم يعد ماريت إلى وظيفته السابقة في اللوفر بل بقي في مصر، وفي عام ١٨٥٨ عينه الخديوي محافظاً

(١) بنين هو الاسم الحالي لما كان يعرف بداهومي، وهي قطر في غرب إفريقية يقع بين نيجيريا وتوجو، وقد جاء الاسم من اسم مملكة إفريقية قديمة قامت في تلك المنطقة. (المترجم).

على الآثار المصرية الشيء الذي جعل منه مسئولاً عن هيئة الآثار المصرية حديثة النشأة، وتلك هي الوظيفة التي ظل يشغلها حتى وفاته، وكان ـ كما لقب بحق ـ المؤسس لعلم الآثار المصرية.

على امتـداد الفترة التي قـضاها مسـؤولاً عن الآثار قام بحفـر ما يزيد على ثلاثين موقعاً مهماً، كان من بينها سيـرابيوم ممفيس ومعبد أوزير ـ أبيس ومقبرة الثيران المقدسة الملحـقة به، ومعبد أبي الهول في الجيزة ومـدافن سقارة ومعابد أبيدوس، ومدينة هابو والدير البحري وأدفو، وقد تعرضت طريقته في التنقيب مراراً للنقد حيث وصف بيتري كيف أن ماريت استخدم الديناميت في حفرياته على مقـربة من أبي الهول ليـزيح حطام المعبد المتـراكم. وذكر بيتـري في عام ١٨٨٣م أنه: «لم ينجـز أي شيء بخطة مـوحدة»، بدأ العـمل وتركه قـبل أن يكتمل، ولم يعط أي اعتبار لما تتطلبه الحفريات مسـتقبلاً، كما لم يستعمل أي أدوات حديثة تختصر الجـهد، إنه لشيء مؤسف أن نرى الدرجة التي حطم بها كل شيء والقليل الذي بذل للمحافظة عليها».

والحق أن ماريت قد صبّ اهتمامه على البحث عن تحف ثمينة وآثار جذابة، ولم ينشـر نتائج أعـماله بطريقـة وافيـة (بل إن بعض حـفرياته لم تنشـر على الإطلاق). لقـد كان سـعيـداً بتكديس كـميـة هائلة من المواد دون أن يسـجّل تفاصيل أمـاكن العثور عليهـا أو دراسة أهميتـها التاريخيـة. إلا أن ماريت قد أدخل أسلوباً جـديداً في العـمل الآثاري الميدانـي حتى وإن كـان لا يرقى إلى مستوى حفـريات بيتري قياساً بما كان عليه الحال في نهـاية القرن التاسع عشر. كان يصر عـلى أنه الوحيد الذي يملك حق العمل في مـصر وأوقف ذلك النوع من التكالب على الآثار الذي كان يحـدث في وادي الرافدين في ذلك الوقت. كذلك خلّص مصر من ناهبي القبور وجـامعي التحف من الجواسيس المتنكرين

في أزياء علماء الآثار. لقد انتهى عصر بلزوني، ولأول مرة استطاعت مصر السيطرة على التنقيب والبحث الآثاري.

لقد بذل ماريت جهداً خارقاً لمنع تسرب الآثار المصرية لخارج القطر، وكانت رغبته أن تبقى مخلفات مصر القديمة في مكانها في مصر الحديثة، وأن تحفظ الآثار المنقولة في مصر كذلك، ولهذا فقد أنشأ المتحف القومي للآثار المصرية. إن قيام هيئة الآثار المصرية وتعيين ماريت مديراً لها وإنشاء المتحف لم تكن نتيجة لرغبة معرفية عند الخديوي سعيد باشا بل على النقيض من ذلك، فالآثار لم تشغل بال الخديوي على الإطلاق، وإنّما جاءت نتيجة لمكايد وملاحقات دوليسبس الذي كان مشرفاً على حفر قناة السويس في ذلك الوقت، وكذلك لرغبات نابليون الثالث.

يقول ماسبيرو Maspero في هذا الخصوص: «إن سعيداً قد وافق على مضض، لأنه سيكون أكثر قبولاً عند الإمبراطور إن أظهر بعض الميول تجاه هؤلاء الفراعنة». وكانت مهمة ماريت شاقة في تحويل هذا التعاطف إلى اهتمام حقيقي ودعم مادي، إذ لم يستطع في الماضي تأمين مصادر تمويل منتظمة أو دائمة من قبل الحكومة، وكان عليه دوماً أن يطلب دعماً متقطعاً، مما كان عرضة للموافقة أو الرفض حسب الحالة النفسية للخديوي، لقد توقفت بعض حفرياته لتوقف الدعم بطريقة فجائية.

لكي يجد مكاناً لحفظ مجموعته من الآثار المصرية فقد أُعطي ماريت في البداية مسجداً خرباً مهجوراً، وكذلك بعض السقائف القذرة ومنزلاً ممتلئاً بالحشرات ليعيش فيه، وبعزم أكيد حوّل هذه إلى أول متحف مصري. لقد كان لجواهر الملكة اعح حوتب الفضل في تحريك مشاعر الخديوي. ففي عام ١٨٥٩ وجد عمال ماريت تابوتاً رائعاً يخص الملكة اعح حوتب بالقرب من طيبة،

وقبل أن يتـمكن ماريت من إيصــاله إلى القاهرة استـولى عليه مــدير قنا وقام بفتحه في منزله، ثم اسـتقل مركباً حاملاً المجوهرات لتـقديمها للخديوي هدية منه! قام مــاريت بمطاردته بقارب بخاري واستطاع اللحــاق به ونزع المجوهرات بعد مشاجرة بالأيدي بينهما. عد الخـديوي أن هذه لاتعدو كونها مهزلة، فقدم سلسالاً ذهبياً لإحـدى زوجاته واحتفظ لنفسه بجعران وأمــر بإعادة ماتبقى إلى متحف يشيد لهــذا الغرض. وفي عام ١٨٥٩م تم إنشاء هذا المتحف في بولاق وكان على ماريت حـماية هذا المتحف، إذ أخذ يمتلىء العــام تلو العام بالكنوز التي تدفع بهــا الحفريات الجـديدة. لقد أبدى الخديوي مــراراً رغبـته في إهداء بعض هذه القطع لأصدقائه، وفي إحدى المرات طرح فكرة رهن المتحف بكامله ضماناً لقرض كان يفاوض عليه.

إلا أن المتحف أخــذ ينمو ويزدهر، ونقل من بولاق إلى قــصر مهـجور في الجيزة فــي عام ١٨٨٩م، وفي عام ١٩٠٢م نقل إلى مكانه الحالي بقــصر النيل في القاهرة. ومهما وجه لماريت من انتقادات لاحقه، إلا أنه عند وفاته كان قد حقق ثلاثة إنجازات باهرة: إنشاء أول هيئة للآثار في الشرق الأدنى، وقيام أول متحف قومي في الشرق الأدنى، وبث الوعي بخطورة تصدير الآثار إلى خارج منطقة الشرق الأدنى.

بدأ العمل الآثاري في وادي الرافدين في الوقت نفسه الذي بدأ فيه في مصر تقريبـاً. بدأت الأعمال الميـدانية مع كلوديس جـيمس رتش (١٧٨٦- ١٨٢١) Claudius James Rich وهو عالم لغــات بارع التحق بشـركة الهند الشرقـية. وفي سن مبكـرة وهو في الحادية والعشـرين عين في منصب الممثل الـبريطاني المقيم في المناطق العـربية الخاضــعة لتركيــا، واتخذ من بغداد مقــراً له في عام ١٨٠٨م. وكان يمضي أوقات فراغــه في زيارة المواقع القديمة في وادي الرافدين

وبجمع التحف والمخطوطات. وكان زيارته الأولى لبابل في عام ١٨١١م حيث أجرى مسحاً مكثفاً واختباراً للموقع، ونشر في عام ١٨١٢ **مذكرات عن خرائب بابل Memoir on the Ruins of Babylon** ثم ألحقه بـ **مذكرات ثانية عن خرائب بابل Socond Memoir on the Ruins of Babylon** في عـــام ١٨١٨م. وخلّد لورد بايرون هذه المذكرات في دون جوان Don Juan حيث يقـول: «كلوديس رتش، المحترم، وجد بعض مباني الطوب وكتب عنها لاحقاً مذكرتين».

إلا أن رتش قد مات مـأسوفاً عليه في عام ١٨٢١م بمـرض الكوليرا، وظهر وصف بعد موته يحوي أسفاره الأخيرة تحت اسم: **قصة مقيم في كردستان وفي موقع نينوى القـديم، مع سجل لرحلة على نهر دجلة حـتى بغداد ووصف عن زيارة لشيـراز وبيرسـبولس Narrative of Residence in Koordistan and on the Site of Ancient Nineveh, with Journal of a Voyage down the Tigris to Baghdad and an account of a Visit to Shiraz and Persepolis.**

كان بول أميل بوتّا Paul Emilè Botta هو القنصل الفرنسي في الموصل في عام ١٨٤٢. وقد عين في هذه الوظيفة نتيجة للاهتمام المتزايد الذي يلقاه وادي الرافدين وآثاره عند العلماء الفرنسيين، وقد عززته **مذكرات** رتش وقصته. قام بوتا في عام ١٨٤٢م بحـفريات في نينوى التي تقع قـبالة الموصل على الضـفة الأخرى لنهر دجلة، وكذلك في خورسبارد[1] في عام ١٨٤٣. كانت هذه أول حفـريات في وادي الرافدين، وعندما كـان يقوم بالتنقيـب في نينوى سمع عن حجارة منحوته في خورسباد التي تقع على بعـد أربعة عشر ميلاً إلى الشمال،

(١) خورسباد، وتُكتب أحياناً خورزباد، مدينة قـديمة قرب الموصل، تحوى قصراً بناه سارجون الثاني في حوالي ٧١٧ ق.م. (المترجم).

فحول اهتمامه إليها.

في خلال أسبوع عـثر على بقايا قصر آشوري هائل يحـوي حجارة منحوتة ونقوشاً مسمارية، لقد حدّد رتش ـ وكان محـقاً كما تأكد فيما بعد ـ أن التلال التي تظهر عبـر النهر من الموصل هي بقايا مدينة نينوى. واعـتقد بوتا أن رتش كان مخطئاً في ذلك وظنّ أن خورسباد هي نينوى، وحين اتضح له الأمر أرسل برقية من مكان حـفرياته في خورسباد إلـى باريس يقول فيها: «لقـد عُثر على نينوى». ولكننا نعلم الآن أن خـورسباد هي في الحـقيقـة دُرشارُوكن[1] مدينة الملك الآشوري سارجون الثاني (٧٢١- ٧٠٥ق.م) والمكان الذي كان ينقب فيه بوتا هو قصر الملك. أثارت اكـتشافات بوتا اهتمام الفرنـسيين وأعدت الحكومة دعماً مـالياً بعد أن كـان يدعم الحفريات بنفســه. وأرسل فنان قدير هو م.ي. فلاندن ME Flandin لتسجـيل المعثورات والمنحوتات، ولدى عودتهمـا لفرنسا نشر بوتّا وفلاندا اكتشافات خورسباد في خمس مجلدات ضخمة تحت اسم آثار نينوى **Monument du Ninive** ظهـــرت في باريس خــلال الأعـوام ١٨٤٩-١٨٥٠م. حوى المجلد الأول وصفاً للمعثورات، أما المجلدات الأربعة الأخرى فقـد شملت الرسومـات التي أعدها فلاندن. وفي عـام ١٨٤٦ أرسلت معظم القطع المنحـوتة من خورسبـاد إلى باريس حيث بقيت حـتى اليوم في مـتحف اللوفر.

في هذه الأثناء كـان أوستن هنري ليـارد (١٨١٧- ١٨٩٤) Austin Henry Layard يجـري حفـريات في نمرود[2]. في البـدء وخلال الأعـوام ١٨٤٥-

(١) أي دار سارجون. (المترجم).

(٢) نمرود مـوقع أثرى آشوري قـرب الموصل، أنشـاها شلمنصر الأول (١٢٧٤- ١٢٤٥ق.م.) ثم اعـاد بناءها آشور بنيبال (٨٨٣- ٨٥٩ ق. م.)، ويحوي الموقع زقورة ومعابد وقصوراً. (المترجم).

١٨٤٧م كان يقوم بتمويل حفرياته بنفسه إلى جانب دعم مالي تلقاه من سير استراتفورد كننج الذي كان يعمل سفيراً لبريطانيا لدى «الباب العالي». ثم تولى المتحف البريطاني بعد ذلك تمويل الحفريات. لم تقتصر حفرياته على نمرود وحدها بل شملت مواقع كيونجيك[١] وآشور[٢]. وفي نمرود اكتشف قصور الملوك الآشوريين آشور ناصربال وأسارحدون وشلمنصر الثالث. وقد أرسلت معظم المعثورات إلى المتحف البريطاني حيث وصلته بعد مخاطر عديدة في عام ١٨٤٨م، وذلك بعد أن بقيت لفترة في رصيف ميناء بومبي حيث تم عرضها وألقيت محاضرة عنها، كانت الكنوز تحوي الثيران المجنحة والمسلة السوداء الخاصة بشلمنصر الثالث وتماثيل لآشور ناصربال، وهي الآن من أكبر ممتلكات المتحف البريطاني قيمةً.

اكتسبت أعمال ليارد شهرة واسعة، ففي عام ١٨٤٧م نشرت صحيفة المورننغ بوست رسائل أخبارية لمراسلها الذي زار حفريات نمرود، ظن ليارد أن نمرود هي نينوى تماماً كما كان بوتّا يظن أن خورسباد هي نينوى. عرض المتحف البريطاني مبلغ أربعة آلاف جنيه إسترليني لنشر المادة الأثرية التي جاء بها ليارد بشكل مماثل للمجلدات الخمسة التي نشرها بوتّا وفلاندن، إلا أن وزارة الخزانة البريطانية لم توافق على تخصيص المبلغ، وظهر مجلد يحوي رسومات باسم آثار نينوى **The Monuments of Nineveh** طبع على النفقة الخاصة في عام ١٨٤٩م، وكذلك كتاب شعبي آخر باسم نينوى ومخلفاتها **Nineveh and its Remains, 1848-49** طبع بين عامي ١٨٤٨-١٨٤٩ . هذا الكتاب الأخير أصبح

(١) كيونجيك تل في نينوى. (المترجم).

(٢) آشور هي العاصمة الدينية للآشوريين وتقع على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب من الموصل. (المترجم).

فور صدوره واحـداً من أنجح الكتب وأكثرها رواجاً، إذ بيـعت منه ثمانية آلاف نسخـة في عام واحد، وقـال عنه ليارد بفخـر له مايبرره: «إنـه يقف جنباً إلى جنب مع كتاب السيدة رندال عن فن الطبخ». بعد ذلك بعام أو اثنين بدأ جون مري John Murray الذي أشرف عـلى إصدار تلك الكتب، بنشـر سلسلة من الكتب يقـرأها المسافـرون في القطارات، وكانت تبـاع في أكشـاك الكتب التي أقامهـا و. هـ. اسمث في محطات القطارات، وكان من بين الكتـب الستة التي نشرت عند بدء السلسلة كتاب **تقرير مبسط عن اكتشافات نينوى A Popular Account of Discovres at Nineveh**

وجد ليارد نفسه محـاطاً بالشهرة؛ فقد منحته جامعة أكـسفورد درجة الدكتوراة الفخرية في عـام ١٨٤٨م في عمر لم يتجاوز الحادية والثـلاثين. بعدها قام برحلة ثانية إلى وادي الرافدين في عام ١٨٤٩-١٨٥٠ بتمويل من المتحف البريطاني وقام بحفريات في الموقع الحقيقي لنينوى هذه المرة كما حفر في نمرود وآشور وبابل. أما اكتشافـاته الرئيسة فقد كانت في قـصر سنحريب في كيونجيك الـذي حوى مكتبة ضخمة من الألواح المسـمارية. ولابد من القول: إن مقياس ليـارد لنجاح حفرياته كان هو العثور على قطع فنية وتحف يسهل حملهـا، لقد أصيب بخيبة أمل لقلة ما عثـر عليه في آشور وبابل لذلك أخذ يـركز على القصور الآشـورية، وعند عودته إلى إنجلترا وجد أن شهرته قد طغت وقد كرمته مدينة لندن كما منح لقب «سير»، وفي عام ١٨٥٣م نشر **المجموعـة الثانية من آثار نينوى A Second Series of Monuments of Nineveh**، وكذلك كـتاباً للعـامة باسم **اكتـشافات في خـرائب نينوى وبابل Discoveries in Ruins of Nineveh and Babylon**.

ضمن كتاب صدر عام ١٩٧٨م باسم **البحث عن الماضي Ouest for the Past** انتقد براين فيغان بشراسة منهج ليارد واصفاً كيف أن ليارد في كيونجيك قد قام

خلال فترة وجيزة بكشف ميلين من الممرات المنقوشة وأفرغ سبعين حجرة في قصر سنحريب من محتوياتها. ومضى فيغان يقول: «إن ليارد قد شق طريقه بالمجرفة إلى عمق الماضي... لقد مزق نمرود ونينوى إلى أشلاء وفي أثناء ذلك أضاع معلومات أثرية لا تقدر بثمن».

قام رووي Rouet الذي خلف بوتّا قنصلاً لفرنسا في الموصل بإرسال أعوانه إلى الريف لاختبار بعض التلال بطريقة عشوائية لتثبيت حق فرنسا فيها وبالتالي منع البريطانيين بقيادة ليارد من إجراء حفريات فيها. نتيجة لذلك اضطر ليارد لفعل الشيء نفسه، ومرت فترة غريبة حتى بمفهوم ما كان يجري في القرن التاسع عشر، فقد قام الفرنسيون الذين لايعترفون بحق ليارد في العمل الأثري بإجراء حفريات جانبية في الوقت نفسه في التلال التي كان ليارد يجري حفرياته فيها.

على أن أعمال ليارد في وادي الرافدين لم تتعد خمسة الأعوام إلا بقليل، فقد ترك العمل الآثاري في عام ١٨٥١م وخلفه مساعده هرمز راسام Hor-muzd Rassam وهو بريطاني من أصل موصلي، انخرط راسام من غير حياء في ما وصفه سيتون لويد بأنه كان ذا: «ولع غير كريم بنهب الآثار»، ومن مقره في الموصل استطاع راسام أن يختبر تلالاً أثرية في مساحة تقدر بمئتي ميل تاركاً عماله يحاولون جاهدين العثور على بعض الكنوز قبل أن يحصل خصومه على الحق في حفرها، ولم يؤاخذه ضميره لحظة وهو يحفر تلال سبق وأن خصصت لغيره. إن اكتشافه لمكتبة آشور بانيبال في تل كيونجيك في نينوى كان عملاً من أعمال القرصنة المخجلة. لقد قسمت كيونجيك بموافقة الإنجليز على قسمين: منطقة شمالية للفرنسيين وأخرى جنوبية للإنجليز. خلف فكتور بلاس Victor Place بوتّا في عام ١٨٥١م ليدير الحفريات الفرنسية، واستأنف العمل في

خورسبـاد حيث كشف عن أساســات قصر سارجـون. وفي عام ١٨٥٣م كان عمال بلاس يحفرون في الجزء الشمالي من كيونجيك بينما كان راسام يحفر في المنطقة الجنوبية. اشتاط راسام حنقـاً حينما لاحظ أن عمال بلاس وهم يعملون في القطاع المخصص لهم في المدينة يقتربون من ما ظنه أكثر أجزاء المدينة إثارة. وغامر راسام كـما جاء على لسانه: «بدخول المياه الدافـئة مع م.بلاس». فقام بالحفـر في القطاع الفرنسي من التل لـيلاً حتى عـثر على قصـر آشور بانيـبال والمكتبة الخاصـة به وقاعة صيد الأسود المشهورة. وصف راسـام هذه المسرحية بأنها: «استخدام للإستراتيجية» زاعماً ـ إن كنا سنُصدّقه ـ أن بلاس قد قبل هذا السلوك دون اعتراض، بل وهنأه على حسن حظه.

واصـل وليـام كنـيـت لفـتس William Kennet Loftus عـمل راســام في نينوى، كان لفـتس يعمل في جنوب وادي الرافدين حيث زار عـدداً من التلال التي قال عنها: «لقد درجنا منذ صبانا على عدها مهد الجنس البشري». قام في بداية العقد السادس من القرن الماضي بالتنقيب في الوركاء، موقع أرخ (آرش)، التي جاء ذكرها في العهد القديم ومـقر البطل السومري الأسطوري جلجامش، حيث عـثر على فسيـفساء ملونة وأشكال مخـروطة من الطين المحروق وألواح مسمارية.

قام ج.ي. تايلر J Taylor الذي كان يعمل نائباً للقنصل البريطاني في البصرة بحفـريات خلال الفترة ١٨٥٤/ ١٨٥٥م في تـل مخير، وهو تل يحـوي إحدى زقورات أور مدينة الكلدانيين، كما حـفر في تل أبو شهرين (أَرِدُو القديمة). هذه الحفريات التي قام بها لفتس وتايلر، على الرغم من الأهمية التي اكتسبتها لاحقا في كشفها لمبـانٍ سومرية؛ إلا أنها لم تثر اهتماما يذكـر في وقتها: فهي لم تأت بمثل تلك المعثورات الرائعة كالتي جاءت من حفريات آشور.

قام الفـرنسيون إضافـة إلى إرسال بلاس ليخلف بوتا بتـدبير تمويل «لبعـثة علمية وفنية لوادي الرافدين وماريا». لقـد ضمت البعثة فرسن Fresnes وأوبير Oppert وفيلكـس توما Fetix Thomes من الذين عـملوا في عدة مواقـع مثل كـيش وبابل فـي جنوب وادي الرافـدين. وفي عـام ١٨٥٥م كـانت المراكب والقوارب التي تحمل معثورات البعثة الفرنسية إلى جانب مئتين وأربعين صندوقاً من المواد الأثرية من خورسبـاد ومن قصر آشوربانيبـال بنينوى تبحر جنوباً حين تعرضت لغـدر مبيَّت حـيث هاجمتـها عصابات من قـطاع الطرق بالقرب من القرنة في رأس شط العرب.

لقد كانت كارثة القرنة خسارة فـادحة لعلم الآثار وخاصة للمتاحف الأوربية التي كانت تنتظر وصول المادة الآشورية لعرضها في قاعاتها، ومع ذلك فإن آثار بلاد الرافديـن كانت ممثلة بصورة جـيدة ضـمن المجموعـات الأثرية في أوربا. فحين طلب خليفة بلاس من السلطات الفـرنسية المزيد من الدعم المادي لإجراء حفريات أخـرى، جاءته الإجابة: «لا... إن التنقيبات قـد انتهت، ولقد أنفق أكثر من اللازم»، كذلك فإن المتـحف البريطاني قد امتلأ بالمواد الأثرية من بلاد وادي الرافدين مما دفعـهم لتخصيص حـجرة إضافية للآثار الآشـورية في قصر كريستـال. وفي عام ١٨٥٥م أدى اندلاع حرب القرم إلى توقـف الحفريات في وادي الرافدين وسادت فترة ركود استمرت لما يقارب عشرين عاماً[١].

في هذه الأثناء فكت رموز الخط المسماري، وفي نهاية القرن كان عالم ألماني يدعى ج.ف. غروتفند G. F. Grotefend يدرس النسخ التي أعدها نيبور لنقش

(١) حرب القرم، حـرب خاضتهـا تركيا وبريطانيا وفـرنسا وسردينيا في مـواجهة روسيـا خلال الأعوام ١٨٥٣-١٨٥٦ حين حاولت روسيا بسط نفوذها في البلقان، وقد انتهت باتفاقية باريس. (المترجم).

بيرسـبولس المكتـوب بلغات ثلاث، وبحلول عـام ١٨٠٢م كان قـد فك رموز ثلاثة من الأسماء الملكيـة المكتوبة باللغة الفارسية القـديمة، وهي أسهل اللغات الثـلاث، وفي وقت لاحق استطاع أن يفك ثلث الرمـوز المستـخدمـة في تلك اللغة. إلا أن غروتفند لم يكن مـستشرقاً، ولذا فإنه لم يسـتطع أن يمضي قدماً في أبحاثه تلك. وقـدم أطروحة تضم أبحـاثه إلى أكاديمية غـوتنغن إلا أنها لم تقبل للنشـر، ولم تنشر في الحـقيقة إلا في عـام ١٨٩٣م لأهميتـها التاريخـية فقط. إن هنري كرسويك رولنسون Henry Creswicke Rawlinson (١٨١٠-١٨٩٥م) يوصف دائماً على أنه الرجل الذي كان وراء فك الرموز المسمارية إلا أنه لم يكن على علم بما قام به غروتفند، لقد كانت لديه معرفة واسعة باللغات الشرقية الشيء الذي كان يفتقده غروتفند.

لقد عمل رولنسـون في البدء على دراسة نقش من النقـوش المكتوبة بثلاث لغات وجد بالقرب من همدان وبعدها على النقش المشهور المكتوب بثلاثة لغات أيضاً الـذي نقش عام ٥١٦ ق.م. بتـوجيه مـن داريوس هستـاسبس (٥٢١-٤٨٥ق.م.)[١] على جبل بهـستان أو بستين بالقرب من كـرمنشاه. ترتفع هذه النقوش ٤٠٠ قدم عن سطح الأرض على واجهة كـتلة صخرية يصل ارتفاعها إلى ١٧٠٠ قـدم (٥١٨ مـتراً) عن السـهل المحـيط بهـا. بدأ رولنسـون بنسخ النقوش الفـارسية القـديمة والعيـلامية في عـام ١٨٣٥. ثم عاد إليهـا في عام ١٨٤٤ حين كان الاقتراب من تلك النقوش أمراً بالغ الصعوبة. أخيراً وفي عام ١٨٤٧ وبمساعدة أحد أكثـر الشخصيات غير المعروفـة إثارة «صبي كردي قروي قادم من بعيد» قام بعمل بطولي فذ، تعلق هذا الصبي بصخرة في واجهة الجبل

(١) داريوس هستاسبس هو دارا الأول الأمبراطور الفارسي. (المترجم).

مستعملاً أصابع يديه ورجليه، وتأرجح بالحبال عبر الفجوات ناسخاً تلك النقوش على الورق من على كبسول معلق يتأرجح به، وبذلك أمكن تسجيل النقش البابلي.

بنهاية عام ١٨٣٧م كان رولنسون قد فرغ من ترجمة فقرتين من النقش الفارسي القديم المكتوب بالخط المسماري، وفي عام ١٨٤٦م أصدر مجلدين، **نقوش بهستان المسمارية الفارسية The Persian Cuneiform Inscription of Behistun** يحويان الترجمة الكاملة. وفي العام نفسه أصدر دكتور إدوارد هنكس Edward Hincks ترجمة منفصلة للنقش. بعد ذلك عكف كل من رولنسون وهنكس وأوبيرت وفوكس تالبوت وآخرون على دراسة النقش البابلي وبعد فترة وجيزة أمكن ترجمته ومن ثم توفر مفتاح اللغتين البابلية والآشورية. وفي عام ١٨٥٧م ترجم رولنسون للمتحف البريطاني نقشاً أسطوانياً يخص تقلات بلسر الأول[(١)]. وقبل النشر طُلب من هنكس وفوكس تالبوت وأوبيرت أن يقوموا بترجمات منفصلة للنص، وأرسلت هذه في رسائل مغلقة إلى رئيس الجمعية الملكية الآسيوية حيث تم فحصها بواسطة لجنة أقرت أن التراجم متشابهة للحد الذي لم يعد هناك شك في أن الرموز المسمارية قد فكت.

هذا العمل هو الذي مكّن رولنسون من تحديد هوية التلال الواقعة عبر النهر من الموصل بأنها نينوى وبأن سنكارا هي مدينة لارسا القديمة، وتل مخيّر هو مدينة أور الكلدانية، وتل أبو شهرين هو أريدو التي وردت في العهد القديم. لقد وجد رولنسون أن شهرته تضارع شهرة ليارد ومنحته جامعة أكسفورد درجة الدكتوراة الفخرية كما منح لقب «سير» في عام ١٨٥٦م.

(١) تقلات بلسر الأول (١١١٥-١٠٧٧ق.م.) أحد الملوك الآشوريين وقد أشتهر بفتوحاته في الشام. (المترجم).

بلاد الإغريق والرومان: بداية علم الآثار الكلاسيكية:

لم يتردد الرحـالة من فرنسا وألمانيا وبريطانيـا خلال القرن الثامن عـشر من حمل التحف المنقولة من إيطاليا وبلاد الإغريق والشرق الأدنى إلى المتاحف في شمال أوربا وغربهـا. كانت حجتهم أن السكان المحليين ليسـوا جديرين باقتناء هذه التحف، كما أنهم لا يملكون مقدرة المحـافظة على الأعمال الفنية القديمة. يقول روبرت وود Robert Wood في كتابه خرائب بـالميرا (١٧٥٣) **Ruins of palmyra**: «كنا ننسخ النقـوش التي تقع في أيدينا، ونحـمل القطع الرخامـية كلما كان ذلك ممكـناً، إلا أن جشع السكان المحليين وخرافاتهم جـعلت المهمة صعبة وأحياناً غير ممكنة».

في عام ١٧٩٩م بُعث لورد إلجين Lord Elgin (١٧٦٦- ١٨٤١) وهو لورد ودبلوماسي أسكتلندي، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، سفيراً لبريطانيا في القسطنطينية. وقد طلب منه صـديقه المهندس توماس هرسون Thomas Harri-son أن يعد له نماذج جصية لبعض التـماثيل الإغريقية، تبنى إلجين هذه الفكرة وقام بإعداد رسومـات وصنع نماذج جصية لأكبر عـدد ممكن من تلك التماثيل. وحين زار الأكروبول في أثيـنا تبين له أن التماثيل فـيه مـعرضة بصـورة دائمة لمخاطر الهدم والإهمال العام. وقد تلقى بعد ذلك الموافقة بنقل بعض واجهات مبنى البارثنون. عمل حوالي ثلاثمئـة إلى أربعمئة عامل لمدة عام كامل في نزع المنحوتات الفنية من البارثنون. تسبب هذا العمل في الكثير من التخريب، كما قـيل: «Quod non fecerunt Gothi, Fecerunt Scoial» وتم اسـتدعـاء لورد إلجين في عام ١٨٠٣م وشحنت مـجموعته في مشـتي صندوق ملأت عدداً من السفن أبحرت بهـا إلى إنجلترا. وتحطمت منها السفينة «منتـور» على مقربة من كاب ماليـا، وقد استغرق انتشال تـلك المخلفات ثلاث سنوات من عمل بعض

الغطاسين المهرة، ولم ترسل إلى بريطانيا إلا في عام ١٨١٢م. وفي عام ١٨١٦م وبعد محاورات تم شراء تلك المعثورات من إلجين لمصلحة الدولة بمبلغ ٣٥٠٠٠ جنيه إسترليني وتم عرضها في المتحف البريطاني. دار حينذاك ـ ومازال يدور ـ جدل طويل عن إن كان من اللياقة نقل تلك القطع الرخامية إلى بريطانيا وإمكانية إعادتها إلى بلاد الإغريق. مما لاشك فيه أن هذه الآثار قد بقيت في المتحف البريطاني محاطة برعاية واهتمام بالغين، وكان من الممكن أن يلحق بها الكثير من الضرر لو بقيت في موطنها الأصلي.

قام أدوارد دانيال كلارك (١٧٦٩- ١٨٢٢) Edward D Clarke أحد أعضاء مجلس جامعة كيمبردج وأول أستاذ لعلم المعادن بها، الذي أصبح فيما بعد أميناً لمكتبة الجامعة بأسفار مكثفة في بلاد الإغريق. واكتشف قبر يوكليد في أثينا (لم يكن الأخير هو عالم الرياضيات المعروف ولكن كلارك ظنه كذلك) كتب كلارك يقول: «يا للإثارة.. هذه التحفة يجب أن تذهب لجامعة كيمبردج حيث يوقر اسم يوكليد». أما ماذكره عن نقل تمثال «حاملة السلة المقدسة» في إلوسيس[١] الذي يرقد حالياً بمتحف فتزوليام[٢]؛ فهو كشف مدهش للوسائل المستعملة في ذلك الحين: «وجدت المعبودة مدفونة حتى أذنيها في تل من الروث. أما الفلاحون المحليون فعند سماع أول بادرة لنقل التمثال، عدوني كمن يمكنه إحضار القمر من مداره، وقالوا ماذا سيحدث لمحصول الذرة لو حُرِّكت السيدة حاملة السلة المقدسة؟ ذهبت إلى أثينا وتقدمت بطلب إلى الباشا داعماً طلبي بمنظار تلسكوبي إنجليزي ونجحت المهمة».

(١) إلوسيس Eleusis مدينة إغريقية قديمة على مسافة عشرة أميال إلى الشمال الغربي من أثينا، وهي أحد المراكز المهمة لعبادة ديميتر وابنتها بيرسيفوي. (المترجم).

(٢) يوجد هذا المتحف بمدينة كيمبردج البريطانية. (المترجم).

كان جون ديزني John Disney محامياً وأحد شخـصيات مقاطعة إسكس. استدعي للمـحكمة في عام ١٨٠٣م وهي السنة نفســها التي اعتقل فـيها لورد إلجين تحت قـانون نابليون أثناء مـروره بباريس. كـان ديزني من عشـاق الفنون وجامعاً للتحف كما كان صـديقاً لكلارك، وكما فعل كلارك فقد أهدى ديزني مجموعته إلى جامعة كيمبردج بل ذهب خطوة أبعد من ذلك حيث أنشأ كرسياً للأستـاذية في الآثار في الجـامعة، فـي عام ١٨٥١[1] كان الاتفـاق بينه وبين الجامعة يقضي بوضوح: «أن من واجب الأستاذ أن يقدم في كل عام أكاديمي.. ست محاضرات تشمل على الأقل موضوعات الآثار الكلاسيكية وآثار العصور الوسطى والآثار الأخرى والفـنون الجميلة وكل الأمـور الأخرى المتعلقـة بها». على الرغم من أن كرسي ديزني كان أول كرســي للآثار في الجزر البريطانية إلا أنه لم يكن بأية حـال الأول في أوربا. لقد سبـقت الإشارة إلى وجـود كرسي للآثار بجامعة ابصالا منذ عام ١٦٦٢م، وكان أولف فيريليوس Olof Verelius أول من عين فيـه. بعد ذلك وفي عام ١٨١٨م عين كـاسبر ياكـوب كرستـيان رويفنز Casper Jacob Christian Reuvens في كرسي الآثار الذي أنشأ وقـتها بجامعة لايدن، وحدد تخصـصه في «حقل علم المصريات والمسكوكات وتاريخ العمارة والآثار الكلاسيكية وغير الكلاسيكية».

كان فـوفيل Fauvel، القنصل الفـرنسي في أثينا نشطاً في جمع الـتحف، ويرجع له الفضل فـي اقتناء اللوفر لتلك اللوحـة الرائعة من أفـريز البارثنون.

(١) مازال هذا الكرسي يحـمل اسمـه حتى الآن، وهو الكرسي الذي يحتله رئـيس قسم الآثار بجامـعة كيـمبـردج، ومن بين الشخصـيات الآثارية التي احـتلته جـراهام كلارك وغلن دانيـال (مؤلف هذا الكتاب) وكولن رنفرو. (المترجم).

قامت مجموعة من الرجال ضمت من الإنجليز ك.ر. كوكريل و.ج. فوستر ومن الدنمارك بروونشتد وكدوس والبارون أوتو ماغنس فون إشتكلبرج ومعماري من نورمبرج يدعى البارون هالر فون هالرشتاين بإجراء تنقيبات فيما يفترض أنه معبد زيوس في إيجينا ومعبد أبولو في باساي، وذلك في عام ١٨١١م[١]. وقام النحات تورفالدين بصيانة التماثيل من تلك الحفريات ثم تقاسم شراءها كل من الملك لويس الأول ملك بافاريا والمتحف البريطاني. وفي عام ١٨٢٩م قامت بعثة آثارية فرنسية بتنقيبات في البلوبنيز ونشرت نتائج أعمالها في البعثة العلمية إلى موري **Expedition Scientifique de Moree**.

في عام ١٨٢١م قام الفيكونت دو مارلو Vicomte de Marellus سكرتير البعثة الفرنسية في أثينا، وبتعليمات من رئيسه المركيز دو ريفيير Marquis de Ruvere سفير بلاده في القسطنطينية بشراء تمثال فينوس دي ميلو الشهير الذي يوجد الآن بمتحف اللوفر. كتب عنه يقول: «يافينوس، سحر عينيَّ وذكرياتي، فبعد أن نامت لأكثر من ألف عام تحت نبات قمح لاينتج، وأعشاب برية، فإنها استيقظت على صوتي ...».

تحررت بلاد الإغريق من الحكم التركي في عام ١٨٢٩م، وبوصفها أمة حديثة الاستقلال بدأت الاهتمام بماضيها، وبمساعدة عدد من الآثاريين الأجانب أنشأت في عام ١٨٤٦م المدرسة الفرنسية للآثار، وكانت أوّل مدرسة أجنبية من هذا النوع في بلاد الإغريق، تبعتها في وقت لاحق مدارس مشابهة ألمانية وبريطانية وأمريكية وإيطالية. ومع أن وقت انغماس القناصل والسفراء في علم

---

(١) إيجينا جزيرة إلى الجنوب من أثينا، وباساي موقع في غرب شبه جزيرة البلوبنيز. أما البلوبنيز فهي الجزء الجنوبي الغربي من بلاد الإغريق. (المترجم).

الآثار كعـمل جانبي آخـذ في الزوال؛ إلا أن مجرى حـياة الإنجليـزي شارلس توماس نيـوتن Charles Thomas Newton يقـدم المثل لتـــداخل علم الآثار والدبلوماسـية. كان نيوتن موظفـاً في المتحف البريطاني حين أرسل في مـهمة دبلوماسية بواسطة مكتب الاتصال الخـارجي لمدة سبعة سنوات في الشام يجمع فيها بين مهامـه الدبلوماسية وإعداد مادة متحفيـة للمتحف البريطاني. وقد نجح نيوتن في تحديد مـوقع ضريح هاليكارناسوس Halicarnassus، أحد عجائب العالم القديم(١). وفي المتحف البريطاني تمكن من تجميع كل ماتبقى منه بما في ذلك بعض القطع التي سبق أن أخذت إلى جنيف والقـسطنطينية ورودس. كما اكتـشف أيضاً خـريطة مدينـة كنيدوس الإغـريقية فـي عام ١٨٥٨/ ١٨٥٩م، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تكشف فيها بدقة وحذر خريطة لمدينة قديمة، وقد استخدم نيوتن التصوير الفوتغرافي بكثرة في أعماله تلك.

أما في إيطاليا فإن التنقـيبات خلال القرن الثامن عشر في مـوقعي هيراكليوم وبومبي قد اسـتمرت لعدة سنوات تقوم بهـا مجموعات صغـيرة من أربعة إلى ثمانية إلى ثلاثين عامـلاً على الأكثر، وكانت هذه الأعمال صـيداً للكنوز أكثر منها أعمالاً آثارية جادة.

لقد كـشفت بعض البيـوت ونهبت وقطعت بعض اللوحـات منها، وتركت المنازل المنهوبة لتنـهار ولم تكمل الحفـريات في أي من المنازل إلا نادراً، إذ كان العرف السائد هو أن تحفر الأدوار العليـا وتترك لتنهار على خنادق الحفر وتدفن الأدوار السفلى. في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وبفضل

(١) هاليكارناسوس تقـع على الساحل الغربي من آسـيا الصغـرى وهي موطن هيرودوت وديونيـسوس، والضريح المشار إليه هو قبر موسولوس. (المترجم).

كرم ملوك نابلي وحماسهم في الحقبة النابليونية؛ نظمت حفريات في بومبي أشرف على إدارتها ميكيلي أرديتي Michele Arditi من علماء نابلي. وكانت تلك هي أول حفرية بهذا الحجم يخطط لها في التاريخ، وقد جُمعت أموال كافية لدعمها، وقد عمل فيها في بعض الأحيان ستمئة عامل. في عام ١٨٦٠م تحول الإشراف على حفرية بومبي إلى جيوسبيٍّ فيورلي Giusseppe Fiorelli الذي كشف النقاب عن أنسولا Insulae كاملة قام بحفرها بعناية متتبعاً الطبقات واحدة إثر الأخرى ومحتفظاً بالظواهر المهمة في أماكنها[١]. ثم أنشأ ما سماه بمدرسة بومبي للتنقيب حتى يتمكن الآثاريون الأجانب والإيطاليون على السواء من تعلم هذه الطرق الحديثة في العمل الأثري. وقام هو بإجراء دراسة خاصة للمواد الخام وتقنية البناء في بومبي، كذلك طور الوسائل التي تصنع بها النماذج الجصية للأجسام بصب الجص في الفراغات التي تكونت في الرماد البركاني بعد تحلل الأجسام، وذهب أبعد من ذلك في عمل نماذج للأبواب والأثاث وحتى السقوف.

كان فيورلّي عالماً متمكناً ورائداً في التحليل الإستراتغرافي، يصف غاستون بوسييه Bossier الوسائل التي طبقها فيورلي في بومبي بقوله: «لقد أعلن (أي فيورلي) وكرر في تقاريره أن مركز الاهتمام في حفريات بومبي هو بومبي نفسها، فاكتشاف الأعمال الفنية موضوع ثانوي في أهميته، لقد توجهت الجهود قبل كل شيء لكشف مدينة رومانية تصور لنا الحياة في عصور مضت، كان من المهم رؤية المدينة بكاملها وبتفاصيلها الدقيقة ليكتمل الدرس الذي نتعلمه منها. هذه المعرفة لاتجيء فقط من قصور الأغنياء بل من أكواخ الفقراء أيضاً، بأدواتها

(١) «الأنسولا» مجموعة وحدات سكنية تفصلها شوارع متقاطعة. (المترجم).

البسـيطة وزينتـها المتواضـعة، من أجل هذه الـغاية يصبـح لكل شيء أهميـته ومضمونـه، وليس لدى المرء الحق بأن يبرز شيئاً على حسـاب آخر». كان هذا تعبيراً رائعاً ومسايراً للعصر.

أوربا البربرية:

أجرى ميكالي وانغرامي Micali & Inghirami وجيرهارد Gerhard دراسات على الأتروسكيين في بداية الـقرن التـاسع عشـر، كمـا تم اكتـشاف لوحـات كورنيـتو الجـدارية في عام ١٨٢٧م. وفي وقت لاحق كشـفت مواقع ومـقابر أخرى في فيي وتشيوسي وكيرفيتيري وأورفـيتو. وكان اكتشاف مقبرة ريفوليني غالاسي في كاييري[١] في عام ١٨٣٤م بمحتوياتها الثمـينة مثالاً للاهتمام بآثار الأترسكيين وسـبباً لجذب البـاحـثين عن الكنوز. وقـد تعرف العـالم الناطق بالإنجليـزية إلى الأتروسكيـين بفضل كـتـاب لجـورج دينس George Dennis سمــاه مـدن ومـدافن أتروريا[٢] (١٨٤٨) **Cities and Cemeteries of Etruria** وهو كتاب شائق واسع الانتشار.

لم يكن دينس يشـك في الدور الكبـير الذي لـعبـه الأترسكيـون في نشـر مدنيات الـبحر الأبيض المتوسط إلى شـمال وشمال غرب أوربا. كـتب يقول: «يتفق الآثاريون الآن أن كل البرونزيات القديمة التي عثـر عليها إلى الشمال من

(١) كاييري موقع في إيطاليا إلى الشمال من روما. (المترجم).

(٢) «أتروريا» هي الاسم القديم لغرب إيطاليا وإليها ينـسب الأترسكيون الذين كانت لهم علاقات تجارية واسعـة مع سـواحل المتوسط وأواسط أوربا خـلال الفتـرة ٦٥٠-٤٥٠ ق.م. وفي منتصف الـقرن الخامس ق.م. تدهورت حضارتهم بسبب غزوات قبـائل أواسط أوربا على مدنهم وسيطرة الفينيقيين على تجارة حوض المتوسط. (المترجم).

جبال الألب وحتى الدنمارك ومن أيرلندا إلى المجر وولاشيا[١] ترجع إلى أصول أترسكية».

أما الأسكاثيين Scythians فقد وصفهم هيرودوت من قبل[٢]. كانت أول مكتشفات عرفها لهم آثاريون حديثون هي تلك التي قام بها بول دوبرو Paul Dubrux في كول أوبا بالقرب من كيرش في عام ١٨٣٠[٣]. وقد وصفت أعمال لاحقة في **آثار الأسكاثيين عند هيرودوت (١٨٦٦ - ١٨٧٣)» Les Antiquites de la Scythie d'Herodote** الذي قامت بنشره الجمعية الملكية للآثار في سانت بطرسبرج. أنشأت جمعية أوديسا الملكية للتاريخ والآثار في عام ١٨٣٩م، وبعد عشر سنوات أصبحت تسمى بالجمعية الملكية للآثار، وفي عام ١٨٤٦م قامت في روسيا جمعية للآثار والمسكوكات.

أما الآثار السلتية وتلك التي تخص العصر الحديدي في حقبة ماقبل الرومان في أوربا بوجه عام؛ فقد برزت إلى الوجود خلال العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر. بالطبع كانت المواد الأثرية التي ترجع إلى العصر الحديدي وماقبل الرومان في أوربا معروفة قبل أن يضع طومسن وخلفاؤه تعريفاً للعصر الحديدي، إلا أن هذه المواد صنّفت على أنها إما بريطانية أو تيوتونية[٤] أو غاليّة، وكان هنالك خلط فيما هو منسوب للفترة قبل الرومانية والرومانية

(١) ولاشيا هي إحدى المقاطعتين اللتين تكونت منهما رومانيا. (المترجم).

(٢) الأسكاثيون هم أهل أسكاثيا التي تقع في جنوب شرق أوربا، اعتمد اقتصادهم على الرعي وسيطروا على سهول الاتحاد السوفيتي حيث لعبت الخيول دوراً في تسهيل ترحالهم وذلك خلال القرن الخامس ق.م. (المترجم).

(٣) كول أوبا موقع على الساحل الشمالي للبحر الأسود.

(٤) التيوتون هم شعب ألماني قديم، استوطن منطقة يوتلند في القرن الرابع ق.م. (المترجم).

وبعد الـرومانية. وصف كـولت هور Colt Hoare لجامـات الخيل والعـجلات الحديدية وأدوات أخرى من هامدن هل على أنها بريطانية تعود إلى حقبة ماقبل الرومـان. كذلك وصف الـبارون دوبونشـتتن de Bonstetten ركام الأسلـحة الحديدية وأدوات الخيول وبقايا المراكب الحربية والـعملات السلتية والفخار التي عثر عليها في تيفناو بالقـرب من بيرن على أنها «ألمانية» ترجع إلى القرن الثالث أو الرابع الميـلادي. أجرى الكولونيل شـفاب Schwab حـفريات في مـوقـع لاتين على بحيـرة نويشـاتل Neachatel في عـــام ١٨٥٨م. اسـتمـرت هذه الحفريات لعدة سنوات بعد ذلك، وقد كشفت ضمن أشياء أخرى عن مجموعة من السيوف الحديدية التي قام فيردناند كيلر Ferdinand Keller بدراستها وقرر أنها لاتعود للفترة الرومانية ولا للعصر البرونزي، وإنّما تخص الحضارة السلتية جزءاً من الحقبة الهلفتية[1] لما قبل التاريخ في سويسرا وإلى العصر الحديدي.

في عام ١٨٤٦ بدأ رامساور Ramsauer حفريات في هالشتات[2] في النمسا لصالح متحف فينّا واستمرت لـما يقارب عشرين عاماً. وفي عام ١٨٦٦م قامت مجموعة من الآثاريين المعروفين بحـفريات أخرى في هالشتات، كان من بينهم جون إيفـانز ولبوك وفـرانكز ولارتيه ومارلو. كـتب إيفانز عن هذه الحـفريات قائلاً: «لقد رتـبنا الأمر مع بيرغمـايستر Bergmeister لوضع عدد من الرجال ليقومـوا بالحفر على أن نلحق بهم في صـباح الغد الباكـر لنرى النتائج، وربما تطلب الأمر أن نبـقى هناك طوال اليوم». وفي اليـوم التالي كتب يقـول: «لقد وجدنا في حفرياتنا متعة لم نسـتطع تركها، تناول لوبك وشخصي إفطاراً مبكراً

(١) هلفتية تعني سويسرية. (المترجم).

(٢) هالشتـات موقع في النمسـا يبعد ٣٠ ميـلاً إلى الشرق من سلسبـرج ويعود إلى العصـرين البرونزي والحديدي. والموقع يحوي مقبرة ضخمة وقد اشتهر بمناجم الملح فيه. (المترجم).

بعد السادسة بقليل، وفي حوالي السابعة والنصف كنا عند الجبانة. . . وجدنا الرجال قد اكتشفوا سواراً برونزياً وجزءاً من عظم الشظية، وفيما بعد وجدت بنفسي في أحد المجسات التي حفرتها فأساً حديدية لاتزال مثبتة في مقبضها وعليها أثر طبعات قماش ناعم ربما كانت ترقد عليه».

نشر ملخص لنتائج الحفريات التي استمرت قرابة عشرين عاماً في كتاب بعنوان **جبانة هالشتات** (١٩٨٦) **Das Grabfeld von Hallstatt** للبارون فون ساكن Von Sacken ، وكانت قد تم حفر ٩٩٣ قبراً، والمقبرة فيما يبدو تمثل فترة انتقال من العصر البرونزي إلى العصر الحديدي في أوربا. وفيما بعد اقترح هلدبراند Hildbrand في عام ١٨٧٢ أن يقسم العصر الحديدي في أوربا على مرحلتين؛ المرحلة المبكرة أو الهالشتاتية والمرحلة المتأخرة أو اللاتيونية[1].

لفت جون كمبل John Kemple الانتباه إلى مجموعة من الأدوات زينت على الطراز اللاتيوني كان فرانكس Franks يقوم بدراستها في المتحف البريطاني. وأثناء ترتيبه ووصفه للوحات التي كان كمبل ينوي نشرها في كتابه **الأزمان الغابرة Horae Ferales** (الذي نُشِر بعد وفاة كمبل في عام ١٨٦٣)، غامر فرانكس بإطلاق عبارة «السلتية المتأخرة» عليها، وقد قصد استعمال عبارة سلتية إذ إن انتشار هذه الطرز الغنية متزامن فيما يبدو مع الاحتلال السلتي، إلى جانب أن أنماط الزينة تبدو مقترنة بتلك التي عرفها الفن المسيحي القديم في أيرلندا، وهي تختلف تماماً عن الفنون الرومانية والساكسونية والدنماركية التي عثر عليها في إنجلترا.

(١) اللاتيونية عُني بها La Tene وهو موقع في سويسرا على الضفة الشرقية لبحيرة نويشتاتل يعود إلى العصر الحديدي. (المترجم).

جاء أول دليل قـاطع لتأريخ الفن اللاتيوني من حـفريات في مون أوكـسوا (اليـسيا) ومـون ريافي اليزسـانت رين في برغندي[1]، جرت خـلال الأعوام ١٨٦١-١٨٦٥م بأمر من نابليـون الثالث. وقد عثر في خنادق لمـعسكر روماني على سيوف وحراب إلى جانب قطع نقدية رومانية وغالية، ولايبدو أن أيّاً من تلك السـيوف والحراب يمكن أن تـؤرخ إلى مابعد عـام ٥٤ق.م. الشيء الذي يعطي الأدوات اللاتونية تاريخـاً سابقاً للفـترة الرومانية أو إلى منتـصف القرن الأول قـبل الميلاد على أقـل تقدير. كـان هذا هو أول تأريخ مـوثوق به للفن اللاتيـوني، وقـد مكّن الآثاريين في فـرنسـا وإسبـانيـا من أن ينسـبـوا بعض المكتشفات والقـبور إلى العصر الحديدي في حقبـة ماقبل الرومان. وفي الوقت نفسه بدأت تتـضح أبعاد حضارة اللاتيون السلتـية. في عام ١٨٧٠م لاحظ دو مورتييه أن المعثـورات التي وجدت في قبور في مارزابوتو Marzabotto بالقرب من بولونا[2] تشابه الأدوات الـلاتيونية التـي جاءت من قبـور في المارن وهكذا عُرفت آثارياً فترة الغزاة السلتيين في إيطاليا.

سبقت الإشارة للقس بريان فوست الذي قذف به في طفولته قرد لأبويه في النار، ولكنه نجا من الحـريق ليصبح أحـد أوائل المنقبين في إنجلترا، لقـد عاش ليجـري حفريات في المقـابر خلال القرن الثامن عـشر. كان فـوست يظن أنها مقابر ترجع للفترة الرومانية إلا أنها كانت في الحقيقة أنجلو ساكسونية. لم تنشر مذكرات فوست الخاصة بتلك الحـفريات، حتى قام بذلك شارلس روش سمث Charles Roach Smith في كتابه **بيان بمحتويات المدافن** (١٨٥٦) **Inventorium Sepulchrale** وذلك قـبل عام من نـشر ج. يونج أيكرمـان J Yong Akerman

(١) برغندي منطقة في وسط فرنسا. (المترجم).

(٢) بولونا موقع في شمال إيطاليا. (المترجم).

كتـابه بقـايا مملكة السكسون الوثنـية Remains of the Pagan Saxendom . كان كمـبل متأثراً بأيكرمـان عندما لاحظ تشابهاً بين الـفخار الأنجلو ساكـسوني في إنجلترا والجرار التي كانت تسـتعمل لحفظ الموتى في هانوفر، وقد نشر اكـتشافه ذلك في عام ١٨٥٦م. وفي العام التالي تم اكتـشاف كوخ أنجلو ساكسوني في مقـاطعة أكسفـورد، وهكذا شهد العقـد السادس من القرن الماضي مـيلاد علم الآثار الأنجلو ساكسوني.

بدأ جـوزيف دبروفـسكي (١٧٥٣- ١٨٢٩) Joseph Dubrovsky في عـام ١٧٨١ دراسة لعادات الدفن عند السلافيين القدماء محاولاً وضع تلك المخلفات في إطارها التـاريخي. كـان من أوائل الآثـاريين في العـالم الذين ألحُّـوا على استخدام طرق عـلم آثار ماقبل التاريخ ووسائله في المصادر المكتـوبة، وكان قد سمى معثوراته الأثرية «الدليل الناطق». أعد كذلك بياناً بحفريات عام ١٨٠٣م لقبور تعود للعـصر الحديدي بالقرب من لوخونيس في بوهيـميا، وكانت تلك هي أول حفريات علمية تتم وتنشر في ما كان يعرف بتشكوسلوفاكيا.

أمريكـــــا:

تطرقنا في الفصل الأول لاهتـمام الجمعيـة الفلسفية الأمـريكية بالآثار وإلى المنشور الذي أصدره توماس جفرسون رئيس الولايات المتحدة في عام ١٧٩٩م. في عام ١٨١٢م أنشأ الناشر أيسايا توماس Isaiah Thamas الجمعية الأمريكية للآثار في ماسشوست وكانت الأولى من نوعها في العالم الجديد، وكان هدفها هو: «. . . جمع آثار بلادنا وعـرضها إلى جـانب المعثورات الفنيـة والطبيعـية النادرة القيّمة التي تسعى إلى توسيع مجال المعرفة الإنسانية. . . وتحسين وإرشاد النشء». عقـدت الجمعـية أول اجتـماع لها في بوسـطن حيث أنشأت مكتـبة

وجمعت مواد للمتحف وخططت وشجعت الأبحاث، وفي عام ١٩٢٠م صدر أول مجلد للجـمعـية تحت اسم **مداولات Transactions** وقد تـضمن مـقالاً لكالب أتوتر (١٧٧٨- ١٨٦٧م) Caleb Atwater بعنوان: «وصف الآثار التي اكتـشفت في ولاية أوهايو وولايات غـربية أخـرى» وفيه وصف الـكاتب عدة مقابر بالقرب من مدينته سـيركلفيل في أوهايو والمناطق المجاورة لها ودعم ذلك بالرسومات.

لم يكن الوصف الذي قدمه ولا ملاحظاته عن تلك القـبور بالشيء المفيد[1] مثل فـائدة عمله المســاحي؛ قسم تلك المقابر فـترات ثلاث أحدثـها تلك التي تخص الأوربيين المحدثـين، تسبقـها تلك التلال التي تخص الهـنود الأمريكيين المحدثين، أمـا أقدمهـا فهي التي أقامـها بناة التلال الذين عـبروا من الهند في طريقهم للمكسيك.

في عام ١٨١٧م نشر دكتور جيمس ماكلو James Mculloh الابن الذي لم يقم بأية حفـريات كتابه **أبحاث في أمـريكا Researches in America** وفي عام ١٨٢٩م نشر **أبحاث فلسفية وآثارية تتعلق بتاريخ الأمريكين البدائيين Researches Philosoghical and Antiquarian Concering the Aboriginal History of America** نفى من خلالهـا مزاعم أتوتر عن بناة التلال قـائلاً: «إن تلك التلال قد بناها الهنود الأمريكيون»، وقد كان محقاً.

في عـام ١٨٤٨م نشر الصـحـفي ب.غ. اسكوير E. G. Squier والطبيب

(١) لعله من الإنصاف القول: إن الجـزء الأول من هذا المؤلف الذي يحوي وصفاً لتلك الآثار كان دقـيقاً رائعاً للحد الذي جعل البعض يرى أن أتوتر هو الثاني بعـد جفرسون بين آثاريي تلك الفترة؛ إلا أن الجزء الثاني من الكتاب الخاص باستنتاجاته لم يكن موفقاً. (المترجم).

ب. هـ. ديفس E. H. Daifs وكلاهما من أوهايو كتاباً بعنوان **الآثار القديمة لوادي المسيسبي The Ancient Monuments of the Mississippi Valley** بعد أن قاما بمسح عدد كبير من المواقع وحفرا بعضها، كما نشرا مقطعاً عن أحد هذه المدافن الذي نقب بواسطة مالك الأرض التي يقع عليها وهو أبلارد تملنسون Abelard B Tomlinson في عام ١٨٣٨م. كان الكتاب مزيجاً من أعمالهما وأعمال آخرين، وكانت نبؤاتهم قاصرة، إلا أنهم كانوا من المؤمنين بنظرية شعب بناة التلال مؤكدين أن الهنود الأمريكيين وأسلافهم لم يكونوا قادرين على بناء هذه التلال.

ادعى تملنسون أنه عثر في المدفن على لوح من الحجر الرملي عليه نقوش كتابة غير معروفة الأبجدية، وحين قام الجيولوجي وعالم الإثنوغرافيا هنري راوسكولكرافت Henry Rowe Schoolcraft بدراسة هذه المعثورات وغيرها أعلن أن: «هناك القليل مما يثبت الاعتقاد أن هذه الأعمال تخص قبائل ذات خصائص حضارية راسخة ورفيعة.. من أصول آسيوية أو أوربية» وهي كما يراها: «مخلفات بربرية وليس مدنية». وجدت أفكاره هذه القليل من الاهتمام وبقيت حبيسة في مؤلفه ذي ست المجلدات الموسوم بـ **معلومات تاريخية وإحصائية تخص تاريخ القبائل الهندية في الولايات المتحدة وأحوالها** (١٨٥١ - ١٨٥٧) **Historical and Statistical Information Respecting the History Condition and Prospects of the Indian Tribes of the United States.**

أصبح صمويل هيفن Samuel Haven أميناً لمكتبة الجمعية الآثارية الأمريكية في عام ١٨٣٧م وهو المنصب الذي ظل يعمل فيه حتى وفاته. في عام ١٨٥٦م نشر كتابه **آثار الولايات المتحدة... The Archaeology of the Uniteid States or Sketches Historical and Bibliographical of the Progress of In-**

formation and Openion Respecting Vestiges of Antiquity in the United States وقد وصف ويلي Willey وسابلوف Sabloff هذا الكتاب بأنه: «نموذج للوصف والمناقشة المنطقية»[1] (A History of American Archaeology, 1974, 47)

يقول هيـفن: «يجب أن نقف حيث يتوقـف الدليل.. ويجب ألا نقدم أي تخمـينات عن الجهـة التي قدم منهـا الأمريكيون الأوائل أو عـن المصدر الذي انبثقت عنه حـضارتهم». إلا أنه ذكر أن الأمريكيين القـدماء هم على أية حال أصحاب حـضارة عريقة وأن: «خـواصهم المميزة تجد شـبيهها عند الآسيويين الأوائل، وأن قناة الاتصال التي تدفقوا عبرها إلى هذه البلاد قد حددت».

نشر كتـاب هيفن الذي وضع حجر الأساس لعـلم الآثار الأمريكي الحديث بواسطة معـهد الأسـمثونيـان. كان جيـمس اسمثـون الثري البـريطاني غريبُ الأطوار الذي لم يزر الولايات المتحـدة في حياته ولم يبـد أدنى اهتمام بهـا قد ترك مبلغاً (بناء على رغبـة ابن أخيه) يفوق خمسمئـة ألف دولار لإنشاء معهد في واشنطون «لزيادة المعرفة ونشرها بين البشر». ويعـد المعهد الأسمثوني اليوم الذي تم افتتاحه في عام ١٨٤٦م أحد أكبر مراكز البحوث في العالم.

بعـد ذلك بقليل وفي عام ١٨٦٦م قـام رجل البر الثـري الأمريكـي جورج بيبودي George Peabody الذي كان يعـيش في لندن بإنشاء مـتحف بيـبودي للآثار والأثنولوجيا في هارفارد. كان لـبيبودي ابن أخ يدعى أثنيل مارش Oth-niel Marsh أصبح مولعاً بالآثار الأمريكيـة بعد أن قرأ كتاب شارلس لايل قدم الإنسان **The Antiquity of Man** وحين التقى لايل حثه الأخير على البحث في الآثار الأمريكيـة وقد فـعل ذلك. وحين كان يجري حـفريات في أحـد التلال

---

(١) «مقارنة بالأعمال المشابهة التي تمت في تلك الفترة». (المترجم).

بالقرب من نيوارك في أوهايو خطرت له فكرة إقناع عمه بإنشاء متحف للآثار والأثنولوجيا، ولم يكن جورج بيبودي في حاجة إلى جهد كبير ليقتنع بالفكرة. لقد كان ـ ولايزال ـ للمعهد الأسمثوني في واشنطون ومتحف بيبودي في هارفارد دور كبير في تطور الأبحاث الآثارية في أمريكا.

حين كان الجدل على أشده حول بناة التلال في أمريكا الشمالية لم يشهد حقل الآثار في أمريكا الوسطى تقدماً يذكر، إلا أنه وفي عام ١٨٠٤م أرسل شارلس الرابع ملك أسبانيا رجلاً فرنسياً يدعى جيليرمو دوبي Guillermo Du-paix لفحص خرائب قديمة في المكسيك ترجع إلى حقبة ماقبل الغزو الأوربي. أنهى جيبرمو مهمته إلا أن تقاريره تركت في مدينة المكسيك دون دراسة. قام آثاريون آخرون ورحالة ومكتشفون من أمثال جون جالندو John Galindo الأيرلندي المولد الجواتيمالي الجنسية وجان فردريك والديك Jean Frederic Waldec بمحاولات للفت نظر العالم إلى مواقع مثل بالنك وغيره. ونشر كتاب والديك في باريس في عام ١٨٣٨م تحت عنوان رحلة رائعة/ طبيعية **وآثارية في إقليم يوكاتان مابين السنوات ١٨٣٤ و١٨٣٦ Voyage pittoresque et archéologique dans al Province d'Yucatan pendant les annés 1834. et,1836.**

لقد أثار الرحالة الأول الحماس في دوائر المتعلمين، وقد نظمت بعثتان علميتان الأولى نظمت محلياً في هندوراس بواسطة ضابط هو النقيب جون كادي John Caddy، وأحد رجال الخدمة المدنية باتريك وكر Patrick Walker، فأصدرا أول تقرير علمي عن بالنك طواه النسيان حتى أعيد اكتشافه منذ وقت قريب. وعلى أي حال فقد طغت على هذه البعثة أعمال بعثة أخرى قادها غاذروود Gatherwood واستيفنز Stephens بدعم من حكومة الولايات

المتحدة. كـان جون لويد استيفنز (١٨٠٥- ١٨٥٢) المحامي الأمـريكي قد قام من قـبل برحلة في العالم القـديم زار خلالهـا مصـر وفلسطين ونشر فـي عام ١٨٣٧م كتابه **أحداث في رحلة في بلاد العرب البـترائية Incidents of Travel in Arabia Petraea**. أما فرديرك غـاذروود فهو رسام ومعـماري إنجليزي، بدأت رحلتهـما من بليـز في عام ١٨٣٩م ونشـرا تفاصيـلها في **أحداث في رحلة في أمـريكا الوسطى، شـيبـاس ويوكـاتان** (١٨٤١) **Incidents of Travel in Central America, Cheapas and Yucatan** وكذلك في **أحداث في رحلة في يوكاتان Inciderts of Travel in Yucatan**. هذه الكتب التي تـضمنـت رسومـات رائعـة لغاذروود جذبت المزيد من الاهتمام بآثار أمريكا الوسطى.

على أن الأعمال التي قام بهـا استيفنز وغاذروود كانت أعمـالاً وصفية؛ إلا أنه تأكـــد لهـمـا أن المخـلفـات التي درســاها هي من وحي الهنـود المحليين وتنفيذهم، كتب اسـتيفنز يقول: «ليس لدينا مايـبـرر العودة لأمم العالم القديم للبحث عن بناة هذه المدن، إذ إنها ليـست من عمل أناس طواهم الزمن وضاع تاريخهم، إن هناك أسـباباً قوية تدعونا للاعـتقاد بأنها من صنع جـماعات من أصل الجماعـات نفسها التي كـانت موجودة عند وقوع الغـزو الأسباني أو هي لأسلاف ليسوا بعدين عنهم».

سبـقت الإشارة إلى دانيل ولسون (١٨١٦-١٨٩٢م) الذي يعد كـتابه **الآثار وحـوليـات مـاقبل الـتاريخ فـي أسكتلندا** (١٨٥١) **The Archaealogy and Prehistoric Annals of Scotland** أول محاولة كـبيرة لتطبيق نظام العـصور الثلاثة الأسكندنافي في بريطانيا. كان ولسون أحد أولئك الذين أنتجتهم حركة التنوير الأسكتدلندية، وقد هاجر إلى كندا وأصبح أول مدير لجـامعة تورنتو. وقد كان له تأثير كبـير على تطور علم الآثار والأنثروبولوجيا في كندا وأمريكـا الشمالية

بوجه عام، وقــد أصدر في عام ١٨٦٢م إنسان مـاقبل التـاريخ: **أبحاث في أصل المدنية في العالمين القديم والجديد Prelistonic Man: Researches into the origin of Civilization in the Old and New Worlds**، وفيـه أيّد الرأي القائل بالتطور المستقل الموازي الذي ينتج عن الوحدة النفسية عند البشر، وهو موقف مشابه لما طرحه لويس مورغن في وقت لاحق.

الهنـــد وآسيـــا:

في القرن السابع عشــر كتب بعض الرحالة الأوربيين عن الآثار الهندية، إلا أن علم الآثار الهندية بدأ فعلياً بإنشــاء «جمعية البنغال الآســيوية» في كلكتا في عام ١٧٨٤م. تم ذلك على يدي السير وليام جونز (١٧٤٦- ١٧٩٤) William Jones الصديق لصمويل جونسون Samwel Johnson الذي ذهب لكلكتا قاضياً للمحكمة العليا في عام ١٧٨٣م. كانت غـاية الجمعية هي: «البحث في تاريخ الآثار والفنون والعلوم والآداب الآسيـوية»، وقد أنشأت متـحفاً خاصـاً بها في عام ١٨١٤م وقامت بإصدار مجلتها **أبحاث آثارية Archaeological Researches** في عام ١٧٨٨م.

في عام ١٧٩٠م عثر على عملات رومانية بالقرب من نيلُّور إلى الشمال من مدراس. كتب الإسكـندر ديفدسون Alexander Davidson حاكم مدراس إلى الجمـعيـة الآسيـوية يقول: «إن مـحراث أحد الفـلاحين قد اصطدم بمـبانٍ من الطوب، وعند الحفر كـشف عن بقايا معبد هندوسي عثـر في أسفله على جرة فخارية وعملات رومانية وميداليات ترجع إلى القرن الثاني».

أبدى جيمس برنسب (١٧٩٩-١٨٤٠) James Prinsep اهتماماً بالغاً بالآثار

الهندية وعمل لـعدة سنوات مقـرراً للجمعـية الآسيـوية، وقد كان مـقرباً من الجنرال الإسكندر كننـغهـام Alexander Cunningham الذي أنشـأ دائرة المسح الأثري الهندية في عام ١٨٦١م.

في عام ١٨٢٣م عثـر بابنغتون Babington على أدوات حديدية في مدافن ميغاليثية في ملابار. وفي عام ١٨٤٥م نشر جيمس فيرجسون James Fergus-sen الذي كان يعـمل بزراعة النيلة كـتابه **المعـابد الصخـرية في الهند Rock-cut Temples of india**. وكان هذا بداية لاهتماماته الآثارية والمعمارية التي أدت إلى كتابـــه **تاريخ العمارة** (١٨٦٥- ١٨٦٧) **History of Architecture** وكتابه **المباني الحجرية البدائية في كل الأقـطار: عمرها ووظائفها** (١٨٧٢) **Rude Stone Monu-ments in all Countries: Their Age and Uses** وكـان ذلك أول مــسح عـام للعمارة الميغاليثية.

أما ماقبـل التاريخ في الهند فقد بدأت المعرفة به في عـام ١٨٦٣م حين عثر روبرت بروس فوت Robert Bruce Foote في مـدراس على أدوات حجـرية ترجع إلى العصر الحجري القديم.

علم الآثار في عام ١٨٦٧م :

لعل عـام ١٨٦٧م هو تـاريخ مناسب لإنهـاء هذا الفـصـل الذي أرّخ لبـعض الأحـداث في علم الآثار منذ أواخـر القرن الثـامن عـشر حـين بعث جون فـرير بفوؤسـه الأشولية من هوكسن إلى لندن زاعـماً أنها ترجع إلى: «فتـرة موغلة في القدم، أقـدم من عالمنا المعـاصر»، وحين بدأت مجـموعة العلمـاء الذين أتى بهم نابليون عملهم في الآثار المصرية شهدت السبـعون عاماً الممتدة من ١٧٩٧م وحتى ١٨٦٧م ميلاد علم الجيولوجيا الحـديثة وقبول فكرة قدم للإنسان وتبني نموذج نظام العصور الثلاثة الدنماركي المعدل بواسطة لوبك إلى نظام العصور الأربعة.

كان عام ١٨٥٩م هو عام الإنجاز كما يطلق عليه عادة، فقد شهد إلى جانب القبول بفكرة قدم الإنسان[١] صدور كتاب شارلس داروين Charles Darwin **أصل الأنواع The Origin of Species by Means of Natural Setection or the Preservtion of Favoured Races in the Struggle for Life**

كانت قراءة كتاب لايل **مبادئ الجيولوجيا** هي التي أوحت إلى داروين بنظريته العامة للتطور، تماماً كما كانت قراءة مقال مالتس Malthus «مقال عن السكان» **Essay on Population** قد أوحى له بأفكاره عن الصراع من أجل البقاء والبقاء للأصلح.

كثيراً ما قيل: إن **أصل الأنواع** كان له أثر عميق في تطور علم الآثار. في البدء لم يعبر داروين عن رأيه حول تأثير نظريته على موضوع أصل الإنسان، ولم يتطرق في ذلك الكتاب للتشابه في التركيب الفيزيقي بين الإنسان والرئيسيات سوى ذكره أن قبول نظريته يوحي: «بإلقاء المزيد من الضوء على أصل الإنسان وتاريخه». إن الباحث الذي أدخل الداروينية في دراسة الإنسان هو ت. هـ. هكسلي (١٨٢٥- ١٨٩٥) T. H. Huxley «مرافق داروين» كما كان يرى نفسه. نشر هكسلي كتابه **مكان الإنسان في الطبيعة Man's Place in Nature** في عام ١٨٦٣م. بعد ذلك قدم داروين امتداداً لنظريته لتشمل الإنسان ونشر كتابه **أصل الانسان** (١٨٧١) **The Descert of Man** وكذلك نشر كتابه **التعبير عن العواطف لدى الإنسان والحيوان Expression of emotions in Man and Animals** في عام ١٨٧٢م. وحين هدأ غبار المعركة بين القائلين بالتطور والمعارضين له وقبلت الداروينية على نطاق واسع؛ كان من الطبيعي أن تقود

(١) يرمي المؤلف إلى اجتماع الجمعية الملكية في لندن في ٢٦/ ٥/ ١٨٥٩م. (المترجم).

نظرية التطور العضوي إلى تهيئة الناس لقـبول فكرة قدم الإنسان. لقد أصبحت الفؤوس الحجرية الخشنة الصنع من السوم وسفوك ليست مقبولة فحسب، وإنّما أمراً ضرورياً وكذلك الحال بالنسبة لإنسان نياندرتال.

إن المعرض الضـخم الذي أقيم في لندن في عام ١٨٥١م لم يحو مـخلفات أثرية ولم يكن هناك سبب لذلك، لقد كانت الغاية منه هو عرض التقدم المادي الذي تم خلال النـصف الأول من القرن التاسـع عشر، والكشف عن إمـكانية توقع المزيد من التـقـدم. إلا أن مخططي مـعـرض باريس الذي أقيم في عـام ١٨٦٧م رأوا أن يجمعـوا بين النظرة إلى المستقبل والماضي، فعـرضوا مواد من حقب ماقبل التاريخ وفجر التاريخ. تضمـنت المجموعة الفرنسية لما قبل التاريخ أدوات من أورينياك وليزايزي إلى جانب رسـومات صخرية ومواد ميغـاليثية من بريتون[1] وأخرى من قـرى البحيرات في لوبورجـية Lac du Bourget. أعد غابريل دو مـورتييّه دلـيلاً مرشـداً للمعرض سـماه **جولة فيما قبل التاريخ في المعـرض الدولي** (١٨٦٧) **Promenades prehistoriques á L'Exposition Uni-verselle** وذكر فـي خاتمتـه أن هناك ثلاثة حقـائق قد برزت نتـاجاً للـدراسات العلمية فيما قبل التاريخ، وقد طبعها بأحرف بارزه:

قانون تطور الإنسانية .

قانون التطور المشابه .

القدم البعيد للإنسان .

قام ماريت بتنـظيم عرض القطع المصرية في معـرض باريس وقد نال عرض المجوهـرات إعجاب الإمـبراطورة يوجـيني Eugénie للحد الذي كـتبت فـيه

---

(١) بريتون مقاطعة في شمال غرب فرنسا. (المترجم).

للخديوي إسماعيل تقول: «إنها ستسعد كثيراً بتقبل المجموعة الكاملة هديةً منه»! . اندهش الخديوي لهذا الطلب ولكنه في الوقت نفسه كان يسعى لإرضاء فرنسا، وكعادته فقد كان يفتقر إلى الإمكانات المادية . وافق على الطلب مشروطاً بموافقة ماريت، وأخبر مندوب الإمبراطورة أن: «هناك شخصاً في بولاق أكثر نفوذاً مني، عليكم مخاطبته». ذهب المندوب مندهشاً ليقابل برفض صارم من ماريت، وهكذا عادت مجموعة الآثار المصرية سالمة من باريس إلى بولاق.

كانت هذه لحظة عظيمة بالنسبة لعلم الآثار تماماً كما كان حضور علم الآثار في معرض باريس. بعد ذلك بأربع سنوات كتب ي. ب. تايلر E. B. Tylor في كتابه الثقافة البدائية (١٨٧١) **Primitve Culture**: «لقد اتخذ التاريخ وماقبل التاريخ مكانهما في مجال المعرفة» كان تفاؤله زائداً عن الحد، إذ إن البعض مازال يرى ـ وبعد مرور قرن أو يزيد على ذلك ـ أن علم الآثار لم يأخذ مكانه المناسب في مجال المعرفة، إلا أنه على أية حال قد بلغ رشده بحلول عام ١٨٦٧م.

الفصل الثالث
المنقبون والمستكشفون
(١٨٦٨-١٩١٤م)

العصر الحجري القديم وفنونه :

إن القبـول بأصالة فنون العصر الحـجري القديم بعـد مقال لارتيه وكـرستي بعنوان كـهـوف بريغـورد Les cavernes du Périgord الذي نشـر في عـام ١٨٦٤م؛ لم يكن مباشراً ولم يقبل على نطاق واسع. غير أن فارسيه أعلن في مؤتمر الآثار الذي عُـقِد بمدينة كوبنهاجن في عـام ١٨٦٩م قبوله بحقـيقة فنون شافو Chaffaud، وإثر ذلك أصبحت فنون العـصر الحجري حقيقـة مُسلّماً بها في تاريخ البشرية، إلا أنها حقيقة مثيرة للدهشة.

بعد ذلك بسـتة أعوام بدأ الإسباني مـارسلينو دي ساوتولا Marcellino de Sautoula حفريات في كهف ألطميرا[١] Altamira بالقرب من سانتاندر San-tander، وعثر على رسومات باللون الأسود على ظهر الكهف، وزعم أن هذه الرسومات ترجع إلى الفترة نفسها التي تعـود إليها مخلفات من العصر الحجري في الكهف ذاته. بعـد ذلك بأربع سنوات كانت ابنتـه ـ وهي في الخامـسة من

(١) يقع كهف الطميـرا في شمال شرق إسبـانيا، ويحوي مجمـوعة رائعة من الرسومـات الصخرية التي تخص الثقافة الماجـدلينية (حوالي ١٥٠٠٠ق.م. - ٨٠٠٠ ق.م.) إحدى ثقافات العـصر الحجري القديم الأعلى. (المترجم).

عمرها ـ قد سئمت من متابعة تنقيبات والدها فذهبت تتجول في أعماق الكهف التي لم يصلها والـدها من قبل لصعـوبة الدخول إليهـا، وهناك وتحت وميض متقطع من مـصباح كانت تحمله رأت على سـقف الكهف الداخلي الرسومات المشـهورة اليـوم واضحـةً باهرةً بألوانها المتـعددة الزاهيـة، من ثيران وبايـسون وخنازير برية؛ فهـرعت إلى الخارج لإخطار والدها بما رأت صائحـة «ثيران!، ثيران! تعال يا أبي لتشاهد الثيـران!» زحف والدها داخلاً ليرى تلك الرسومات الرائعة، وأعلن اكتشافه للعـالم في حينه. في تلك الأثناء عثر شيرون Chiron على رسومات في عام ١٨٧٨م على جدران شابو Chabot في ألارديشي L'Ar-deche وزعم أنها تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى.

قادت هذه الاكتشافات والمزاعم إلى الكثير من الجدل في أوساط آثاريي ماقبل التاريخ. فرأى البعض أنهـا غير حقيقيـة أو أنها على أحسن الفروض ترجع إلى عهد الغال والرومان، فـي حين آمن البعض الآخر بحقيقتهـا وقدمها. وفي عام ١٨٧٧ قبل غبرائيل دو مـورتييه حقيقة فن الكهـوف معلناً: «أن هذه هي طفولة الفن وليست هي فن الطفولة». وبعـد ذلك بعشر سنوات أعلن أدوار بييت Ed-ouard Piette عن صحة هذه الرسومات وأنها تعـود للحضارة الماجدلينية، وقبل بحقيقتـها في مؤلفه **ذوات الحوافر من العصر الجـيولوجي الرابع بناءً على التصاوير المنحـوتة في هذا العـصر**[1] **Equides de la Periode quaternaier d'apres les Gravures de ce Temps**، إلا أن أميل كـارتيلاك Emile Cartailhac في كتـابه **فرنسا ماقبل التاريخ La France Prehistorique** وسالومون رايناخ Salomon Re-inach في كتابه **التـرسبات والكـهوف Alluvions et Cavernes** اللذين نشرا في

(١) العصر الجيولوجي الرابع Quaternary بدأ منذ حوالي ٣٫٥ مليون سنة ولايزال، ويشمل حقبتي البلايستوسين (العصر الجليدي) الذي انتهى منذ ١٢ ألف سنة وحقبة الهولوسين (العصر المطير). (المترجم).

عام ١٨٨٩م قـاما بإثارة الكثـير من الشكوك والتحـفظات، ورفضـا كون تلك الرسومات تعود إلى العصر الحجـري. وفي عام ١٨٩٥م اكتشف بيرتميرو -Ber toumeyrou وزوجته بعض الرسومات على جدران كهف لاموت La Mouthe بالقرب من ليزايزي Les Eyzies، وفي العام التالي قام أمـيل ريفيير Reviére بتنقيب كامل في لاموت. لقد كانت مخلفـات العصر الحجري القديم والحديث تسد مـدخل الكهف قبل أن تبـدأ الحفـريات. وفي الداخل عثر عـلى لوحات ورسومات من بينهـا لوحة الكوخ الشهيرة التي تؤرخ للعصـر الحجري القديم، ومن هنا نبعت أهميـة لاموت في تاريخ علم الآثار. فبمـا أن اللوحات قد تم اكتشافها فقط بعد إزالة ركام المخلفـات الحضارية الأخرى؛ أيقن ريفيير أنها إما معاصرة لاسـتيطان العصر الحجري القـديم في الكهف أو أنها أقدم منه. وهذا هو ما أكده ريفيـير في كتاباته لأكاديمية العلوم الفرنسـية في عام ١٨٩٦م. لقد اقتـنعت مجـموعـة الآثاريين والجيـولوجيين الذين زاروا لامـوت بصحـة هذه اللوحات والنقوش وبوجود فن الكهوف في العصر الحجري القديم الأعلى.

في هذه الأثناء كان فرانسوا دالو Francois Daleau يقوم بالتنقيب في كهف بر ـ نو ـ بر في الجيروند Gironde على بعد اثنين وستين مـيلاً إلى الغرب من ليزايزي حـيث شاهد في عـام ١٨٨٣م رسوماً على جـدار الكهف، إلا أنه لم يعرها اهتمـاماً، لكنه حين سمع باكتـشافات لاموت قام بغـسل الجدران بسائل واستطاع على أثر ذلك أن يتبين رسـومات لاثني عشر حيواناً كـان يغطيها ركام مخلفات المستوطن الذي يرجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى.

كان الأب بروي Abbe Breuil في هذه الأثناء شاباً فـي الثالثة والعـشرين، وذلك قبل أن يصبح عميداً لعلماء العصر الحجري وأكبر مرجع في فنون العصر الحجري. قام بروي بزيارة لاموت في عام ١٩٠٠م، ولاحظ أن فنون بر ـ نو ـ بر

مطابقـة من حيث الأسلوب لتـلك التي عرفت من لامـوت، وأن الدلائل من لاموت لا تترك مجالاً للشك في صحة رجوع تلك الرسومات للعصر الحجري القـديم الأعلى، وقد نشـرت النسخ التي أعـدها لتلك الرسومـات في النشرة العلمية **Revue Scientifique** في عام ١٩٠١م.

وأخذت الأمور تسير في اتجاه معـاكس؛ ففي تلك السنة نفسها ١٩٠١م ذكر أحد الرجـال الذين عملوا مع ريـفييـر في كهف لامـوت أنه شاهد رسـومات مشابهة في مكان مجاور. وفي ٨ سبـتمبر قام كل من كابتان Capitan وبيروني Peyrony وبروي بزيارة للكهف الـشهـير فـي الكومبـارل Les Combarelles وشاهدوا الرسومات. وفي ١٥ سبتمبـر من العام نفسه اكتشف بيروني لوحات جداريـة في كهف فـو دو غوم Font de Gaume على مـسافـة تقل عن الميل الواحد عن الكومبارل.

وفي جلسة للجمعيـة الفرنسية لتطوير العلوم Association Francaise pour L'avancement des sciences عقـدت في مونتوبان في عـام ١٩٠٢م نوقشت اكتشافات الكومبارل وفو دو غوم، ولكن غالبية الحاضرين من الآثاريين رفضوا الاعتراف بها، وكان الحال كذلك بالنسبة لأطميرا ولاموت وبر ـ نو ـ بر إلا أن رحلة جماعية نظمت إلى ليزايزي قادت إلى إقناعهم في النهاية.

في كتاب **أربعمئـة قرن من فن الكهوف** (١٩٥٢) **Four Hundred Centures of Cave Art** نشر بروي صورة لتلك الرحلة الجماعية للجمعية الفرنسية لتطوير العلوم لكهف لاموت في ١٢ أغسطس ١٩٠٢م، والصورة تظهر كل من ريفيير وبيرونى وكـارتيلاك كارتيـلا وأدرين دوموتييـه ودالو والأب بروي، كان بروي محقاً في زعمه: «أنها وثيقة تاريخـية لأنها تؤرخ لليوم الذي اعترف فيه العالم العلمي بالفنون الجدارية لكهوف عصر الرنديرِ».

لم يصدق كـارتيلاك الذي كان يعـمل أستاذاً بتولوز وعـميد آثاريي مـاقبل التاريخ الفرنسيين برسـومات ألطميرا ولـم يتشكك في كونها رسـومات حديثة، لذا لم يكلف نفسه عناء النظر إليـها بعد إعلان اكتشافها، إلا أنـه بعد اكتشاف لامـوت وبر ـ نو ـ بر وفو دو غـوم ولو كـومبـارل تبين له خطؤه وتحـقق من التطابق بين فنون فو دو غـوم وألطميرا. وحـينما اصطحب معـه الشاب بروي لزيارة ألطمـيـرا أُصيـبـا بالدهشـة وعاد بروي وهـو محـمل بأعـداد من نسخ الرسومات الملونة التي شـاهدها. ونشر كارتيلاك مقاله الشـهير بعنوان **الكهوف المزينة بالرسومات: مغارة ألطميرا، واعتراف منكر Les Cavernes Ornées de dessins: La grotte d'Altamira Mea culpa d'un Sceptique**، نشـر المـقـال في مجلة أنثروبولوجيا في عام ١٩٠٢م، وفيه عبّـر عـن تحوله إلى الإيمـان بفـن الكهوف. ومن هنا فـصاعداً عد فن العـصر الحجري سـواء أكان من الملاجىء الصـخـرية أم الكهـوف أول دليل ـ أو على الأقل أول دليل بـين أيدينا ـ على الإيضاحات الفنية للجنس البشري.

في عام ١٩٠٦م تم اكتشاف نيو، وفي العالم التالي نشر بييت مؤلفه **الفن في عصر الرنذير L'Art Pendant L'Age du Renne**. وكان أمير موناكو مهتماً بهذه الاكتشافات الحـديثة المثيرة، حيث أنشأ في باريس معهد دراسـات باليونتولوجيا الإنسان Institut de Paléontologie Humaine، كـما تكفل بتـمـويل سلسلة هائلة من المجلدات التي تصف فنون العصر الحجـري القديم في الكهوف، نشر أول هذه المجلدات في عام ١٩١٠م تحت عنوان **كهف فو دو غوم La Caverne de Font de Gaume** وقد قام بإعداده كل من بروي وكابتان وبيروني.

كذلك حـدث تحول فيـما يخص مـحتويات الملاجيء الصـخرية، فـفي عام ١٨٩٢م عثـر على تمثال عاجي مكسـور لأنثى في براسمبـوي في جنوب غرب

فرنسا، كما عثر على المزيد من تماثيل فينوس، أهمها ذلك الذي عثر عليه في فلندورف في النمسا. لقد ترسّخ فن العصر الحجري للحد الذي جعل رايناخ ينشر في عام ١٩١٣م كتابه **كتلوج فنون العصر الجيولوجي الرابع épertoire de L'Art Quaternaire**.

في عام ١٩١٢م اكتشف الأخوة بغوين Begouen كهف لونوك دو أدوبير في البرنيس، وقد استوجب الوصول إلى مجسمين لثور من الطين إزالة اثنين من الأعمدة الكلسية.

في هذه الفترة أصبح معروفاً أن إنسان العصر الحجري لم يكن فناناً فحسب، بل كان يحمل أفكاراً عن الموت والحياة الآخرة. ففي عام ١٨٦٨م عثر عمال كانوا يحفرون في ليزايزى لرصف خط السكة الحديدية الذي يمر من بيرغسو إلى آجن على أدوات حجرية وعظام حيوانات ومخلفات بشرية في الملجأ الصخري المعروف بكروماغنون (ويقال: إنه المكان الذي يحتله اليوم موقف السيارات الخاص بفندق كروماغنون)، قام لويس ابن أدوار لارتيه بالتنقيب في الملجأ الصخري، وفي ظهر الملجأ عثر على خمسة هياكل عظمية بشرية وإلى جانبها بعض أدوات الزينة التي تحوي أصدافاً مثقوبة. يمكن إضافة هذه المعثورات إلى تلك التي وُجِدت في أورنياك لتؤكد ممارسة عادة الدفن في العصر الحجري القديم الأعلى. أما مقبرة العصر الحجري القديم الأعلى التي وجدها بكلاند في بافلاند فقد أُرخت وقتها للفترة الرومانية/ البريطانية. وتوالت بعد ذلك اكتشافات عدد من مدافن العصر الحجري القديم الأعلى. ففي عام ١٨٧٢ بدأ ريفيير التنقيب في الكهوف التسعة في غريمالدي[١] أو باوسّي روسي بالقرب من منتون، وجد ريفيير في الكهف الرابع المسمى بغروت دو كافيون

(١) غريمالدي موقع على ساحل البحر المتوسط عند الحدود الفرنسية الإيطالية. (المترجم).

هيكلاً عظمياً مـغطى بمسحوق الهيماتيت، وكـانت الجمجمة مزينة بنـحو مئتي قطعة من الصدف المثقوب واثنين وعشرين من أنياب الغزال المثقوبة أيضاً. وفي عام ١٨٧٤/ ١٨٧٥م وجد ريفيير في الكهف (ماعرف فيما بعد بمقبرة الأطفال) هيكلين لطفلين ومـعهمـا أدوات حجريـة وبقايا حزامين في منطـقة الوسط من الهيكل، يحويان أكثر من ألف صدفة مثقوبة.

لم يكن أمـام المشككين منذ أمد طـويل إلا أن يصلوا إلى قناعة بأن إنســان العصر الحجري القديم الأعلى لم يكن فناناً فحسب، بل كان لديه ربما ما يمكن تسميته بمعتقدات دينية.

في هذه الفـترة تعرضت تـقسيـمات العـصر الحـجري إلى عدة تـعديلات وطورت أكثر من مرة أثناء هذه الفترة لتبلغ ذروتها في مقالة بروي **أقسام العصر الحـجري القـديم الأعلى ودلالاتهـا Les Subdivisions du Paleolthique Supérieur et leur Signification** التي ظهرت في عام ١٩١٢م. ظهرت مشكلة إنسان العصـر الجيولوجي الثالـث (أي الفترة التي سبـقت العصر الجـيولوجي الرابع) وذلك في عام ١٨٦٣م حينما عثر ج. دينواييه على عظام متحجرة عليها بعض الخطوط في سـان برست بالقرب من شـارتر، في طبقـات ترجع إلى العـصر البلايوسيني[1].

وفي عام ١٨٦٧م عثـر الأب بورجوا على ما ادعى أنها أدوات حـجرية من العصر البلايوسيني في موقع سـان برست وأخرى من العصر المايوسيني[2] في تيناي (لوار ـ أي ـ شر). هذه وغيرها من المعثورات التي ادعى أنها تؤكد وجود

(١) عصر مناخي ساد خلال الفترة من ١٢-٥ر٣ مليون وهو آخر حقب العصر الجيولوجي الثالث. (المترجم).

(٢) عصر مناخي يغطي الفترة بين ٢٥-١٢ مليون سنة. (المترجم).

إنسان أثناء العصر الجيولوجي الثالث[١] وصفت بأنها أدوات حجرية بدائية تمثل فجر الصناعة الحجرية، وقد أثارت هذه جدلاً ظل محتدماً لفترة طويلة حول صحة هذه الأدوات. ولعل الأعمال الآثارية التي تمت خلال العقدين الأخيرين في تنزانيا وكينيا وأثيوبيا التي كشفت عن مخلفات قديمة؛ لا تدع مجالاً للشك في وجود الإنسان في العصر الجيولوجي الثالث، أما عن استعمال الإنسان لتلك الأدوات التي سميت في فرنسا بفجر الصناعة فسيبقى محل تساؤل. لقد أفرد دو مورتييه حقبة لهذه الأدوات سماها الترتيارية أو الإيوليثية ووضعها في أول جدوله لحقب ماقبل التاريخ.

كانت هناك مناقشات عديدة حول تلك المخلفات التي ترجع إلى نهاية العصر الحجري القديم أو بداية العصر الحجري الحديث. إن نظام العصور الثلاثة الدنماركي الذي عدّله لوبك إلى نظام عصور أربعة يظهر فجوة واضحة بين العصر الحجري القديم والحديث. وقد أصبحت هذه حقيقة يعمل بها في الدراسات الأوربية في هذا المجال. فالصيادون الماجدلينيون[٢] في العصر الحجري القديم الأعلى كان يفترض أنهم تتبعوا الرنذير المتراجع شمالاً، وأن حضارة العصر الحجري الحديث بفؤوسها المصقولة وحيواناتها المستأنسة ومعرفتها بالزراعة وصناعة الفخار قد جاءت من آسيا إلى أوربا غير المأهولة بالسكان آنذاك. وأعتقد أن الفجوة أو «الفراغ القديم» بين العصر الحجري القديم والحديث كاملة؛ إذ أشار علماء ماقبل التاريخ الفرنسيون إلى وجود طبقات

(١) ساد العصر الجيولوجي الثالث Tertiary بين ٦٨- ٥ر٣ مليون سنة من وقتنا الحالي. (المترجم).

(٢) سادت الثقافة الماجدلينية في فرنسا وإسبانيا بين ١٥- ٨ ألف ق.م. وهي تمثل قمة التطور الثقافي لثقافة العصر الحجري القديم الأعلى في أوربا. تميزت الماجدلينية بأدوات مثل الحراب والخطاطيف المصنوعة من العظام والقرون واشتهرت كذلك بفنون الكهوف. (المترجم).

خاليـة من المعثـروات في بعض المواقع بين الثقـافة الماجـدلينية وثقـافات العـصر الحجري الحديث، دليلاً جيولوجياً وبرهاناً لا يقبل الجدل على هذا الفراغ.

في الربع الأخير من القـرن التاسع عشر كشـفت في بعض المواقع في فرنسا مخلـفات تؤرخ لما بعد المـاجدلينيـة ولكنها سابـقة لثقـافات العـصر الحـجري الحديث. كيف يمكن وضع مـواقع مثل مرزيل، فير ـ ان ـ تـاردنوا لتجد مكاناً في نموذج لارتييه ـ دو مورتييه للتسلسل الثقافي؟ وأين هو مكان الثقافة الأزيلية والتاردينوسية[1]؟

بعد ذلك اقتـرحت فترة العصر الحـجري الوسيط Mesolithic لتملأ الفراغ بين العصر الحجري القديم والحـديث. خاطب هودر فستروب Hodder West-ropp المعهد الملكي للعلوم الاجتماعية في عام ١٨٦٦م (بعد عام من نشر كتاب لوبك **أزمان ماقـبل التاريخ Prehistoric Time**) مقتـرحاً تقسيم تلك الـفترة من ماضي الإنســان، التي استعمل فـيها أدوات حجـرية على عصر حجـري قديم ووسيط وكينولثك Kainolithic . وقد شرح فكرته هذه في كتابه **حقب ماقبل التـاريخ أو مقـالات أولية في آثار مـاقبل التـاريخ Prehistoric Phases, or Introductory Essays in Prehistoric Archaeology** الذي ظهـر في عـام ١٨٧٢م. وقد ضمت الحقبة التي سماها العصر الحجري الوسيط أو «مرحلة الصيد» تلك المخلفات من الدوردوين التي نسـبها لارتييه وكـرستي للعصر الحـجري القديم الأعلى إلى جانب المخلفـات التي وجدت في رديم طبقـات المطابخ القديمة في

(١) الثقافة الأزيلية Azilion هي إحدى ثقافات العصر الحجري الوسيط في شمال إسبانيا وجنوب غرب فرنسا، ويعـتقد أنها تطورت من الثقـافة الماجدلينية وتتمـيز صناعتها بخطـاطيف عظمية وتؤرخ إلى الألف التاسع ق.م. أما الثقـافة التاردنوسية Tardenoision فقد سادت في نهايـة العصر الحجري الوسيط في غرب أوربا ووسطها وتميزت بأدوات حجرية قزمية. (المترجم).

الدنمارك، كذلك أجرى مقارنة بين اقتصاد مجموعات ماقبل التاريخ الخاصة بهذه الفترة وبين اقتصاد الهنود الأمريكيين.

سرعان ما نسي الناس عبارة «كينولثك» لهودر فستروب، كما نسيها هو نفسه، أما مصطلح «العصر الحجري الوسيط» فلم يعد يستعمل. وينسب قاموس أكسفورد الإنجليزي أول استعمال لعبارة عصر حجري وسيط إلى ج. ألن براون J. Allen Brown الذي قرأ بحثاً في المعهد الملكي للدراسات الأنثروبولوجية في عام ١٨٩٢م يصف فيه بعض الأدوات الصوانية بقوله: «إلى هذه الأشكال التي يبدو أنها ترجع إلى فترة انتقالية، أود أن أطلق عبارة: "العصر الحجري الوسيط"». ومن الغريب أن الآثاريين في عام ١٨٩٢م ماعادوا يذكرون أعمال فستروب على أنه لم يمض عليها سوى عقدين من الزمان، كما أنهم لم يكونوا على علم أن أوتو تورل Otto Torell ـ وهو أستاذ في الجيولوجيا في جامعة لوند ـ قد استعمل عبارة: "العصر الحجري الوسيط" في المؤتمر العالمي للآثار والإنثروبولوجيا الذي عقد في استكهولم عام ١٨٧٤م.

وعلى أية حال؛ فبنهاية القرن كانت عبارة العصر الحجري الوسيط قد توطدت، ففي عام ١٨٩٥م أثبت رسم مقطع لحفريات بييت في مدزيل[1] أن «الفجوة القديمة» ليس لها وجود، إلا أن الوصف السليم والتقويم للعصر الحجري الوسيط بقي حتى الثلاثينيات من القرن العشرين حين نشر غراهام كلارك Grahame Clark **العصر الحجري الوسيط في بريطانيا (١٩٣٢) The Mesolithic Age in Britain** وكذلك **مستوطنات العصر الحجري الوسيط في شمال أوربا (١٩٣٦) The Mesolithic Settlement of Northern Europe**.

---

(١) مدزيل موقع على الحدود الفرنسية الإسبانية يعود إلى حقبة العصر الحجري الوسيط. (المترجم).

من جانب آخر ظل دو مورتييه يقسم العصور المختلفة على حقب مع أنه لم يتطرق إلى العصر الحجـري الوسيط. ومن الأمثلة الجيدة لتقسـيماته تلك يظهر جدول نشره في عــام ١٨٩٧م في كتابه **تكوُّن الأمة الفـرنسية Formation de la Nation Francaise**، ففي ذلك الجـدول يمثل العصر الحـجري الوسيط بالثقـافة التوراسية Tourassienne ويضع أمامهـا بين قوسين «الفجوة القـديمة». كانت نظرة دو مورتييه ورفاقـه لقضية وصف المخلفات الحجرية جيـولوجية بحتة، إذ كانوا يقسمون ماضي الإنسان في أزمان مـاقبل التاريخ على أدوار وفترات تتميز كل منها بمجاميع معينة من الأدوات.

لقـد استُنبطت تقسـيـمات مـتعـددة للعصـر الحجـري الحديث والبـرونزي والحديدي، حـيث قام الآثاري السويدي أوسكار مـونتليوس (١٨٤٣- ١٩٢١) Oscar Montelius في كتـابه **أزمـان ماقـبل التاريخ في السـويد Les emps Pre-historiques en Suede** بتبني تقسيم رباعي للعصـر الحجري الحديث في شمال أوربا، وميّز أربع فتـرات أعقبت فترة طبقات رديم المطابخ، أولهـا فترة اتسمت بالفؤوس المصقولة المدببـة، وتنعدم فيها المقابر الميغـاليثية، والفترة الثانيـة تتميز بفؤوس ذات مـقابض رفيعـه ومقابر (ميـغاليثـية فردية ذات شكل مسـتدير أو مخروط)، وهناك فترة ثالثة تتميز بفـؤوس مصقولة ذات مقابض غليظة ومقابر ذات ممرات (مقابر مـيغاليثـية لها حجـرات دفن يصل إليها عبـر ممر)، والفترة الرابعة الأخيرة تتـميز بأضرحة حجرية طويلة. لم يعط مونتلـيوس أسماء لهذه الفترات كما فعل لارتييه ودومورتييه، بل اكـتفى بترقيمها فقط، وأعطى فترات العصر الحجـري الحديث الأرقام من ١ إلى ٤، لقد كان هذا التـصور ـ مقارنة بغيره ـ مـوضوعياً، إذ لم يرتبط بفـترات أخذت أسمـاءها من مواقع في بلدان أخرى.

اقترح آثاريون إيطاليون من أمثال بغوريني Pigorini وكوليني Colini وأورسي Orsi في الربع الأخير من القرن التاسع عشر عصراً إنيوليثيكيا Ene-olithic بين العصر الحجري الحديث والبرونزي. كما اقترح المجري فون بلسكي Von Pulszky الاعتراف بعصر نحاسي. كذلك ميّز سير وليام وايلد William Wilde في **دليل الآثار في متحف الأكاديمية الإيرلندية الملكية** (دبلن ١٨٦٣) **Catalogue of the Antiquities in the Museum of the Royal Irish Academy** بين الصناعات النحاسية والبرونزية. بل واتفق مع وجهة النظر هذه عدد من الآثاريين الألمان والفرنسيين، أما شانتر Chantre الذي قام في بداية السبعينيات بإصدار عدد من المقالات يقترح فيها تقسيمات ثلاثة للعصر البرونزي، فقد نشر بحثاً بعنوان **عصر البرونز L'Age du Bronze** خلال الأعوام ١٨٧٥-١٨٧٦م عد فيه العصر البرونزي عصراً متكاملاً من عصور الحضارة البشرية، سبقه عصر نحاسي.

بدأ يتضح أن نظام العصور الثلاثة الدنماركي ربما أصبح في حاجة إلى تعديل آخر يسمح بإدخال عصر نحاسي أو «انيوليثك»، إلا أن هذا لم يتم بسبب كتابات مونتليوس الذي سبق وأن أشرنا إلى تقسيماته للعصر الحجري الحديث. وقد انضم مونتليوس لدائرة الآثار السويدية وهو في العشرين من عمره وعمل في المتحف القومي السويدي لخمسين عاماً. كان له إيمان عميق بضرورة تدقيق أدوات ماقبل التاريخ ووصفها وتصنيفها للحد الذي يمكن عده مؤسس علم تصنيف ماقبل التاريخ. لقد صنف أدوات ماقبل التاريخ حسب شكلها وتصميمها وزخرفتها بدقة متناهية، ثم ركّز بعد ذلك على أهمية دراسة العلاقة بين هذه الأدوات التي وصفت وصنفت بطريقة جيدة، بعد أن أخذ في ترتيبها مرتكزاً على التغيّر في الشكل والتصميم والزخرف. الحق أن فكرة التصنيف

وترتيب الأدوات على أساس تطوري حسب أصنافـها كان قد ابتدعهـا فارسيه؛ إلا أن مونـتليوس طوّرها وحـسّنها للحـد الذي مكنته من وضع جـدول زمني لتطور الأدوات الأسكندنافية.

بعد أن قام مونتليوس برحلات مكثـفة ودراسات آثارية مقارنة في كل أنحاء أوربا وشرق المتوسط؛ اقترح تقسيمات مفصلة للعصر البرونزي أعطى كلا منها رقماً، أولها البرونـز "١" وكان في حقيقته هو العصر النـحاسي الذي اقترحه بلسكي ووايلد وهو كذلك عصـر الإنيوليثك الذي اقترحـه الإيطاليون. نشرت هذه المقترحات ضمن مقـالات ومؤلفات خلال الأعوام ١٨٨٥ و١٩٠٤م. وقد ميّز خمسة حقب في العـصر البرونزي لشمال أوربا من ١ إلى ٥. وعند تطبيق نظامه هذا على إيطاليـا ميّز أربع[1] حقب بتـقسيم الفترة الأولـى فترتين: ١(أ) العصـر النحاسـي و ١(ب) العصر الـبرونزي المبكر. كـان استـعماله لـلأرقام لوصف الفترات ـ الذي ارتكز على مجمـوعات من الأدوات ـ محاولة للخروج من نظام الأدوار الفرنسي، وكان هدفه أن يدخل إلى دراسـة العصرين الحجري الحديث والبرونزي نظاماً موضوعياً للتصنيف هو بالضرورة تقني ـ نوعي.

شهد الربع الأخيـر من القرن التاسع عشر كذلك مـحاولات أخرى لتصنيف العصر الحديدي وتقسيمه؛ ففي عام ١٨٧٢م قسّم هلدبراند Hildebrand العصر الحديدي في فترة ماقبل الرومان قسمين: مرحلة قديمة أو «هالشتات» Hallstatt ومرحلة متأخرة سمـاها «مابعد لاتيونيه» LaTéne. وفي عام ١٨٧٥م تبنى دو مورتييه التقسيم الثنائي نفسه للعـصر الحديدي، ولكنه سمى الحقبة الثانيـة منها «الغالية» أو «المارنية». وفي عام ١٨٨٥م قام أوتوّ تشلر Otto Tischler بدراسة

(١) لعلّ المؤلف يقصد ست حقب وليس أربع. (المترجم).

المادة المنسوبة إلى حقبة لاتن في فرنسا وقسمها ثلاث حقب أخرى هي: قديم ووسيط وحديث، وذلك بعد دراسة مُفصّلة للمادة الأثرية.

قام رجل أعمال فرنسي من الرون يدعى جوزيف دشلت Joseph Déch-elette بمحاولة رائدة ذكية لجمع ماهو معروف عمّا قبل التاريخ في أوربا وتحليله، وقدمه في كتابه **دليل آثار ماقبل التاريخ: السلتية والغالية - الرومانية Manuel d'Archéologie Préhirtorique, Celtique et Gallo-Romaine** الذي ظهر بعد نهاية القرن. نشر المجلد الأول باسم **ماقبل التاريخ Prehistorique** في عام ١٩٠٨م. أما المجلد الثاني السلتية: **فجر التاريخ Celtique ou Protohistorique** فقد ظهر في عدة مجلدات: **العصر البرونزي** في عام ١٩١٠م ثم **هالشتات** في عام ١٩١٣م **ولاتيون** في عام ١٩١٥م. وظهرت ملاحق لهذه المجلدات عام ١٩١٠ و١٩١٣م. وكان دشلت قد قتل في بداية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩١٤م وقام ألبير غرنييه Albert Grenier بتكملة عمله.

على أن أعمال دشلت لاتقدر بثمن إلا أنها كانت من عدة نواحٍ امتداداً لتصور دو مورتييه ومونتليوس لما قبل التاريخ في أوربا. واستمر التقليد الخاص بالتقسيم الدقيق لنظام العصور الثلاثة على أدوار وفترات، وبمرور الوقت بدأ الآثاريون يدركون تدريجياً أن تقسيم نظام العصور الثلاثة على أدوار ماهو إلا وسيلة لتصنيف مخلفات ماقبل التاريخ فقط، ولكنه لا يوضح حقيقة قصة ماقبل التاريخ. كانت المشكلة جغرافية بحتة، إذ تبين لهم عدم إمكانية تطبيق نظام تصنيف واحد على أوربا بكاملها. ومنذ عام ١٨٥٨م اقترح فارسيه أن يدرس عصر البرونز الأوربي على أساس جغرافي، وكرر هذه الفكرة بوضوح في الأعوام ١٨٧٣- ١٨٧٤م، وكذلك فعل شانتر في كتابه **العصر البرونزي L'Age du Bronge** حيث ميّز شانتر بين ثلاثة أقاليم في العصر البرونزي في

أوربا، سماها الأورالية (وتتكون من سيبريا وروسيا وفنلندا) والدانوبية (وتشمل المجر وأسكندنافيا والجزر البريطانية) ومجموعة البحر الأبيض المتوسط (وضمنها إيطاليا واليونان وفـرنسا وسويسرا). بعد ذلك وجـد دشلت أنه من غير الممكن تطبيق نظام مـونتليوس على العـصر الحجـري الحديث في مناطق غرب البـحر الأبيض المتوسط وغرب أوربا. قام كابتان بدراسـة للعصر الحجري الحديث في فرنسا حيـث ميّز خمس مجموعـات سماها: المرحلة البدائية (للعـصر الحجري الحديث) والنوردية والكامبينيـة والميغاليثية، وأخيراً مجـموعة المستوطنات التي تكونت حول البحيرات.

في عام ١٩٠٩م عثـر برويْ وأوبرماير Obermairer في غروت دوفال على مـقربة من غـبـاخـه (سانتـاندر) على مـخلفـات أزيلية إلـى جوانب أخـرى تاردينوسـية. وبـعد هـذا تبـين أن الأزيليـة والتـاردينوسية ليستا أدواراً متـعاقبة في العصر الحـجري الوسيط؛ وإنّما مجـاميع أدوات متزامنة في الفـترة ذاتها. وماقيل هنا عن العصر الحجري الوسيط ـ أي معاصرة بعض الأدوار الافتراضية لبعضـها ـ يمكن أن يقال عن المراحل التقنيـة الرئيسة الأخرى في حـقب ماقبل التاريخ.

سلطت الاكتـشافات الآثارية في اليـونان وجزر بحر إيجـة المزيد من الضوء على قضية التصنيف لحقب مـاقبل التاريخ في أوربا. كان تصنيف المخلفات في هسارلك Hissarlik (طروادة Tory) بواسطة شليـمان Schliemann محـاولة موضـوعية قـامت على تعاقب الطبـقات (الإستـراتغرافيـا) وتجنبت استعـمال تقسيمـات «العصر البرونزي» و«العصر الحديدي». وفي منطقـة بحر إيجة كان الاتجاه هو أن تنسب المخـلفات إلى العصـر الموكيني وماقـبل الموكيني وفـترات أخرى تحـمل بعض الأسماء. عندمـا درس آرثر إيفانز Arthur Evans حضارة

العصــر البرونزي العظيمــة في كريت ســماها المينوية Minoan نسبة إلى الملك مينوس Minos الذي تتحدث عنه الأساطير، ثم قام بتقسيمها على أقسام ثلاثة مبكر ووسيط ومــتأخر، وكل قسم في داخله ثلاثة أقسام أخــرى. وعندما نشر معثوراته الخاصة بالفترة السلتية المتأخرة من إيلسفورد في كنت عام ١٨٩٠م عد الأقوام الذين دفنوا هناك مجموعة قائمة بذاتها ضمن حقبة لاتن.

هل أصبح نظام العــصور الثلاثة الذي كان أساســاً لكل عمل أثري آيلاً إلى الزوال؟ ولم يعد نظاما ملائماً للماضي؟ وهل استوفى أغراضه؟

ظنّ البعض أنّه كان منذ البداية نظاماً غير ملائم لوصف الماضي البشري، أو هو على أحسن الفروض مناسب فقط للتصنيف المتحفي. لقد جاء القرن التاسع عشر بعدة تصنيــفات للماضي البشري لا تستند على التــقنية وإنّما على تسلسل مقترح للتطور الاقتــصادي. بشّر كوليردج Coleridge بأن: «التطور من مرحلة الوحشــية إلى المدنيــة يظهر بــجلاء في التقــدم من مرحلة الــصيد إلى مــرحلة الرعي». وفصَّل سفن نلسون Sven Nilsson أربع مراحل في الماضي البشري، هذه المراحل الأربع لتطور المجتمع أصبــحت معروفة على نطاق واسع في أوربا الغربية حين نشر لوبك ترجــمة لكتاب نلسون **سكان أسكندنافيــا البدائيون The Primitive Inhabitants of Scandinavia** وذلك في عام ١٨٦٧م.

اعترف ســير أدوارد تايلر Edward Tylor بالنظام الدنماركي واتفق معه على أن العصر الحجري هو بداية تطور الحضارات البشرية في حقب ما قبل التاريخ، إلا أنه اقترح أن نميّز بين ثلاث مراحل شهــدها الماضي البشري وهي: الوحشية والبربرية والمدنية. عرَّف تايلر البربرية في كتابه **الأنثروبولوجيا: مقدمة في دراسة الإنســـان Anthropology: An Introduchion to the Study of Man** (١٨٨١)

على أنها تبدأ بمـعرفة الزراعة. أما المدنيـة فقد ربطها بالمعـرفة بالكتابة[١]. أما لويس هـ. مورغن L. H. Morgan عالم الأنثـروبولوجيا الأمريكي فـقد عرَّف هذه المصطلحات في كتابه المجتـمع القديم: أو أبحاث في خطوط التطور البـشري من الوحشـية عبر البـربرية إلى المدنية (١٨٧٧) Ancient Society: or Researches in the Lines of Human Progress from Savagery through Barbarism to Civlization . اعترف مـورغن أن نظام العصور الثـلاثة التقني كان مفـيداً في نواحٍ معينة مثل تصنيف الأدوات، إلا أنّه كان يعتـقد أن الاقتصاد يعطينا أسساً أفضل، وقدّم سبع فترات (عرقيـة) تتعلق بالزيادة التدريجية في مصادر الغذاء، وهي كما يلي:

١- الوحشية السفلى، من ظهور الإنسان إلى اكتشاف النار[٢].

٢- الوحشية الوسطى، من اكتشاف النار حتى ابتكار القوس والسهم.

٣- الوحشية العليا، من ابتكار القوس والسهم إلى ابتكار الفخار.

٤- البربرية السفلى، من ابتكار الفخار إلى استئناس الحيوان.

٥- البربرية الوسطى، من استئناس الحيوان إلى صهر المعادن.

٦- البربرية العليا، من صهر المعادن إلى بداية الكتابة.

٧- المدنية، من بداية الكتابة ومابعدها.

اعتمـد مورغن في تصنيفـه على النظام المعمول به في العالم الـقديم، وقد اختلفت معاييره قليـلاً للفترات العرقية في أمريكا حيث لايوجـد عصر معدني

(١) أدوارد تايلر (١٨٣٢- ١٩١٧) هو أحد أشهـر الأنثروبولوجيين البريطانيـين في القرن الماضي. عرَّف الحضارة بأنها ذلك «الكل المركب». يعد كتابه الحضارة البدائية **Primitive Culture** الذي نُشِر عام ١٨٧١ أحد أهم المؤلفات الأنثروبولوجية في حينه. (المترجم).

(٢) لعل المقصود باكتشاف النار هنا هو اكتشاف طرق إشعالها ومن ثم التحكم فيها. (المترجم).

ولم يعرف استئناس الحيوان. لقد ميّز بين المدنيات القديمة في مصر وجنوب غرب آسيا والعالم الكلاسيكي من ناحية، وبين المدنيات الحديثة التي يعيش فيها هو من ناحية أخرى.

اعتقد مورغن ـ كما فعل دانيال ولسون من قبله ـ أن هذه الحقب ذات طابع عالمي، وأنها تظهر تسلسلاً تطوّر بشكل طبيعي في أماكن مختلفة، إلا أنّه أيقن أن ما تظهره من تشابه في المتحجرات لايعني بالضرورة تزامنها في كل أنحاء المعمورة. كتب يقول: «إن الظرف هو الحقيقة المادية، أما الزمن فهو غير مادي». لقد كان تصوره صارماً وغير مرن شأن تقسيمات نظام العصور الثلاثة، ولم يكن هذا التصور مهتماً في تفاصيله بالأدوات والآثار الشاخصة، إلا أنه قد لايتعارض بصورة أساسية مع السجل الأثري. كما أنه اكتسب شهرة وقبولاً لأن إنجلز[1] Engels تبناه وطوره، ووصفه في كتابه **أصل العائلة** (١٨٨٤) **The Origin of the Family** بقوله: «إن مورغن ـ بخبرته الواسعة ـ كان أول إنسان يحاول أن يقدم تصوراً واضحاً لما قبل التاريخ».

ولم يكن هذا صحيحاً؛ إذ إن فضيلة النموذج التقني الدنماركي هي أنه قدّم تصوراً واضحاً لما قبل التاريخ. إن القيمة والأهمية والجاذبية التي اكتسبها مشروع مورغن تكمن ـ بالنسبة للكثيرين ـ في استعماله نموذجاً لفترات افتراضية ترتكز على موارد الاقتصاد المعيشي، إذ يبدو أنه تغلب على المحدودية الظاهرية والحقيقية لآثار ماقبل التاريخ الكامنة في كونها توقفت عند وصف الحضارة المادية لماضي البشرية.

(١) فردريك إنجلز (١٨٢٠- ١٨٩٥م) فيلسوف ألماني عاصر ماركس وأسهم معه في بعض أعماله. (المترجم).

وماكان مهماً ـ سواء أقُبل نظام العصور الثلاثة الحجري والبرونزي والحديدي أم نظام مورغن الخاص بالفترات العرقية ـ هو إيجاد طريقة لتأريخ التطور التقني والاقتصادي للإنسان. لقد حاول فارسيــه تقديم تواريخ عامة للعصرين الحجري الحديث والبرونزي في أوربا على أساس تزامنهــا مع الأدوار الحضارية في شرق المتوسط ومصر. كــان بيتري وآثاريون آخرون قد ذهبوا بعــيداً في إقامة تسلسل تاريخي مطلق لمنطقة بحر إيجــة والحضارات الموكينية بمقابلتهــا بأحداث تاريخية في مصر[1]. وحاول مونتليوس أن يوسع من استــعمال هذه الوسيلة عبر أوربا لتشمل إيطاليا وفــرنسا وبريطانيا وأسكندنافيا، وقدم مــثلاً لمنهجه هذا في بحث نشره في مجلة أركيولوجيا في عام ١٩٠٩م، حين ذكر أن العصر البرونزي في بريطانيــا قد استــمر ١٧٠٠ عام مــن ٢٥٠٠ ق.م. إلى ٨٠٠ ق.م. ثم حدد تاريخاً لكل من فتراته الخمس على النحو التالي:

(١) (العصر النحاسي) من ٢٥٠٠ ق.م. - ٢٠٠٠ ق.م.

(٢) من ٢٠٠٠ ق.م. - ١٦٥٠ ق.م.

(٣) ١٦٥٠ ق.م. - ١٤٠٠ ق.م.

(٤) ١٤٠٠ق.م. -١١٥٠ ق.م.

(٥) ١١٥٠ ق.م. - ٨٠٠ ق.م.

لقد أدهشت هذه التقســيمات الناس وقتها ولا تزال تثيــر دهشتهم، إذ كيف تجرأ مونتليوس على تقديم وتنقية نظام تاريخي يصل في تحديده إلى فترة نصف القرن مثل ١٦٥٠ و١١٥٠ ق.م. بقيت وسيلة التاريخ بالمقابلة Cross- dating تستعمل حــتى ابتكار وسيلة التاريخ بالكربون المشع (C14) بعد الحرب العالمية

(١) وذلك عبر وسيلة التاريخ بالمقابلة Cross-dating. (المترجم).

الثانيـة، ولاتزال تستعمل بواسطة أولئك الذين يتشككون في دقة الكربون -١٤ أو وسيلة التوهج الحراري[١] (Thermoluminescence (TL للتأريخ. والحق أن معظم هذه التواريخ هي تخمينات، إلا أنها تخمينات أشخاص مؤهلين أكثر من غيرهم في هذا المجال، ومع ذلك فقد كانت تنطوي على بعض المخاطر. فبعد ثلاثين عاماً جاء غردون شايلد Gordon Child الذي كان حوارياً متحمساً لفكر مونتليوس في كثير من الأوجه ليقـر آسفاً أنه ما من تأريخ فيما قبل تاريخ أوربا البربرية سابق لـ ١٧٠٠ق.م. يمكن الاعتماد عليه.

كانت مـشكلة التسلسل التاريخي المطلق واحـدة من المشكلات التي شغلت الآثاريين خلال القـرن التاسع عشـر، أما المشكلة الثانيـة فكانت كيفـية تفسـير التـحـول الحضـاري. وظهـرت هذه المشكـلة في الكتـابات المبكرة لطومـسن وفارسيه، وبالأخص قضية التعاقب الحضاري في أسكندنافيا الحجري والبرونزي والحديـدي؛ هل كانت تطوراً طبـيعـياً مـحلياً أم هي نتـيجـة لغـزو أو تجارة؟ الآثاريون الدنماركـيون الأوائل لم يؤيدوا فكرة أن هذه العـصور الثـلاثة تشكل تسلسلاً طبـيعياً في أسكندنافـيا، وكان فارسـيه على استعـداد دائم للحوار في قضـية أن العصـر البرونزي في الدنمارك لم يتطور خطوة إثر خطوة من العـصر الحجري: «إذ إن التحول كـان فجائياً» كما يقول، «وأن حقـبة العصر البرونزي لابد أن تكون قد بدأت مع ظهور جماعات بـشرية جديدة على درجة عالية من

(١) وسيلـة التوهج الحراري هـي إحدى وسائل التـأريخ المطلق في علم الآثار، ويمكن أن تعطي تـأريخا مطلقاً للطين المحـروق (الفخار والدمى الطينيـة والطوب) وذلك بوضع المعثور الفخـاري تحت درجة حرارة عالية فتتحرر الطاقـة المخزنة (التوهج الحراري) التي تراكمت منذ أن حرق الإناء، وعند قياس هذه الطاقة المحـررة التي تتراكم بمعدل مـعروف يمكن أن تحـسب الـفترة الزمنيـة التي انقضت منذ أن حرق الاناء، فيصبح عمر الإناء عمراً للموقع. (المترجم).

الحضارة مـقارنة بالسكان السابقين لهم». كـذلك كان فارسيه يـظن أن العصر الحديدي قد جاء نتـيجـة لغـزو آخر، وكان يضع تقديراً كبـيراً للرأي القائل بأن العــارفين بصناعــة البـرونز والحديـد قد انتـشـروا من جنوب شــرق أوربا إلى إسكندنافيا بطريقــة بطيئة وتدريجية، وعلـيه فإن عبارات عصــر برونزي وعصر حجري ليس لها مدلول محدد أو تاريخ مـحدد على مستوى العالم بأسره، ثم أعلن: «أن الانتشار العالمي للمـعادن لايمكن أن يحدث إلا بالتدريج». هنا إذن في النصف الأول من القرن التـاسع عشر تكمن فكرة الانتشار والغـزو ومقابلة المعثورات التي كوَّنت لدى الكـثيرين القاعدة التي فسروا بهـا ماقبل التاريخ في أوربا، وذلك حتى منتصف القرن العشرين.

في الجانب الآخر فـإن سفن نلسون على أنه كان مـهيئاً لقبـول وجهة النظر القـائلة بأن مـوجات من الـغزاة هي التي أحـدثت التـغـيرات الحـضـارية في أسكندنافيا؛ فـقد كان لديه إيمان راسخ بأن آثار ماقبل التـاريخ بشكل عام تظهر تطوراً تدريجياً في كل مكــان. فكما أظهرت الجيولوجيـا التطور الطويل لعالم الأحياء فإن آثار ماقبل التاريخ أظهـرت التطور الطويل للإنسان. وكانت عمليتا الابتكار المستقل والتطور هما مفتاح أطروحته. يقول في كتابه **سكان أسكندنافيا البـدائيـون** (١٨٦٧) **The Primitive Inhabitants of Scandinavia** : «إن الأمم تظهر إلى حيّـز الوجود ثم تضمحل وتســقط، لكن المدنية والإنسانية تتـقدمان باطراد وتنتشران أكـثر فأكثر حـتى يأتي يوم تكون معروفة في كل بقــعة يقطنها الإنسان». من بين أمور ثلاثة طرحها دو مـورتييه في كتابه جولة **Promenades** ـ وقد انبـثقت من دراسة مــاقبل التاريخ في ذلك الوقت ـ كـانت فكرة التطور الموازي Loi du developpment similaire. إن التـعــاليم الدارونيـة الخـاصـة بالتطور العضوي كــان لزاماً عليها أن توحي للجمـيع بأن التطور العضوي لابد

أن يمتد ليشمل التطور الحضاري، ومن ناحية أخرى فإن دراسة تاريخ أوربا والشرق الأدنى قد أوضحت أنه مملوء بالغزوات والهجرات، كذلك فإن فترة مابعد الرومان في أوربا هي فترة هجرات جماعية، فقد شهدت غزو البرابرة في العصور المظلمة، أليس من المنطق إذن أن نفسّر التغييرات الكبرى التي لوحظت في حضارات ماقبل الرومان على أنها نتاج لغزوات أو هجرات مشابهة؟

كان أستاذ علم الأنثروبولوجيا الألماني أدولف باستيان (١٨٢٦- ١٩٠٥) Adolf Bastian من المؤمنين بنظرية التطور لدرجة أنه رفض قبول أي احتمال لأي نوع من أنواع الانتشار الحضاري، وأعلن أن هناك قانوناً عاماً هو أن الوحدة النفسية للإنسان في كل مكان تنتج أفكاراً متشابهة. وقد اعترف أن الظرف الجغرافي والمناخي قد يأتي بردود أفعال متباينة، وكذلك ربما كانت هناك ـ كما يبدو ذلك واضحاً ـ اتصالات حضارية في الفترات التاريخية المتأخرة. إلا أن أساس فكرة باستيان تكمن في الوحدة النفسية للإنسان ومن ثم التطور المستقل المتوازي للحضارة، لقد بشّر بكل وُضُوح بشكل من التطور مافوق العضوي Supra- organic أو الحضاري أو الاجتماعي.

رسم ذلك القاعدة لأفكار مورغن الذي يقول: «إن الجنس البشري قد بدأ مسيرته من أسفل السلم وتحسس طريقه إلى أعلى من الوحشية إلى المدنية عبر تراكم بطيء من الخبرة العملية». لقد أوضحت كل دراساته كما يقول: «وحدة أصل الجنس البشري وتشابه الرغبة عند البشر في ذات المرحلة من التقدم، وانتظام عمليات الدماغ البشري في الحالات المتشابهة للمجتمع» هذه هي الأفكار التي حملها إنجلز إلى الماركسية وأصبحت جزءاً أساساً من فكر الآثاريين الماركسيين مثل الآثاريين الروس المعاصرين.

كان مونتليوس من المناهضين لنظرية التطور وقد عمل جاهداً لإثبات أن كل

الحضارات الأوربية السابقة للرومان قد جاءت من الشرق الأدني. يقول في كتابه **الشــرق وأوربا** (١٨٩٩) **Der Orient und Europa**: «في الوقت الذي كــان فيــه سكان أوربا يفتــقرون إلى أية حضارة، كــان الشرق ـ وبالتحــديد وادي الرافدين ووادي النيل ـ يرتع في نعــيم حضارة زاهــرة، إن المدنية التي أطل فجــرها على ظلمات قارتنا بالتدريج قد بقيت مدة طويلة ظلاً باهتاً لحضارة الشرق».

شجب سالمون راييناخ هذه الـتعاليم الخاصة بتــفوق الشرق ex oriente Lux في كتــابه **سراب الـشرق** (١٨٩٣) **Mirage Oriental** وأعلن أن علماء مــاقبل التاريــخ الأوربيين ظلوا لفتــرة طويلة يبحــثون عن تفــسيــرات ساذجــة للتغــير الحضاري في ظل الغزو والانتشار من شرق المتوسط والشرق الأدنى، واستهانوا بإسهامــات السكان المحليين في التطور الحضاري، وهنا قد يكون محــقاً، وكان من رأيه أن الحضــارات المينوية والموكينية والاترسكيــة والسلتية كلها حــضارات أوربية محلية.

كان العــديد من المفكرين من أمثــال آرثر إيفانز وجــون مايرز John Myres يرفضــون قبــول هذه الثنائية في النظريات التي تتناول أصــول الحضــارة، يقول مايرز: «أن نميز بوضوح الخلفية الشرقية للأصول الأوربية ليس معناه سراب من الشــرق، كمــا أن العامل الأوربي المحلي لايخــمد عــبر مــقدرته الذاتيــة على الاســتيــعاب». كــان هنالك آخــرون يحــملون وجهــة النظر هذه: فــالآثاريون الإسكندنافيون الأوائل آمنوا بإمكانية حدوث التطور والانتشار في ذات الوقت؛ كذلك كان بت ـ ريفرز و أ. ب تايلر اللذين حددا عدة عــوامل للتغير الحضاري منها تشــابه طرق التفكيــر وقرابة الدم والتمــاذج. يقول روبرت لووي Robert Lowie في كتابه **تاريخ النظرية الإثنولوجــية** (١٩٣٧) **History of Ethnological Theory** «في معهــد الدراسات الإنثروبولوجية في لندن في نهــاية القرن التاسع

عشر تعايش التطور والانتشار جنباً إلى جنب».

كان هذا هو الحال بالنسبة لعلماء ماقبل التاريخ المعتدلين الذين يحملون أفكاراً معقولة، ولكن بالنسبة للكثيرين غيرهم في ذلك الحين وحتى يومنا هذا؛ فإن القضية الأساس هي إظهار المحورية بين التطور مقابل الانتشار، هذه إلى جانب أن الخلاف بين وجهتي النظر قد تفاقم بسبب المواقف المتشددة التي اتخذها بعض غلاة الانتشاريين.

كان من أبرز المدارس وأكثرها تأثيراً وتطرفاً في الدفاع عن الانتشارية المدرسة التي سميت بمدرسة مانشستر. جاء غرافتون إليوت اسمث (١٨٧١- ١٩٣٧) Grafton Elliot Smith الاسترالي الأصل إلى إنجلترا طالباً للطب، وأصبح أول شخص يحتل منصب أستاذ التشريح في المدرسة الطبية الحكومية في القاهرة، ثم أستاذاً للتشريح في مانشستر، وفي وقت لاحق بالكلية الجامعية بلندن. لقد بهرته مصر وأخذ يدرس المخلفات العظمية البشرية القديمة التي أخرجتها الحفريات، وكان بذلك أول شخص يقوم بدراسة مُفصّلة لأسلوب التحنيط عند المصريين القدماء. كان متيقناً بأن هذا الأسلوب غاية في التعقيد ولايبدو على الإطلاق أنه يمكن أن يكون قد طور في مكان آخر. وحين سمع عن ممارسات مشابهة للتحنيط وحفظ الموتى في مناطق أخرى من العالم، اضطر إلى القول بأن هذه لابد أن تكون قد انتشرت من مصر. قدّم نظرية ودافع عنها بقوة؛ يقول فيها: «إن الحضارة قد نشأت مرة، مرة واحدة فقط، وقد كان ذلك في وادي النيل». ومضى يقول: «إن كل المدنيات، وبحق كل تقدم خطاه الإنسان من وحشية العصر الحجري القديم هي من صنع مهاجرين من مصر القديمة». طرح أول مرة هذه التعاليم الخاصة بمركزية مصر وإيمانه المتطرف بالانتشار في كتابه **المصريون القدماء The Ancient Egyptians** الذي صدر في عام ١٩١١.

سيطر هذا الكتاب على خيـال العديد من الناس في ذلك الحين ولربع قرن بعد ذلك.

لقد شـغلت الآثاريين مشكلة أخرى؛ وهي إلى أي مـدى نستطيع استعـمال الأسمـاء القوميـة واللغوية للإشارة لحـقب ماقبل التـاريخ وجماعـاته، أمضى الآثاريون الدنماركـيون الأوائل وقـتاً طويـلاً في البحث عـما إذا كـان العصـر الحجـري يخص اللابيين[1] Lapps وأن العـصر البـرونزي يخص الفلنديين أو الفينيقـيين، وأن العصر الحديدي هو من عمل السلتـيين أو الغوط. العديد من المجموعات الأثرية في حوض المتوسط صنّفت على أساس أنها فينيقية وإغريقية - فـينيقـية وطـروادية وفريجـية ودورية وآخـيـه وسكلية وليـغـورية وإيبيـرية وخلافها[2]. كان هناك قبول عام بوجهة النظر القائلة بأن اللاتيونية وربما العصر الهالشتاتـي المتأخر من أعمال السلتيين. ويبـرز سير جون ريز John Rhys في عبارات عديدة في كـتاباته عن آثار بريطانيا مثل **بريطانيا القديمة: بريطانيـا السلتية** **Early Britian: Celtic Brtain** (١٨٨٢) فكرة أن العصـر الحجـري الحديث في بريطانيا هو من عمل الإيبيريين، وأن العصر البرونزي يخص إحدى مجموعات السلتيين أو الغويدليين، وأن العـصر الحديدي يخص مجموعـة سلتية أخرى أو البرايثونيين، ومن ثمّ أخذت مشكلة الآريين تلوح في أفق ماقبل التاريخ.

إن دراسة اللغـات المقارنة مـفتاحـاً لدراسة الماضي ترجع إلى مـايعرف الآن بالخطاب الرئاسي والمحاضرات العشـر لسير وليام جونز William Johnes التي ألقاها أمام الجـمعية الآسيوية في كلكتـا في عام ١٧٨٨م. طرح جونز فكرة أن

(١) اللابيون إحدى القبائل الإسكندنافية التي كانت تعيش على الترحال. (المترجم).

(٢) هذه مجـموعات بشـرية عاشت في حوض البحـر الأبيض المتوسط (شرق المتـوسط وآسيا الصـغرى وجنوب أوربا وجزر المتوسط).

اللغات السـانسكريتيـة والإغريقيـة واللاتينية والسلتـية واللغـات الألمانية ترجع جميعـها إلى أصل واحد. وأيّد هذه الفكرة فرانز بوب Fronz Bopp في كتابه **النحـو المقـارن** (١٨٣٣- ١٨٣٥) **Vergleichende Grammatik** حين اسـتعـمل عبارة هندي ـ ألماني، وهي عبارة اقترحها كلابروت Klaproth أول مرة في عام ١٨٢٣م. واقترح ماكس مولّر Max Mullor عبارة الآريين بديلاً يبطل استعمال عبـارة هندي ـ أوربي، إلا أن المصطلح الأخير طغى بدوره في النهـاية. أصبح ماقبل التاريخ الأوربي ينظر إليه من خـلال تحركات الفينو ـ أوغريين وبعد ذلك الآريين. إن كانت اللغـات المنتشرة من إيرلندا وحـتى أواسط آسيا قـد تفرعت جميعـها من مصدر واحد، فمن هم هؤلاء القوم وبأي مـخلفات أثرية نستطيع ربطهم؟ ومـاهو الموطن الأصلي للآريين؟ (أو الهنود ـ الأوربيين)؟ من الأمـثلة النموذجية لقضية لغات ماقبل التاريخ خلال القرن التاسع عشر كتاب آيزك تايلر Issac Taylor **أصل الآريين: سـجل لأجناس وحضارات مـاقبل التـاريخ في أوربا** **The Origin of the Aryans: An Account of the Prehistoric Ethnology and Civilization of Europe** وكتاب ت. هـ. هكسلي T. H. Huxley **القضية الآريه وإنسان ماقـبل التاريخ** **The Aryan Question and Prehistoric Man** وقد نُشرا في عام ١٨٩٠م.

مصر ووادي الرافدين:

حين توفى ماريت في عام ١٨٨٠م خلفه غاستون ماسبيرو (١٨٤٠-١٩١٠) Gaston Maspero وهو فرنـسي من أصل إيطالي ذو مقـدرات عظيمـة وطاقة فائقة. بدأ إدارته للآثار في مصر بحفريات في هرم أوناس في سقارة واكتشاف مخطوطات الهـرم الشهيـرة. وقام كذلـك بمراجعة مـحتويات المتـحف وإعادة ترتيبهـا، كما وجد الوقت لكتابة عـدة كتب للعامة عن مـصر القديمة وآثارها،

هذه الأعمــال الموجهة لــلجمهــور وعامة الناس شــجعت الكثــيرين على زيادة الاهتمام بالآثار المصرية، كما أوجدت شعبية ورواجاً في أوساط العامة من غير الآثاريين للسفر إلى مصر.

كانت الآنسة أمـيليا أدوارو (١٨٣١- ١٩٠٢) Amelia Edward واحدة من هؤلاء، فـقد قـامت بكتـابة عدد هائل من القـصص ولهـا مؤلفـات في الفن والتاريخ. زارت مصر وسورية في عام ١٨٧٣- ١٨٧٤ ونشرت بحثاً شائقاً عن رحلتهـا سمـته **ألف مـيل على النيل** (١٨٧٧) **A Thousand Miles up the Nile** وبذلك أصبح علم المصـريات هو اهتمامـها الرئيس. وأوضحت أن الحـفريات العلميـة قد أصبـحت ضرورة، وأنها العـلاج الوحيد لوقف التـخريب الواسع الانتشـار للآثار ولنهب القبور الذي كـان سائداً وقتهـا. جمعت حـولها بعض المهتمين وأنشأت في عام ١٨٨٢ «صندوق الاسـتكشافات المصرية» الذي عملت سكرتيرة له بعد أن تركت كـل أعمالها الأخرى. قدمت عـدداً من المحاضرات عن علم المصريات وقد نشرت ضـمن كتابها **الفراعنة، والفلاحـون والمستكشفون** (١٨٩١) **Pharoahs, Fellahs and Explorers** . وعند وفاتها كـانت قد أنشأت كرسـياً للدراسـات المصرية بالـكلية الجـامعيـة في لندن، وكان أول مـن احتل المنصب ـ حسب رغبتها ـ هو فلندرز بيتري.

ظلت السلطات المـصرية تحـافظ على تـقاليـد مـاريت وتحـتـفظ بالحق في الاحتفـاظ بكل قطعة أثرية تأتي من الحفريات في مـصر، إلا أنه من الممكن أن تعطي الأذونات لمـثلي الأقطار الأخرى لإجـراء الحفـريات. أنشأت «الـبعـثة الآثارية الفـرنسـية» في القـاهرة في الوقت نفـسـه الذي وُجـد فيـه «صندوق الاستكشافـات المصرية»، وبعدها أنشأت منظمات ومعـاهد بواسطة السويسريين والألمان والأمـريكان. وكـان أول من قـام بحـفـريات بتـمـويل من «صندوق

الاستكشافات المصرية» هو هنري نافيل Henri Naville، وهو سويسري تدرب على أيدي لبسيوس، وظلّ يعمل للصندوق حتى عام ١٩١٣م. منذ عام ١٨٨٣م كان فلندرز بيتري ولفترات متقطعة يعمل للصندوق حتى أنشأ «صندوق البحث المصري» الخاص به في عام ١٨٩٤م، الذي أعيدت تسميته في عام ١٩٠٦م ليصبح «مدرسة الآثار البريطانية في مصر».

كان (سير) وليام ماثيو فلندرز بيتري (١٨٥٣- ١٩٤٢م)، حفيد كابتن ماثيو فلندرز مستكشف أستراليا مولعاً بالآثار منذ صباه. يقول في مذكراته **سبعون عاماً في حقل الآثار** (١٩٣١) **Seventy Years in Achaelogy** إنه في سن الثامنة فزع من الطريقة التي أزيحت بها التربة عن فيلا رومانية في جزيرة وايت: «لقد اعترضت لأن التربة يجب أن تزاح بوصة بعد أخرى لنرى كل ما بداخلها وكيف كانت تتراكم».

كان بيتري ووالده قد أعجبا بقراءة كتاب نشر في عام ١٨٦٤م بعنوان **ميراثنا في الهرم الأكبر Our Inheritance in the Great Pyramid** كتبه شارلس بيازي سمث Charles Piazzi Smyth الفلكي الملكي في أسكتلندا وأستاذ علم الفلك بجامعة أدنبرة. وكان بيازي سمث من المغالين في تقديرهم لقيمة الأهرامات، أولئك الذين لاتزال أفكارهم ـ بكل أسف ـ تعيش بيننا. لقد اخترع البوصة الهرمية التي تساوي ٩٩,٩٪ من البوصة البريطانية، وكان يظن أن الهرم الأكبر يقف في مركز العالم وأعلن أن مقاييسه للهرم: «استخدمت وحدة قياس مناسبة بُذل فيها جهد من الصبر، وأصبح من السهل أن أظهر أبعاد المسافة إلى تمبكتو، أو أن أحصى متوسط وزن سمكة الزينة».

من حسن الطالع أن فلندزر بيتري لم يشغله شغف الأهرام وقام في النهاية بأول مسح دقيق للأهرامات، إلا أنه بدأ عمله مساحاً آثارياً في بريطانيا، وقد

نشرت بعض نتائجه في كتاب استون هنج (١٨٨٠) **Stonehenge**.

وحين وجـد تمويلاً من صندوق الاستكشافات المصـرية كتب إلى الآنسـة أدوار: «إن التنقيب عن الآثار في مصـر أمر شـائق بالنسبـة لي وآمل أن تأتي النتائج مبررة لقيامي بهـذا العمل»، وقد جاءت كذلك بلا شك. بدأ العمل في تانس في عام ١٨٨٥م واستمر في التنقيب عامـاً بعد عام، وكـان يختم كل موسم بنشـر أبحاثه وبمعـرض عام في لندن. أقـيمت معظـم هذه المعارض في القاعة المصرية في بيكادلي التي سبق أن استعملها بلزوني، ومن أشهر اكتشافاته بقايا تل العـمارنة ورسائل تل العـمارنة والفخـار الموكيني وماقـبل الموكيني في قروب وكاهون، واكتشاف حضارة ماقبل الأسرات في مصر.

زار بيتري في عام ١٨٩١م موكيناي[1] لاختبار تاريخ قروب وكاهون، وهنا قام بمساعدته تلمـيذه السابق أرنست قاردنر Ernest Gardner الذي كان وقتها مديراً للمدرسـة البريطانية في أثينا. وهناك لاحظ التأثيرات المصـرية حيث عثر على أدوات مصـرية في موكيناي تنتـمي جميعـها للأسرة الثامنة عـشرة. وفي كاهون عثـر على ما سـماه فخار أيجي أو فـخاراً من فجر الحضارة الإغـريقية مخلوطاً بفـخار يرجع للأسرة الثـانية عشـرة، وقد أوجد تطابقـاً في حالتين، إحداهما بين فخـار فجر الإغريق والأسرة الثانية عشـرة من ناحية، والآخر بين الموكينية والأسرة الثامنة عشرة مـن ناحية أخرى. أعلن بعد ذلك أن الحضارات الإيجية قـد ظهرت إلى حيّز الوجود في حـوالي عام ٢٥٠٠ ق.م. أما تاريخ الحضارة الموكـينية المتأخرة فيتـراوح بين عام ١٥٠٠ق.م. و١٠٠٠ ق.م. لقد كانت هذه المقارنة عملاً متميزاً يتم بوسيلة التأريخ بالمقابلة، كما أنها الأولى من

(١) موكيناي Myceane هي الاسم، أما موكيني Mycenaean فهي الصفة. (المترجم).

نوعها في مجال علم الآثار المقارن. ذكر قاردنر: «أن ماقام به بيتري في أسبوع واحد يفوق ماقام به الألمان في عشر سنوات لإيضاح الأمر اعتماداً على أسس مصرية». كما أن بيتري حين نظر إلى الوراء في عام ١٩٣١م لتقويم ما قام به في مجال التسلسل الزمني المطلق للإغريق ذكر أن: «هناك القليل الذي يمكن تغييره في الإطار الذي أمكن التوصل إليه مع أن أربعين عاماً قد مضت على ذلك العمل». ومن الأمور التي لم تنل حظاً من الاهتمام أن بيتري قد أطلق بثقة وصدق على الفخار المستورد الذي عثر عليه في كاهون عبارة: «الإيجي» أو: «فخار فجر الحضارة الإغريقية» في وقت لم يكن هذا النوع من الفخار قد عثر عليه أو قد وصف في إيجة نفسها!

تجيء معرفتنا بحضارة مصر في فترة ماقبل الأسرات من أعمال بيتري في نقادة وبلاص في عام ١٨٩٤-١٨٩٥م، وفي ديوسبولس بارفا (هو) في عام ١٨٩٨-١٨٩٩م. تبين أن نقادة تحوي مقبرة لما قبل الأسرات فيها ٢٠٠٠ قبر، وقد أطلق اسمها «حقبة نقادة» على تلك الفترة مما قبل التاريخ في مصر. لقد رفض المتحف البريطاني بكل أسف طلباً من بيتري لحفظ أصناف الفخار من نقادة بحجة أن المادة من فجر التاريخ أكثر من كونها تخص ماقبل التاريخ، وعليه فقد ذهبت المادة للمتحف الأشمولي. وفي كتاب **ديوسبولس بارفا Diospolis Parva** (١٩٠١) رتّب بيتري فخار ماقبل الأسرات المصرى حسب تقنيته بما سماه التاريخ بالتسلسل[١] Sequence dating. لم يكن من أنصار أي

(١) عرف هذا الأسلوب بالتتابع Seriation أيضاً، وهي وسيلة آثارية بحتة تخدم التأريخ النسبي في علم الآثار وتعتمد على ترتيب المعثورات من النوع الواحد في شكل تتابعي تطوري عبر الزمن، مستندة على حقيقة أن الحضارة البشرية في تطور دائم، وأن الطرز تظهر ثم تنتشر قبل أن تضمحل وتختفي، تعود أصول هذه الوسيلة إلى نظام العصور الثلاثة لطومسن ومن بعده فارسيه ومونتليوس وإيفانز، قام بيتري بتطويرها وتطبيقها على فخار ماقبل الأسرات في مصر، وجاءت بنتائج عظيمة. (المترجم)

من النظم التي تفـرعت من نظام العـصور الثـلاثة. كـان نظامه مـرتكزاً على التسلسـل النوعـي لفخار ماقبل التاريخ. بدأ السلسلة بـ س. د.: ٣٠ مفترضاً ـ وقد كـان مُحِقّـاً ـ: «أن أقدم مواد ماقـبل التاريخ لم تُكْتَـشف بعد»، وتابع التسلسل إلى فترة الأسرات في س. د.: ٨٠. كتب عن نظامه هذا يقول: «إن هذا النظام يعطينا القـدرة على التعامل مع مادة مـاكان لها أن تؤرخ بغـير تلك الطريقة... ليس هنالك من سبب يحول بيننا وبين دراسة عصور ماقبل التاريخ التي توجد مجموعات من مخلفاتها، بالثقة والوضوح نفسه الذي نتعامل به مع العصـور التاريخية ذات التـاريخ المسجل». تفاؤله هذا ليس له مـايبرره، ونظام التأريخ بالتسلسل الذي بشـر به لم يتبناه العلماء بصورة عامة، لـكنه كان عملاً بارزاً وابتداعاً مثيراً خدم غرضه فيما يختص بالمادة الأثرية المصرية.

في عام ١٨٩٢م نشر بيـتري كتابه **عشر سنوات مـن الحفريات Ten Years of Digging**، وفي عـام ١٩٠٤م نشـر **وسـائل علـم الآثار وأهدافـه Methods and Aims in Archaeology**، الذي أوضح فيه خططه من التـاريخ بالمقابلة والتاريخ بالتسلسل إلى جانب مبـادئ المسح والحفريات الآثارية وكيفيـتها. لقد اشـتكى من أن صنـدوق الاسـتكشـافات المصـرية لم يقـدم له أي تدريب أو نصح، وكان علـيه أن يجيء بطرق ووسـائل من عنده وكان عـمله: «مسـألة اقتـحام لمجالات جديدة في علم الآثار».

ذكر أن طريقته قد اعتمدت على المبادئ الأربعة التالية:

١- الاهتمـام بالآثار المنقبة واحتـرام زوار ومنقبـي المسـتقبل.

٢- الاهتمام بالتفاصيـل أثناء الحفر وجمـع ووصـف كل ما يعثر عليه.

٣- المسح والتخطيط الدقيق المفصّل للمباني الأثرية والحفريات.

٤- نشر كامل للنتائج بأسرع ما يمكن.

كذلك بدأ دراسة علمية للمواد التي استعملها الإنسان في فترتي ما قبل التاريخ وفجر التاريخ، وأوضح أنه على الآثاريين دراسة كل تفاصيل المادة الأثرية من لون وطراز إلى جانب المسائل التقنية للأدوات.

كان فورتفانغلر Furtwangler قد طوّر دراسة الفخار الملون والمزخرف بوصفه وسيلة لقياس الزمن في علم الآثار. وفعل بيتري الشيء نفسه بالنسبة للفخار غير الملون حيث بدأ يتفهم هذه الطريقة حينما كان يجري حفريات في نوقراطيس Naucratis خلال الثمانينيات من القرن الماضي. إلا أن الفضل يرجع إلى حفريات قام بها في تل الحسى في فلسطين عام ١٨٩٠م، أضاءت الطريق أمامه للتعامل مع هذه القضية المعقدة. في هذا التل كان يتعامل مع ستين قدماً (حوالي ثمانية عشر متراً) من الركام الحضاري، وكانت مقسمه على طبقات تتميز كل منها بنوع من الفخار على أن نوعيات الفخار والطبقات لايسيران على نسق واحد كما لاحظه، استطاع كذلك أن يزامن بعض طبقات تل الحسى مع طبقات لأسرات مصرية، وعليه تمكن من إقامة تسلسل مطلق لطبقات ذلك الموقع التي يبلغ عمقها ستين قدماً. كان ذلك أيضاً عملاً يضارع في أهميته التاريخ بالمقابلة الذي قام بها في موكيناي. وماقام به في تل الحسى كان إنجازاً رائداً في دراسة المواقع السطحية التي تحوي معثورات من فترات مختلفة، وكان عملاً متقدماً على ما قام به شليمان ودوربفلد في طروادة.

لقد كان بيتري أحد العمالقة في حقل الآثار، والطرق والوسائل التي اتبعها والحفريات التي قام بها تجعل من الربع الأخير من القرن التاسع عشر عصر إنجاز بالنسبة للآثار المصرية.

خلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر، وبعد فترة ركود أعقبت اندلاع حرب القرم، عاد الاهتمام الغربي لآثار مابين النهرين، فأصدر جورج اسمث

George Smith ـ وهو موظف صغير بقـسم الآثار الآشورية بالمتحف البريطاني ـ عام ١٨٧١م كتابه **تاريخ آشور بنيبال مـترجم من المخطوطات المسمارية The History of Ashur- Banipal translated fom the Cuneiform Inscriptions** وفي العام التالي ـ وبينمـا كان عاكفاً على ترجمة ألواح طينيـة من مكتبات نينوى ـ عثر على نقش غير مكتمل يحوي عبـارة تقول: «لقد رست السفينة على جبال نزور» ويمضي المخطوط يتحدث عن إرسال حمامـة فشلت في العثور على مرفأ قريب، يقول اسمث: «على الفور أيقنـت أنني قد عثرت على جزء على الأقل من قصة الكلدانيين عن الطوفان». عـثر اسمث على أجزاء أخرى من المخطوط واستطاع ترجـمة النص البابلي لقصـة الطوفان وقرأوها أمام الجـمعية الإنجـيلية للآثار في عام ١٨٧٢م. أثـار هذا الاكتشـاف اهتمامـاً واسعاً، وكـانت هنالك قطعة من لوح الطوفان ماتزال مفقودة، وقد قدمت صحيفة الديلي تلغراف مبلغ ألف جنيه إسترليني لتـجهيز بعثة يقودها سمـيث للبحث عن تلك القطعة. لم يكن سمث منقبـاً مدرباً، كما أنه لم يسـبق له أن زار وادي الرافدين من قبل. بدأ عمله في كيونجيك في عام ١٨٧٣م، «وبرمية من غير رام» عثر على القطعة المفقودة في اليـوم الخامس من بداية عمله. قام اسـمث بأعمال حقلية إضـافية لصالح المتحف البريطاني حتى وافته المنية في حلب عام ١٨٧٧م وهو في طريق عودته بعـد موسم الحـفريات الثالـث، وكان قد أصـدر تقارير شعـبيـة حوت أعماله، مثل **مكتشـفات آشور Assyrian Discoveries والرواية الكلدانية لسـفر التكوين The Chaldeon Account of Genesis** وبذلك أصبح منافـسا لليارد في مبيعات الكتب الخاصة بالآثار.

خلف اسمث مـديراً لحفريات المتـحف البريطاني في وادي الرافـدين هرمزد راسّام Hormuzd Rassam الذي عاد لـلعمل بعـد غيبـة طويلة، كـانت آخر

حملاته خلال الأعوام ١٨٧٨-١٨٨٢م طاف خلالها في الكثير من أنحاء البلاد يحفر التلال في كل مكان باحثاً عن الكنوز والنقوش لمموليه في لندن. واكتشف في عام ١٨٧٨م في تل بلوات البوابات البرونزية الشهيرة التي تخص شالمنصر الثاني. وفي عام ١٨٨٠م بدأ حفريات استمرت لثمانية عشر شهراً في أبو حبه في جنوب وادي الرافدين، واستطاع أن يحدد ذلك الموقع على أنه صبار، وأن المعبد هو معبد إله الشمس شماس. عثر راسام هناك على عدد كبير من الألواح والأسطوانات، وفي أحد هذه النقوش تسجيل عن كيفية قيام نابونيد ـ الذي سبق ذكره ـ آخر ملوك بابل بحفريات في أساس المعبد ليكشف عن بناته الأوائل، وقد عثر على عمق ثمانية عشر ذراعاً تحت السطح على حجر الأساس الذي وضعه نارام سن ابن سارجون الأكادي «الذي لم يره (أي حجر الأساس) ملك منذ ٣٢٠٠ عام». ربما كانت هذه الوثيقة التاريخية تسجل أول نشاط آثاري قام به الإنسان.

بدأ وعي العلماء يزداد تدريجياً بوجود حضارة في واد الرافدين تسبق حضارات بابل وآشور، تلك التي نسميها الآن الحضارة السومرية، التي سبق أن عثر كل من لفتس وتايلر ورولنسون على بعض مخلفاتها. وكان أوبّرت Oppert في عام ١٨٦٩م قد سلَّم ـ مستنداً على أرضية لغوية ـ بوجود حضارة لأقوام غير ساميين في وادي الرافدين سابقة للحضارة البابلية.

أصبح السومريون حقيقة واقعة بفضل الحفريات في طلوه التي أجراها أرنست دو سارزيك Ernest de Sarzec القنصل الفرنسي في البصرة. ففي عام ١٨٧٤م أخبر بعض الأعراب دو سارزيك بوجود تماثيل حجرية في طلوه، وعليه بدأ حفرياته هناك في عام ١٨٧٧م، وواصل عمله على فترات متقطعة حتى عام ١٩٠٠م. كان يظن أن الموقع هو مدينة لاغش (لاخش) السومرية، وقد عثر على

عدة منحوتات قـديمة ترجع إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، من بينهـا التماثيل النصفيـة لغودي الحاكم السابع للاغش. يصف دليل متـحف اللوفر لعام ١٩٠١م لاغش بأنهـا تمثل: «بومـبي الآثار البـابليـة» ويعلن أوبرت أنه: «مـنذ اكتـشـاف نينوى. . . لم يتم اكتشاف يضارع الاكتشافات الكلدانية الأخيرة». إن الفضل يعود إلى أعمال سارزيك في تعريفنا بشكل واضح بفنون السـومريين القدماء وتاريخهم ولغتـهم. لقد كان مـخطئاً في زعـمه عن لاغش، إذ تبين الآن أنهـا ليست طلوه وإنّما هي تل الهبا المجاور. أما طلوه فهي قرشو Girsu القديمة (انظر سلتون لويد Selton Lioyd **آثار وادي الرافدين The Archaeology of Mesopotamia**).

نظّمت أول بعثة آثارية أمريكية لوادي الرافدين في عام ١٨٨٤م، وقد كانت بعثـة استطلاعيـة فقط، إلا أنه بعد ثلاثة سنوات بدأ بيـترز Peters وهلبرخت Hilprecht حفـريات في نيبور، انتـهى الموسم الأول بكارثة حيث أغـار رجال القبائل على المعـسكر، بعد ذلك عاودوا الحفريات مـرة أخرى في عام ١٨٩٠م واستمرت حتى عام ١٩٠٠م، وقد تمكنت البعثة من العثور على ٥٠٠٠٠ لوح مكتوب، معظمها باللغة السومرية تغطي فترة زمنية تزيد على ألف عام.

بعد عـشرة أعوام من بدء أعمـال سارزيك في طلوه قامت بعثـة ألمانية تحت رعاية جـمعيـة المستشرقين الألمان بمـسح استطلاعي لعدد من المواقع السـومرية المهمـة، إلا أنها لم تقم بأيـة حفريات كـاملة في أي منها، كـان هذا هو بداية الاهتمام الألماني الجاد بوادي الرافديـن. فمنذ عام ١٨٩٩م وحتى اندلاع الحرب في عام ١٩١٤م ظل الألمان بقـيادة روبرت كولدفي Robert Koldewey وولتر أندري Walter Andrae يحفرون بصورة شـاملة في موقعي بابل وآشور. لخّص كولدفي أعماله في بابل في كتابه **الحفريات في بابل** (١٩١٤) **The Excavations at Babylon**. لقـد جلب إلى وادي الرافـدين أساليب الحـفـريات التي طورها

الألمان في العالم الكلاسيكي، وكانت أعماله هي أول حفريات علمية مكتملة تجري في موقع كبير في وادي الرافدين.

قام ولتر أندري بحفريات في آشور من عام ١٩٠٣م إلى ١٩١٤م. هنا لم يكتف فقط بأن يجري حفريات بدقة وبمقدرة فائقة في أول عاصمة للآشوريين، بل تبنى للمرة الأولى في وادي الرافدين الحفر بواسطة نظام المجسات، اخترقت حفريات الألمان معبد عشتار وبقايا المعابد الأخرى تحته حتى وصلوا إلى المعبد السومري القديم. وصف سلتون لويد العمل الآثاري في آشور على أنه: «عمل أثاري فذ ذكي رسم الطريق للاختبارات المستقبلية القائمة على تعاقب الطبقات» **أساسات في الغبار (Foundations in the Dust: 1947: 202)**.

لقد كانت المباني التي قام الآثاريون بالتنقيب فيها في اليونان ومصر مبنية من الحجارة، أما العمارة في وادي الرافدين فكانت في معظمها من الطوب (اللبن)، وكان تتبع هذه الجدران من الأمور غير المعروفة للمنقبين الأوائل، وكان كولدفي وأندري أول من تتبع هذه الجدران المصنوعة من الطوب (اللبن) بنجاح.

الآثار الكلاسيكية:

يعزى تطور علم الآثار في اليونان وإيطاليا ـ على الأقل في النصف الأول من الفترة التي يعالجها هذا الفصل ـ إلى أعمال الألمان والنمساويين من المختصين والهواة. حفر الإسكندر كونزه Alexander Conze في ساموثريس في عام ١٨٧٣ و١٨٧٥م، وقد صحبه اثنان من المعماريين ومصورٌ إلى جانب رجل من الجيش وضعتهم الحكومة النمساوية تحت تصرفه. قام كونزه بنشر تقرير مطول كامل عن حفرياته، ووصف بأنه أول تقرير حفريات «حديث» بين أيدينا، لقد تضمن خُرُطاً جيدة الرسم وصوراً فوتغرافية، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تستخدم فيها الصور الفوتغرافية في التقارير الآثارية.

أنشأ فـرع من المعهـد الألماني للآثار في أثينا خلال العـقد الثـامن من القرن التاسع عـشر، وبدأت الحفريات في أوليـمبيا تحت إشراف إيرنسـت كورتيوس Ernst Curtius ومساعده المعماري فريدرش أدلر Friedrich Adler، هذا العمل الضخـم استغـرق زهاء خمسـة مـواسم شتوية مـن عام ١٨٧٥ إلى ١٨٨٠م. دفعت الحكومـة ٣٠٠٠٠ جنيه إسترليني كما تحـمّل الإمبراطـور وليم تكلفة الموسم الأخير. سمحت الحكومة اليونانيـة بنسخ من المعثورات للتصدير خارج البـلاد، وعليه كـان على الحكومة الألمـانية أن تتـخلى عن حقـوقهـا في المادة المكتشفة، ثم أنشئ متحف صغير في أوليمـبيا ليضم هذه المعثورات. وكسياسة ماريت في مـصر تولد هنا أيضـاً وعي آثاري ودرست طبقات أوليـمبـيا بعناية وسجّلت بالتـفصـيل، وكان دوربفلد Dorpfeld يتقـد حماسـاً من أجل تطوير طرق للتنقيب وحماية الآثار.

قادت أعمال كونزه وكورتيوس إلى حقبة ثلاثين عاماً اتسمت بتنقيبات رئيسة في الآثار الكلاسيكية، اسـتطاعت خلالها التقـاليد الألمانية التي عرفتـها مواقع سامـوثريس وأوليمبـيا أن تستـقطب ـ إلى جانب الألمان ـ الآثاريين الفـرنسيين والبريطانيين والأمريكيين والإغريق. ومـهما يكن؛ فإن الاسم الذي يرتبط عند الغالبـية بتطوير الآثار الكلاسيكية لم يكن لعـالم محترف بل لهـاوٍ أمضى جُلّ صباه وشبابه رجل أعـمال ذلك هو هاينرش شليمان (١٨٢٢- ١٨٩٠) Heinrich Schliemann. يرجع الفضل إلى هذا الـرجل في معرفـتنا الأولى الدائمة بآثار ماقبل التاريخ في بلاد الإغريق وبحر إيجة. لقد كان كما وصفه ولتر ليف Walter Loaf: «منشئ علم آثار ماقبل التاريخ في بلاد الإغريق». كانت هناك اكتـشافـات معزولة تـخص حقب ماقـبل التاريخ بين عـام ١٨٢٦م واكتـشاف طروادة، إلا أنها لـم تكن بذلك القدر الذي يذكـر، كما أنـها لم تلفت انتـباه

العلماء أو خيال العامة.

وُلِد شليمان لأب الماني كان يعمل قسيساً، أهدى ابنه بمناسبة أعياد الميلاد نسخة من كتاب يارر Jarrer **تاريخ الكون Universal History**، يحوي الكتاب صورة لطروادة وهي تحترق. ولأن شليمان كان شغوفاً بالملاحم الهومرية فقد احتفظ بتلك الصورة في مخيلته وهو يقوم بأعماله التجارية لمدة طويلة في هولندا وروسيا وأمريكا، كان متيقناً من صحة الأحداث التي ذكرها هومر. وحين بلغ السادسة والأربعين كان قد جمع ثروة هائلة فتقاعد عن العمل ليتفرغ لعلم الآثار وبالتحديد للعثور على طروادة. قام بأسفار مكثفة وحفر في إيتاكا Ithaka في عام ١٨٦٩م، ونشر كتابه **إيتاكا والبلوبنيز وطروادة Ithaca, The Pelopennese & Troy**، وفيه يشير إلى أن قبور أغاممنون Agamemnon وكلايمنسترا Clytemnestra ليست ماسمي «بالكنوز» خارج الحصن في موكيناي، ولكنها داخل الحصن وأن طروادة ليست بأسطورة وإنّما تقع في هسارلك على موقع مدينة إليون التاريخية.

بعد ذلك بعامين بدأ شليمان حفريات في هسارلك حيث أمضى أربعة مواسم (١٨٧١/ ١٨٧٣، ١٨٧٩، ١٨٨٢/ ١٨٨٣م)، ومن عام (١٨٨٩م حتى وفاته). أمضى الموسم الأول يعمل بمفرده وبمعاونة زوجته صوفيا الحسناء الإغريقية الأصل، وفي الموسمين الأخيرين استعان بخبرة دوربفلد الذي واصل العمل في طروادة بعد وفاة شليمان حتى عام ١٨٩٤م.

بين الموسمين الأول والثاني في هسارلك عمل شليمان في موكيناى وإيتاكا؛ وفي عام ١٨٨٠م عمل في كنوز ميناس في أرخومينوس Orchomenos ، وبين عام ١٨٨٤-١٨٨٥م في تيرينس. قام بنشر أعماله كاملة وبسرعة فائقة، حيث

أصدر الآثار الطروادية Trojan Antiquitees في عام ١٨٧٤، وموكيناي Mycenae في عـــام ١٨٧٦، وأليوس Ilios في عام ١٨٨. وترويا Troia في عام ١٨٨٤ وأرخومـينوس Orchomenos في عام ١٨٨٧. ظـهرت هذه المؤلفات فـي البدء باللغـة الألمانية وسرعـان ماترجـمت إلى الفرنسـية والإنجليـزية. كتب و. ي. قلادستـون الذي كان يومها رئيسـاً للوزراء مقدمـة للطبعة الإنجليزيـة من كتاب موكيناي في عام ١٨٧٧م، كما حضر اجتماع الجمعية الآثارية في لندن في آذار (مارس) ١٨٧٧م. وحين قـدم شليمان محـاضرة عن موكيناي وصل المحـاضر إلى لندن صبيحة يوم المحاضرة بعد «ثمانية أيام بلياليها من السفر المتواصل».

لقد أثارت اكتشافـات شليمان اهتماماً كبيراً وحـماساً بالغاً حتى بين أولئك الذين لم يصدقوا بحقيـقة ماعثر عليه، وكان ذلك طبيعـياً إذ إنها أول حفريات بهذا الحجم الكبير يتتبعها المثقفون على مستوى العالم بهذا الحماس.

برهن شليمان أن هسارلك هي موقع حصـين لمستوطنة مما قبل التاريخ. لقد تعرّف إلى سبع مدن ميّز الثانية منها على أنها طروادة هومر «حصن بريام» The Citadel of Priam. وفي اليوم السابق لانتهاء موسم الحفريات من عام ١٨٧٣م عثر شليمان على مجموعـة كنوز ذهبية في المدينة الثانية ادعى أنها كنوز بريام. وعلى أنه أخطأ في تحديد طروادة هومر (إذ ربط دوربفلد بعد ثلاث سنوات من وفاة شليـمان المدينة السادسـة بطروادة هومر) إلا أنه قد حـقق هدفه، وهو أنه أثبت بالدليل الأثري حقـيقة هومر. كـما أنه حقق أكثر مـن ذلك، إذ اكتشف مستوطنات تمتد لعدة قرون في فتـرة ماقبل هومر وماقبل التاريخ في هسارلك، وكذلك حضارات بربرية غير إغريقية.

وفي موكـيناي كان يأمل ـ وظن أنه قد فـعل ـ أن يعثر على قبـري أغاممنون وكلايمنسترا. قام بالحفر في الدائرة الحجرية داخل بوابة الأسد وعثر على المقابر

المعروفة الآن بـالمقابر العمودية، كـانت محتويات هذه المدافن غنيـة للغاية، إذ حوت مزهريات من الذهب والفضة، وسيوفاً مزخرفة بالذهب والفضة والنحاس والبرونز، وخواتم وأسـورة، وأسلاكاً رفيعة مـن الذهب لتزيين ملابس الموتى، وأقنعة من الذهب. كان يظن أن مـا عثر عليه يمثل عصر مـلاحم موكيناي التي تحدث عنهـا هومر. تباينت وجهـات النظر حول هذه الادعاءات، حيث قـبلها البعض من أمثال السيد قلادستـون، في حين عدها البعض مخلفات بيزنطية أو ربما كانـت من أعمال السلـت أو القوط أو الآفار أو الهـونيين[1]، أو هي دون تحديد تخص الشرقيين. أمـا كورتيوس فقد كان غـيوراً حين رأى النجاح الباهر الذي حققـه ابن بلده غير المحترف، فـأعلن كورتيوس أن أحد الأقنعـة الذهبية رسم لوجه السيد المسيح وأنها ترجع للعصر البيزنطي. جادل الكثير من العلماء في أن المعثورات ـ على كونها إغريقية وحـقيقية ـ لا ترجع إلى عصر هومر بل هي سابقـة له؛ ولقد كانوا محـقين. لقد اكتشف شليـمان في موكينـاي ـ كما اكتشف في هسارلك ـ حضارات من حقب ماقبل التاريخ.

دار جدل حول الطرق والـوسائل التقنية التي اتبـعها شليمان فـي حفرياته، حيث يعتقـد البعض أنه كان غريباً على مجال الآثار فـهو رجل بنى مجده كله على ثراء مـعثـوراته وروعـتهـا، في الوقت نفـسه رأى آخـرون أنه أول آثاري حديث. سماه اسـتانلي كاسو Stanley Casson ـ بشيء من المبالغة ـ مؤسس الوسائـل العلمية فـي علم الآثار، وقال إن أعمـاله: «تمثل إبداعاً مـن الدرجة الأولى في اسـتخدام الوسـائل الآثارية لدراسـة مخلفـات الإنسان الحـضارية» (اكتشـاف الإنسان ١٩٣٩) **(The Discovery of Man,1939,221)**. كانت أعماله

(١) الهونيون Huns أحد الشعوب المغولية التي اجتاحت أوربا في حوالي ٤٥٠ م. (المترجم).

في طروادة أول حفريات لتل أثري، وكما قـال سير جون ميرز John Myres: كانت أول حفرية بهذا الحجم لأحد مـستوطنات المناطق الجافة التي لاتدل عليها مبـانٍ على السطح كـتلك التي سهلـت المهمـة في بابل ونينوى. لقد اسـتطاع شليمان أن يثـبت إمكانية تطبيق نظام تعاقب الطبقـات في تل يحوي عدداً من الطبقات السكنية المـتراكمة. ومنذ عام ١٨٨٢م لقي مساعـدة كبيرة من دوربفلد الذي جاء ومعه نظام ومهارة الآثاريين الكلاسيكيين الألمان التي طبقت في موقع أوليمبيا.

أثار اكتشاف شليـمان لاثنين من حضارات ماقبل التاريخ غـير المعروفة على الفور أسئلة حول تأريخهما وأصلهما وعـلاقاتهما، وحينما كان يجري حفرياته في طروادة وموكيناي كانـت آثار حضارة سابقة للموكينيـة يجري الكشف عنها في قبرص والجزر الإغريقية. وفي عام ١٨٩٤-١٨٩٥م كانت المدرسة البريطانية في أثينا بقيادة سيـر سيسل سمث Cecil Smith، من المتحف البريطاني تجرى حفريات في فيلاكوبي Phylakopi على الساحل الشرقي لميلوس Melos. كان ذلك أول موقع متـعدد الطبقات يتم التنقـيب فيه في منطقة شـرق المتوسط بعد هسارلك، وقد أمدنا بتسلسل نسبي للتطور الحضـاري لحقبة ماقبل الموكينية، أو كما أخذ يطلق عليها الحضارة الكيكلادية أو الحـضارة الإيجية. كانت فيلاكوبي في أول أمرها قرية صغيـرة تشابه في محتوياتها تلك التي عثر عـليها في مقابر تابوتية عرفت من جزر كيكلادية أخرى. والطبـقة التالية من الموقع كشفت عن موقع محـصن استعمل فيـه النحاس والبرونز وتاجر أهله في الزجـاج البركاني والرخام المحلي مع بلاد الإغـريق الأم. كما عـثر على فـخار يماثل ذلك الذي عرف من طروادة -٢، وعثروا على أمثلة بدائية للمقابر العمودية. وفي المرحلة الثالثة عثر على مستوطنة تحمل سمات مستوطنات بلاد الإغريق الأم وفيها قصر

موكيني صغير.

جرت حفريات متقطعة في قبرص بدءاً من منتصف العقد السابع من القرن التاسع عشر. قام بهذه الأعمال رجال من أمثال الجنرال لويس بالما دي كسنولا Louis Palmma di Cesnola والإسكندر دي كسنولا Alexander di Cesnola وماكس أوهنفالش ريختر Max Ohnefalsch- Richter. وهؤلاء كانوا أشخاصاً غير علميين من الباحثين عن الكنوز، إلا أن النتائج التي وصلوا إليها أوضحت لبعض المراقبين ذوي الفطنة من أمثال سالومون رانياخ ودملر Dummler في العقد التاسع من القرن التاسع عشر أن قبرص قد شهدت عصراً برونزياً يشابه ذاك الذي عرفته طرواده -٢، إلا أنها تطورت في اتجاه آخر، ثم جاءت تأثيرات موكينية وطغت على العصر البرونزي المتأخر في قبرص. قام سير جون ميرز بحفريات في قبرص في عام ١٨٩٤، وفي عام ١٨٩٩م نشر مع اوهنفالش - ريختر كتلوج متحف قبرص **The Cyprus Museum Catalogue**. ثم قام كل من مري Murraye واسمث Smith وولترز Walters بنشر حفريات المتحف البريطاني في قبرص في كتاب حفريات في قبرص **Excavations in Cyprus** الذي نشر في عام ١٩٠٠م. كشفت هذه الحفريات عن مدافن غنية بالقطع الذهبية. وهي وإن لم تكن بأغنى من القبور الموكينية العمودية إلا أنها تتميز عنها بما تحوي من قطع مستوردة من مصر والشام.

لم تنشر المعثورات من فيلاكوبي حتى عام ١٩٠٤، وفي هذه الأثناء كانت اكتشافات آرثر إيفانز في كريت قد ألقت ضوءاً جديداً على خلفية الحضارة السابقة للموكينية الخاصة ببلاد الإغريق وإيجة، وركزت على العنصر الكريتي أكثر من الكيكلادي، كذلك أحرز شليمان سبقاً كبيراً بحفرياته في كريت واكتشافه للعصر البرونزي فيها، ومواصلاً لدراسة الأسطورة التي قادته إلى

طروادة؛ لاحظ أن كنوســوس في كــريت هي مــوطن المينوتور والملك مــينوس ولبــرنيث[١] Labyrinth. وفي عــام ١٨٨٣م صــدر كتــاب **بداية الفن في بلاد الإغريق Anfange der Kunst in Griechenland** للألماني ملشهوفر Milchhofer يشيــر فيه إلى نوع غريب من الأخــتام الحجرية المنحــوتة عثر عليهــا في كريت تحمل علامات تشبه نوعاً من الكتابة البدائية، وأكّد أن كريت ستثبت أنها إحدى أقدم مواطن الحضارة والفنون الاغريقية.

في العام نفسه ـ ١٨٨٣م ـ حصل شليمان عــلى إذن للحفر في كيفالا موقع كنوســوس. إلا أنه في البدء لم يجــد الوقت الكافي لذلك، وفي وقت لاحق كان الرجــل الثري قد طــعن في السن وزالت ثروته ولـم يكن بوسعــه أن يدفع تلك الأموال الطائلة التي طلبــها صاحب الموقع، وقد اســتمرت تلك المداولات بينهما حتى وفاته عام ١٨٩٠م.

في هذه الأثناء كان آرثر إيفانز ـ الذي سبق أن عين أميناً للمتحف الأشمولي ـ قد حــصل على ترخيــص للعمل في الموقع في عــام ١٨٩٤م. وفي تلك السنة طور أفكار ملشهوفــر في مؤلفه **كتــابات كريت**. وفي عام ١٨٩٨م أعلنت كريت استقلالها عن تركيــا، وفي العام التالي بدأ إيفانز و د.ج. هُغارث D G Hogarth حفريات في كيفالا.

لقد توّجت أعمــالهما بنجاح مباشــر، ففي تسعة أسابيع حــفرا مايزيد على فدانين في مبنى يرجع لحقــبة ماقبل التاريخ عرفه إيفــانز على أنه قصر مينوس. وتابع حفرياته في كنوســوس لما يزيد على خمسة وعشرين عــاماً، إلا أن معالم

(١) لبرنيــث هــو قــصــر التيــه أو المتاهة وتكثــر فيه الأزقة والممــرات وتقول الأسطورة إن المينوتور ـ وهو حيوان خرافي نصفه إنسان ونصفه ثور ـ يقوم بحراسته. (المترجم).

قصة مجده كانت قد تكونت في وقت مبكر. لقد كشف النقاب عن حضارة غير معروفة تماماً كانت قد سبقت الموكينية سماها هو المينوية. قبل الكشف عن هذه الحضارة البرونزية في كريت كان قد عثر على آثار لحضارة عصر حجري حديث في كنوسوس تمثلت في تل يبلغ ارتفاعه إحدى وعشرين قدماً (ستة أمتار ونصف)، ظهر وصف له في أول منشوراته عام ١٩٠١م، ثم أعقبه بعدة كتب خلال الخمسة عشر عاماً التالية، إلا أن التقارير الأصلية قد ظهرت في أربع مجلدات نشرت خلال الأعوام ١٩٢١ إلى ١٩٣٥م بعنوان **قصر مينوس في كنوسوس The Palace of Minos at Knossos**. قسم هذه الحضارة المينوية ثلاث حقب، قديم ووسيط ومتأخر، ولكل منهما ثلاثة أقسام فرعية، وعندما اتجه لدراسة المادة الأثرية من فيلاكوبي قسمها بالمثل على قديم ووسيط ومتأخر بحيث تتماشى الحقبة الكيكلادية مع المينوية. وكان قد أرّخ بداية الفترة المينوية المبكرة إلى ٣٤٠٠ق.م ونهاية المينوية المتأخرة إلى ١١٠٠ ق.م. وبحساب سمك التراكم قدر تأريخ بداية العصر الحجري الحديث في كريت بين ١٢٠٠٠ و١١٠٠٠ ق.م.، إلا أن التأريخ المقدر له حالياً يقع في حدود ٦٠٠٠ ق.م. على الأكثر.

كان إيفانز في بداية الأمر مشدوداً إلى الكتابات الكريتية، وفي عام ١٩٠٩م أصدر مجلده الأول الكتابات المينوية **Scripth Minoa** الذي يحوي كتابات هيروغليفية كتلك التي ظهرت على قصر فستوس والخطين الشريطيين «أ» و «ب» اللذين كانا قد نتجا عن تبسيط للكتابة الكريتيه التصويرية. منذ ذلك الحين أمكن فك رموز الخط الشريطي «ب» إلا أن الكتابة التصويرية والخط الشريطي «أ» بقيت رموزهما غير معروفة.

قوبلت اكتشافات شليمان في طروادة وموكيني بتشكك، إلا أن قلة فقط قد

شككت في أعمال إيفانز. لقـد كان الأخير عالماً متخصصـاً، قام بحفرياته بعد سنوات طويلة من البحث والخبـرة الآثارية. وجذبت حفرياته انتباه الـعالم كما فعلت الاكتشافات في آشور، وكما كان أمـر المعثورات التي عثر عليها شليمان واكتشاف مقبرة توت عنخ آمـون والمقابر الملكية في أور خلال العقد الثالث من القرن العشرين. استطاعت اللوحات الرخـامية الجدارية مثل «حامل الكوب» و «وثبة الثور» و «الجدر المغطاة برموز الفؤوس» و «الثعبان الخزفي» أن تعيد الحياة إلى الحضارة المينوية العظيمة وآثارها.

إيران والأناضول :

في عام ١٨٩١م زار جاك دي مورغن Jacqueo de Morgan أطلال سوسة في إقليم خوزستـان، واستطاع أن يقنع الحكومة الفرنسية بأهمـية هذه المنطقة. وفي عام ١٨٩٧م حـصلت الحكومة الفرنسـية على إذن من الشــاه للتنقيب في إيران، وفي تلك السنة قـامت البعـثة الفـرنسيـة في إيران باصطحاب مـورغن للتنقيب عن الآثار الفارسية. وصفت هذه «البعثة» بأنها: «ربما كانت أهم حملة آثارية تغادر أوربا» (كارلتون Careton، **إمبرطوريات مدفونة Buried Empires**، ص ٣٤) وبقيت تعمل هناك حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

في الوقت الذي كانت الحفريات تجري في سوسة؛ حفر الأمريكي ر. بمبلي R. Pumpelly والآثاري الألماني هوبـرت شـمت Hubert Schmith في عــام ١٩٠٢م، تلين هما: المستوطنة الشماليـة والجنوبية في كرجان اللتين يبلغ ارتفاع كل منهما مابين ٣٠- ٤٠ قدم (٩-١٢ مـتراً) وكذلك في أناو قرب اشكباد في تركسـتان السوفـيتـية أو عبـر بحر قزوين. وأمكن التـعرف إلى أربع طبـقات

حضارية في أناو[1] وصفت بأنها حضارات وليست عصوراً أو حقباً، وذلك ضمن التقرير النهائي لبمبلي وشمت وآخرين: **استكشافات في تركستان: بعثة ١٩٠٤: حضارات ماقبل التاريخ في أناو، الأصول والتطور وأثر المناخ Expeditions in Turkestan: Expedition of 1904: Prehistoric Civilizations of Anau: Origins, Growth and Influence of Environment**. تحتل حفريات أناو مكاناً مهماً في تطور طرق العمل الميداني في علم الآثار ووسائله. قام هوبرت شمت ـ من متحف برلين لدراسة الفولكلور الذي تدرب على يدي دوريفلد في طروادة ـ بالحفر والحفظ والتسجيل، وقام شمت بحفر حُفر عميقة في أناو يصل عمق كل منها إلى مترين في اليوم الواحد. وكانت جميع المعثورات تسجل حسب الأماكن التي وجدت فيها بكل دقة. تحوي تقارير أناو عبارات مثل: «معظم التربة تمت غربلتها للمحافظة على القطع الصغيرة» و: «أهمية اعتبار القطع التي لاتبدو ذات أهمية كدليل يحوي قصة ما، مع تسجيل موضعها الأفقي والرأسي في ترتيب الطبقات الحضارية، الشيء الذي صار ضرورياً في كل مرحلة من مراحل تحليل النتائج». درست العظام البشرية من أناو بواسطة سرقي Sergi ومولِيسو Mollison، أما المخلفات العظمية الحيوانية فقد درسها دويرست Duerst من زيورخ، وبقايا النباتات بواسطة شلنبرج Schellenberg في الوقت الذي قام فيه ف.أ. غوخ F. A. Gooch بإجراء تحليل كيميائي على القطع المعدنية، لقد كانت حفرية حديثة بحق، استطاع شلنبرج إن يميز نوعاً من القمح ونوعين من الشعير من طبقات المخلفات النباتية ومن قشور الحبوب المغطاة بالسليكا. اشتكى دويرست من أن العظام الحيوانية كانت تزن

---

(١) أناو موقع في تركستان الحالية يؤرخ إلى الألف الرابع ق.م. (المترجم).

نصف طن وأن دراستها قد أضاعت كل وقتـه حيث أمضى فيها ثلاثة سنوات. وصرّح أنه يسـتطيع أن يوضح مـرحلة انتقال كل مـن البقر الوحـشي والخنزير والضأن من أصوله البرية إلى الأنواع المستأنسة.

شهدت هذه الفترة أيضاً اكتشافات أثرية مهمة تخص الحيثيين[1]. إن معرفتنا الحديثة بـالحيثيين القدمـاء تعود إلى عام ١٧٣٦م حين اكتـشف جان أوتر Jaan Otter النقوش الحيثـية في إفريز في جنوب كابا دوسيـا. وفي عام ١٨١٢م عثر بورخارت Burckhardt على نقوش حماة، وعثر على أشياء أخرى مشابهة إلى جانب أخـتام وطبعات أخـتام وذلك في بداية القرن التاسع عـشر، إلا أن هذه المعثورات لم تقابل باهتـمام فوري حتى العقد السابـع والثامن من القرن التاسع عشـر. وفي عام ١٨٦١م أرسل جـورج بيرو George Perrot ـ أحد العاملين بتاريخ الفن ـ إلى أنقرا لكشف آثار أغسطس، ومن هـناك سافر شرقاً إلى تلال كابا دوسـيا، حيث عـثر عند قرية تركـية تسمى بوغـازكوي Boghazkoy عند منحنى نهر هالـس على بقـايا مدينة مـحصّنة تحوي تماثيل تختـلف تمامـاً عن تلك الفنون المعـروفة وقـتها مـن مصر ووادي الرافـدين أو من عالـم الإغريق والرومان الكلاسيكي، لقد اكتشف بيرو آثار حضارة أخرى لم تكن معروفة.

أعيـد اكتشـاف نقوش حـماة Hamath في عام ١٨٧٠م إلى جـانب نقوش أخرى عرفت لأول مـرة. نشر رتشارد بيرتون فـي كتابه **سورية غير المكتشـفة** **Unexplored Syria** (١٨٧٢) نسخة من تلك النقوش، كما قام دكتور و. رايت

(١) الحيثيون Hittites شعب يتحدث لغة هندية أوربية أغار على الأناضول وسيطر عليها قبيل ١٧٠٠ ق.م. عرفوا بمهارتهم العـسكرية وبصناعة الحديد. ومن عاصمتهم حاتوشـا لعبوا دوراً في تاريخ الشرق الأدنى القديم، وفي الصراع بين آشور ومصر. حاربوا رمـسيس الثاني في كادش وقد زالت سلطتهم في حوالي ١٢٠٠ ق.م. نتيجة غارات الفريجيين Phrygians من الشمال الغربي. (المترجم).

W Wright المبشر الأيرلندي في دمشق بإرسال الألواح المكتوبة إلى المتحف في القسطنطينية. وفي الوقت نفسه أرسلت نماذج من الجص لهذه الألواح إلى المتحف البريطاني الذي كان قد حصل على عدد من النقوش من جيرابلس وهي قرقميش القديمة.

أثبت بيرتون أن الكتابة التي وجدت على ألواح حماة قد كتبت بخط غير معروف، وكان بيرو قد ذكر أن تماثيل بوغازكوي تخص مجموعات غير معروفة، جاء رايت ليطرح فكرة أن هذه التماثيل والكتابات تخص الحيثيين الذين جاء ذكرهم في **العهد القديم**، وفي عام ١٨٨٤م نشر كتابه **إمبراطورية الحيثيين Empire of Hittites** جامعاً فيه كل المعلومات الآثارية المتوافرة في ذلك الحين، إلى جانب محاولة قام بها أ. هـ. سايس A H Sayce الذي كان وقتها أستاذاً للدراسات الآشورية بجامعة أكسفورد لفك الرموز الكتابية. بعد ذلك بأربعة أعوام استطاع سايس في كتابه **الحيثيون The Hittites** أن يبرز للوجود بذكاء الصورة المنسية لإمبراطورية الحيثيين.

خلال الأعوام ١٩٠٦ - ١٩٠٨م قام فريق من العلماء الألمان والأتراك تحت قيادة الأستاذ هوغو فنكلر Hugo Winckler بالتنقيب في المدينة المحصنة التي عثر عليها بيرو، حيث أثبتوا أن بوغازكوي هي حاتوشا Hattusas عاصمة الحيثيين. هذه الحفريات بالرغم من محدوديتها من ناحية الأهداف والوقت المتاح قد كشفت عن آلاف النقوش التي كونت مجموعة الوثائق الرسمية لمكتب الاتصالات الخارجي للحيثيين خلال الفترة من ١٣٥٠ق.م إلى ١٣٠٠ ق.م. وتشير هذه الوثائق إلى أقوام مثل المصريين والبابليين والقبارصة والأهياويين، وهم قوم وصفوا بأنهم استقروا على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى وقبرص، وعرفوا الآن بأنهم الآخيُّون.

في عام ١٩٠٧م أصدر العالم التشيكي فردريك هروزني Friedrick Hrozny كتابـه منشـورات جمعيـة المستشرقـين الألمـان **Mitteilungen der Deutschen Orient Gesellschaft** وجاء فـيه بمفـتاح ترجـمة الوثائـق الحيثـية التي أعـدها بالتفصيل في كتابه لغة الحيثيين (١٩١٧) **Die Sprache der Hethiter**.

قامت بعثة من المتحف البريطاني بقيادة هوغارث Hogarth وكامبل طومسون Campbell-Thampson و ت. ي. لورانس T E Lawrence وليناردو وولي Le-onard Woolley بحفريات قبل الحرب العالمية الأولى في قرقميش، وهي نقطة حدود جنوبية للحيثيين في شمال سورية.

أوربـــا البربريـــة :

الفتـرة التي نحن بصددها هنا التي يمكن تحديدها من نابليون الثالث إلى بت ـ ريفرز؛ كانت فـترة خصبـة بالنشاطات الآثارية الخاصة بالمرحلة الـتي أعقبت العصر الحجـري القديم في أوربا، وقد سبقت الإشارة إليهـا بصورة عامة حين عرضنا للمحاولات التي أجريت لتقسيم حقـبة العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي والعصر الحديدي. اهتم نابليون الثـالث بالآثار الفرنسية وكان حريصاً علـى النظـر إلى ماقبل الاحتلال الرومـاني لبلاد الغال وإمكانية إبراز دور الغال ـ بصورة إيجابية ـ في التطور الحضاري لفرنسا في مرحلة ماقبل الرومان.

لم يكن بين الشخـصيات الرئيـسة التي عملـت في حقل الآثار الأوربي في تلك الفتـرة من هو أكثر بريقـاً وتأثيراً على الآثار البريطانيـة ومن بعدها الآثار الأوربية من بت ـ ريفـرز. ولد الرجل الذي يُعرف في كـتابات الآثاريين باسم الجنرال بت ـ ريفرز ـ الذي عرف أولاً باسم لين فوكس Lane Fox ، لكنه في

عام ١٨٨٠م غيّر اسـمه إلى ريفرز عندما ورث إقطاعيات ريفـرز الشاسعة التي تزيد مساحتها عن ٢٩ ألف فدان من الأرض التي تحوي معظم كرانبورن شيس ـ في جنوب إنجلترا. كان الكلونيل لين فـوكس مهتماً باستـعمال نوع من البنادق القديمة وتطويرها، ودرس تطور الأسلحة النارية وانتهـى إلى ترتيب مجموعات منها في تسلسل تطوري. وعـندها قرر أن كل الثقافـة المادية يمكن عدها أدوات نستطيع ترتيبها في تسلسل نوعي يظهر تطورها[١]، هنا كان يسلك تلك الخطى التي سبقـه إليها الآثاريون الدنماركيـون والسويديون، كما كان يـسير في خط متوازٍ مع جون إيفانز في إنجلترا ومونتليوس في السويد.

ولإثبـات نظرية التطور النوعي للأدوات بدأ يـجمع كل مـا تقع عليـه يده، وسرعان ماتحـول منزله إلى مستودع تتكدس فيـه المعثورات. وفي عام ١٨٥١م استعار متحف بثنال غرين تلك المجموعة، وفي وقت لاحق أخذت إلى ساوث كنزنغـتون[٢] وأخيـراً إلى أكسفـورد حيث صمـم لها متحف خاص في المتحف الجامـعي. نظّمت القطع الأثرية في مـتحف بت ـ ريفـرز على أسس تصنيفـية ونوعية، بهذا التـرتيب والدفاع عنه في محاضراته وكتـاباته قدّم الدليل العملي على أهمية الدراسـات الإثنوغرافية لعلم آثار ماقبل التـاريخ. وكان مثل فلندرز بيتري مصمماً على أن علم الآثار ليس دراسة للمعثورات الفنية وإنّما هو دراسة لكل المعثورات. ركّز على أن مجموعـته: «ليس الغرض منها إبهار أي شخص بجمال ما هو معـروض أو قيمته، ولكنها لغرض الدراسـة، ولهذا الغرض فقد

(١) يعد بت ـ ريفرز من الآثاريين الرواد الذين طوروا وسـيلة التتابع Seriation وسيلةً للتـأريخ النسبي (بعد محـاولة قام بها جون إيفـانز في النصف الأول من القرن التاسع عـشر)، وكان أول من أدخل عبارة «تصنيف» typology في علم الآثار. (المترجم).

(٢) بثنال غرين وساوث كنزنغتون من بين أحياء مدينة لندن. (المترجم).

اختـيرت عينات عـادية وممثلة أكثر من كـونها قطع نادرة، وتم عرضـها بشكل متسلسل».

قبل أن تؤول إلـيه ملكية إقـطاعيات كـرانبورن كـان لين فوكس قـد أجرى حفريات في كل من إنجلتـرا وويلز، كما أجرى حفريات كـذلك في هيثابو في شلزفج. وفي مابين الأعوام ١٨٨٠ و١٩٠٠م ـ دون أن تعوقـه الاعتبارات المادية أو يقف في وجـهة عامل الوقت والعـمالة ـ أجـرى بت ـ ريفرز حـفريات في معسكرات وقرى وجبانات ومقابر ركامية وخنادق شملت وربرو وبكرلي ودايك ووديتس وروزرلي[١]. وكان صاحب فكرة حفر الموقع الأثري بأكمله، وقد نفذ ذلك عملياً مؤكداً أهمية الإستراتغـرافيا وضرورة تسجيل كل معثور في مكانه. كان مقتنعـاً بضرورة إعداد خرائط دقيقة وقـواطع ورسوم مفصّلة ووصف لكل حفرياته، كما قام بعمل نماذج مجسّمة للمواقع الرئيسة. ونشرت نتائج حفرياته في حينها في أربع مجلدات طبعت على نفقته خلال السنوات ١٨٨٧ و١٨٩٨م تحت عنوان حفريات في كرانبورن شيس **Excavations in Cranborne Chase** . جاء عمله رفيعاً بكل المقاييس، ففي خلال خمسة عشر عاماً حوّل الحفريات من هواية ممتعة إلى مـهنة علمية شاقـة. لقد كان متقـدماً كثيراً على مـعاصريه من المنقـبين. يقـول ر.ج. كـولنوود R. G. Colingwood إن بت ـ ريفـرز كـان متقدماً من عدة أوجه على الوسائل الحديثة لعلم الآثار. والكثيرون من العاملين بمهنة التنقـيب الأثاري اليوم يحـسدونه على مـصادره والطريقـة التي نفّذ بـها حفـرياته بما تميـزت به من حسن أداء وانضـباط لا تتوافـران إلا في العمـليات العسكرية.

---

(١) هذه أسماء بعض المناطق في بريطانيا.

كان لبت ـ ريفرز أثر كـبير على شخـصية شبه عـسكرية أخرى هي مورتمر ويلر كمـا سنرى. نشر مـايكل طومسن Michael Thompson مؤخـراً صورة مفصّلـة عـن هـذه الشخصيـة المتميزة في كـتابه الجنرال بت ـ ريفرز (١٩٧٧) General Pitt-Rivers.

لا يسع المجـال هنا لذكـر تفاصـيل الأعمـال الآثارية التي تمت خـلال هذه السنوات، إلا أننا لابد أن نشيـر بصفة خاصة إلى العـثور على سفن غوكـشتاد وأوسبرج.

في عام ١٨٨٠ بدأ ابن مزارع يمتلك قبراً ركامياً في غوكشتاد إلى الغرب من خليج أوسلو حفريات في القبر، كـان الصبي يبحث عن كنز إلا أنه وجد بدلاً منه إحدى سفن الفايكنج[١]. كان طولها ثمـانين قدماً (أربعة وعشـرين متراً) ويعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي. والمخلفات البشرية التي حوتها حجرة الدفن ربما كـانت للملك أولاف غايرشتادرالف Olaf Geir-stadralf من أسـرة ينغلنجـار. وبعـد ذلك بربع قـرن وبينـما كـان بروفسـر غوستافسن Gustafson يحتفل بعيد ميلاده في المتحف القومي في أوسلو قاطعه أحد المزارعين قـائلاً: إنه عثـر في أرضه على بقـايا سفينة مـشابهـة. كانت تلك الأرض في منطقة أوسـبرج، على بعد عـشرة أميال إلى الشـمال من غوكشـتاد، وثلاثين ميـلاً إلى الجنوب من أوسلو، قـام غوستـافسن بالتنقـيـب عـن السـفينة الشراعية التي بلغ طولها سبعين قدماً (واحداً وعشرين متراً) وتقبع سفينتا غوكشتاد وأوسبرج الآن في متحف خاص شيّد من أجلها في ضواحي مدينة أوسلو.

(١) الفايكنج Vikings هم سكان إسكندنافيا مابين القرن الثامن والثـاني عشر الميلادي، وقد كانوا بحارة مهرة وبناة سفن وأصحاب تجارة واسعـة، امتد نفوذهم ليغطي سواحل أوربا وجزر المحيط الأطلسي الشمالي. (المترجم).

أمريكـا :

يمثل كتـاب هافن Haven **الآثار في الولايات المتـحـدة Archaeology of the United States** والرحلات المصورة لاستـيفنز Stephens وغاذروود -Gather wood علامة فاصلة في مسيرة علم الآثار الأمريكي في القرن التاسع عشر.

تبع هؤلاء رحالة آخرون من أمثال ديسير شارني Desire Chrnay الذي نشر كتابه **المدن القديمة في العـالم الجديد The Ancient Cites of the New World** في عام ١٨٨٧. كـذلك قام أغسطـس لوبلنجون Augustus le Plongeon ـ وهو شخص غـريب الأطوار ـ بحفـريات ونشر كـتابه **الملكة مـو وأبو الهول Queen Moo and the Egytian Sphinx** في عـام ١٩٠٠م. أما الإنجلـيزي آلفـرد ب. مودسلي Alfred P. Maudslay فقـد نشر نتائج رحـلاته ومسـوحاته في أربع مجلدات سـماها **البايولـوجيا في أمـريكا الوسطى Biologia Centrali America** خلال الأعوام ١٨٨٩- ١٩٠٢م.

كانت أول حفرية كـبيرة مهمة تجـرى في أمريكا الوسطى هي تلك التي قام بهـا متحف بـيبودي التـابع لجامـعة هارفـارد في موقع كـوبان مركـز المايا في هندوراس. وقام بـالعمل كل من م.هـ. سـافيل M. H. Saville وجون أوينز John Owens (الذي توفي أثناء الحـفـريات) و ج. هـ. غـردون -G. H. Gor don، وقد نشر جزء من الحفـريات في كتاب غردون **خرائب ماقبل التاريخ في كـوبان، هندوراس Prehiotoric Ruins of Copan, Honduras** (١٨٩٦). أمـا بداية الملاحظات الإستراتيغرافية في آثار أمريكا الوسطى فيعود فضلها إلى غاميو Gamio وبواس Boas في إقامة تسلسل حضاري مـن ثلاث مراحل اعتمد على دراسة الفخار والدمى في وادي المكسيك.

كانت بيرو أكثر حظاً في الانتـفاع من خدمات الألماني ماكس أول (١٨٥٦-

١٩٤٤) Max Uhle. تدرب ماكس على اللغات القديمة ثمّ تحوّل إلى الآثار والإثنوغرافيا، وحينما كان يعمل في متحف درسدن التقى ألفونس شتوبل Al-phons Stubel الذي حفر مع فلهلم رايس Wilhelm Reiss جبانة على ساحل بيرو. تعاون أول وشتوبل في إصدار كتاب بعنوان **التماثيل القديمة في موقع تيهواناكو** (١٨٩٢) **Die Ruinenstaette Von Tiahuanaco** اعتمدا فيه على مذكرات شتوبل الميدانية والصور التي التقطها في الحقل. بعد ذلك انتقل أول إلى أعمال ميدانية في أمريكا الجنوبية وعمل هناك فترات متقطعة مدة ثلاثين عاماً، حيث عمل في البداية في بيرو وبوليفيا وتحول في وقت لاحق إلى شيلي والأكوادور. كانت حفرياته الرئيسة في بيرو في موقع في باغات كاماك إلى الجنوب من ليما، وكان على معرفة بالتسلسل الناتج عن دراسة الإستراتغرافيا كما كان متأثراً بأعمال فلندز بيتري في مصر. وصف ويلي Willey وسابلوف Sabloff المجلد الذي أصدره بعنوان **باغاكاماك Pachacamac** (١٩٠٣) بأنّه أحد معالم علم الآثار الأمريكي Willey and Sabloff: A History of American Archaeology,1974,78). لقد آمن بضرورة وجود مقياس زمني للآثار الأمريكية وكتب يقول: «إن أول شيء يجب عمله في الدراسات الأمريكية هو تقديم فكرة الزمن لحمل الناس على الاعتراف أن الأنواع قابلة للتغيّر».

في هذه الحقبة من عمر الآثار الأمريكية التي نرصد فيها ليس الأسفار والمسوحات الميدانية وبداية الحفريات فحسب، بل ودراسة النقوش الهيروغليفية والأدب الشعبي؛ كان الفرنسي الأب براسير دو بوربورغ (١٨١٤ - ١٨٧٤) Abbé Brasseur de Bourbourg من شمال فرنسا مولعاً منذ السابعة عشرة من عمره «بالحقائق الجغرافية عن أمريكا». وقد أثارته قراءة تقرير في **الغازتة الفرنسية Gazette de France** أن مزارعا برازيلياً عثر على حجر مسطح ودروع

وأسلحة مقدونيــة تحمل جميعها كـتابات إغريقية. وهب براسيــر حياته لدراسة تاريخ الهنود المكسيكيين ولغتهم وحضارتهم وترجمة المخطوطات المحلية. وكان عمله على كتاب لاندا **علاقـات يوكاتان** Relacion de las Cosas de Yucatan وعلى وثائق تخص المايا قد وفّر مـادة يستطيع الآثاري بواسطتها فهم مـعثوراته وتفسيــرها. استطاع أرنست و. فروســتمان Ernst W Frostemann الذي لُقّب بـ«أب البحــوث الهيــروغليفيــة للمايا» أن يفك أجــزاء من كتاب أصلــي للمايا يعرف بـ **وثائق درسدن Dresden Cokex** مركــزاً على الأرقام والتـقويم وبذلك أصــبح بمقــدور الآثاريين تأريخ آثار المايا بواسطة المخطـوطات. ونشر مـؤلفـه **تعقـيب على مخطوطات المايا في المكتبـة الملكية العامـة في درسدن** في عام ١٩٠٦ **Commentry on the Maya Manuscript in the Royal Public Library at Dresden**. كـــذلك أصــدر أدفـــارد زيلر Edward Seler أبحـاثـه عن وثائق وأيقونات المايا في خـمس مجلدات بعنوان **مجـموعـة دراسات في علم اللـغات والتاريخ القـديم لأمريكا Gesammelte Abhandlungen Zur Amerikanischen Sprach und Alterthumskunde** (١٩٠٢- ١٩٢٣). أمـــا شـارلـس بودتش Charles Bowditch فقد أصبح حجـة في علم الفلك عندما نشر كتابه **الترقيم ونظام التقويم والمعـرفة الفلكية عند المايا**. **The Numeration Calendar Systems and Astronomical Knowledge of the Mayas** في كيمبردج، ماسشوست في عام ١٩١٠م. ثم استنفر حملة كبيرة من متـحف بيبودي لإجراء أعمال ميدانية وحفريات وإجراء أبحاث مكتبية ودراسات متحفية في آثار المايا.

هذا الضــوء الجديد الذي سلط على آثــار أمريكا الوسطى جــمعــه هـ.ج. اسبندن H. J. Spinden في كتـابه **دراسـة في فن المايا A Study of Maya Art** (١٩١٣) وكذلك توماس أ. جويس Thomas A. Joyce في كتابه آثار المكسيك

Mexicon Archaeolegy (١٩١٤). فكلاهمـا وضع نظام تسلسل زمنـي قائمـاً على الحفـريات والمباني المؤرخة وتطور الطـرز الفنية وتداخل ذلك مع التقـاليد المحلية، وكان ذلك بداية عهد جديد في آثار أمريكا الوسطى.

في مجـال دراسات أمريكـا الشماليـة أيدت البحوث التـي قدمهـا سايرس توماس مثل **من هم بناة التلال Who were the Mound Builders** **وتقرير الجمعية الأمريكية الإثنوغـرافية عن استكشـافات التلال** (١٨٩٤) **Report on the Mound Explorations of the Bureau of American Ethnology** (١٨٩٤)؛ مـا ذهب إليه هفن وآخرون في الماضي من أن الهنود الحاليين هم استمرار لبناة التلال من الماضي، ومن جهة أخرى فـقد قام ف.و. بتمان F. W. Putman مدير متحف بيبـودي بتدريس طلابه الوسائل الحديثـة في العمل الميداني والحفـريات. ويعد البحث الذي نـشره تحت عنوان **وسـائل البحث الآثاري في أمـريكا Methods of Archaeological Research in America** في المجلد الخامس مـن نشرة جامـعة جون هبكنز (١٨٨٦) مـثالاً جيـداً لتلك التعاليم، إلا أننا إذا نظرنا إلى العـقد الأخير مـن القرن التاسع عشـر والعقد الأول من القرن العـشرين بوصفه فـترة ملأى بالأمل للآثار الأمـريكية؛ فـإن الفترة قـيد البحث تركـز الانتبـاه بطريقة درامية على الأخطار الموروثة في التفسير الآثاري.

من المؤسف أن القرن التاسع عـشر ومن بعده وبصورة أكبر القـرن العشرين كانا فترة تطور للأسطورة الأمريكية وخلق ماضٍ مصطنع لهنود ماقبل كولمبس. أعجب أدوارد كنج فيمونت كنجسبره (١٧٩٥- ١٨٣٧) Edward King ـ وهو نبـيل أيرلندي غريب الأطوار حين كـان طالبـاً بجامـعة أكـسفـورد ـ بمخطوط مكسيكي في المكتبـة البولدية وشغف على الفور بالآثار المكسيكيـة. فقام بنشر كتابه **آثار المكسيك** (١٨٣١- ١٨٤٨) **Antiqutis of Mexico** في تسع مجلدات

أنيقة على نفقته الخاصة بتكلفة كبيرة مما دفعه إلى الاستدانة، الشيء الذي انتهى به إلى السجن في ثلاث مناسبات. وفي الأخيرة منها توفي بمرض التايفوئيد كما يعتقد البعض، بينما يرى آخرون أنه توفي بمرض القلب. أثناء عمله وصل إلى قناعة أن هنود المكسيك قـد انحدروا من قبائل بني إسرائيل المفـقودة. لقد كان مـحـزناً أن يجنـح إلى شـواطئ الآثار الوعـرة، إلا أننا يجب ألا نـنسى تلك الجوانب الإيجـابية من عملـه، كتب بانكروفت Bancroft عنه قائلاً: «هنالك كبـرياء علمي في أعمـاله لم يبلغه أولئـك الذين لاموه وسخـروا منه، وعلى الرغم من أننا قد نبتسم أحياناً لسذاجته ونأسف على كون ذلك الحماس الدافق قد ذهب إلى غـير مكانه، إلا أننا يجب أن نـتحدث عنه ونفكر فـيه باحـترام بوصفـه شخـصاً أفنى حيـاته وماله ـ إن لم يكن عـقله ـ في أمر جاد لـتسليط الضوء على واحدة من أكثر الأمور غموضاً في التاريخ البشري».

توصل فالدك Waldeck إلى استنتاج في نهاية المـطاف إلى أن مدنيات الدنيا الجديدة أقدم زمناً من تلك التي عرفها الـشرق الأدنى التي ارتبطت بها عبر قارة أطلانطا. أما الأب براسـير دو بوربورغ فبـعد سنوات من العـمل الدقيق في وثائق المايا خرج عن طوره وقـرر أن الوثائق التي ظل يعمل عليهـا مدة طويلة هي قصص رمزية وليس لهـا أرضية تاريخية، شأنها فـي ذلك شأن السجلات المصرية، وهي جمـيعها وفـدت من أطلانطا التي شهدت مولد الحـضارة. قام أغسـطس لوبلنجون بربط المايا لـيس فقط بقـارة أطلانطا ومصـر بل بالقبـائل الإسرائيليـة والرغفيدا الهنود والكتب الصـينية الخاصة بملك شـو، كما أن لهم علاقة بميلاد المسيحية. وأعلن كذلك أن آخر كلمات السيد المسيح بالآرامية التي جمـعت إلى الإنجليزية كانت تقول «إلهـي، إلهي لماذا تتخلى عني» وهي ذات عبارة المايا التي تعـني: «الآن، الآن أغرق الحبر الأسود فـوق أنفي» كان مؤمناً

بوجود مستوطنات للمايا على ضفاف النيل، قامت الملكة مو بزيارتها عندما طردت من شيش اتزا، كما زارت أطلانطا في طريقها.

قوبلت كتابات كنجسبره وفالدك وبراسير دو بوربورغ ولوبلنجون باهتمام محدود؛ إلا أن فكرة أطلانطا قد وجدت رواجاً واسعاً خاصة في كتابات أغناطيوس دونلي Ignatius Donnelly الذي نشر **أطلانطا: عالم ماقبل الطوفان** في عام ١٨٨٢م **Atlantis: The Antediluvian World** ، يقول: إن أهل أطلانطا يمثلون حضارة مفقودة جاءت إلى أمريكا الشمالية والوسطى، وإن التلال هي مخلفاتهم، وقد توغلوا جنوباً إلى المكسيك حين هاجمهم السكان المحليون المتوحشون. وقد أعيدت طباعة كتاب **أطلانطا** خمسين مرة، ولا تزال تعاد طباعته، وقد أحدث من الضرر على التفكير السليم أكثر مما سببه كتاب **المصريون القدماء** لإليوت اسمث. كان غلادستون رئيس الوزراء البريطاني معجباً بأعمال شليمان، وقد أيقن أيضاً أن دونلي على حق لدرجة أنه طلب من البرلمان تمويل بعثة للبحث عن أطلانطا، ولكن طلبه ـ لحسن الحظ ـ رفض من قبل البرلمان.

علم الآثار في عام ١٩١٤م :

الآثاريون والجيولوجيون الذين رفضوا في منتصف القرن التاسع عشر فكرة العمر القصير للجنس البشري الذي يبدأ بعام ٤٠٠٤ق.م. لازالوا حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعترضهم صعوبة إيجاد نظام نسبي أو مطلق للتسلسل، يؤرخون به حضاراتهم وعصورهم التاريخية. أصدر جيمس جيكي James Geikie كتابيه **العصر الجليدي وعلاقته بآثار الإنسان The Great**

Ice Age and its relation to the Antiquity of Man (١٨٨١) وأوربا مـــاقـبل التاريخ (١٨٧٤) Prehistoric Europe، وفيـهما اقتـرح نظاماً لأربعة عـصور جليدية كبرى وعصر جليدي خامس قصير. وزعم أن الإنسان قد ظهر أول مرة في الحقبة بين العصر الجليدي الثاني والثالث. وبين عامي ١٩١٠ و١٩١٩م قدم بنك Penck وبركنر Bruckner نظاماً يحوي أربعة عصور جليدية سمياها: غنز Gunz ومندل Mindel ورس Riss وفيـرم Wurm وذلك حسب أسـماء بعض المواقع السويسرية، وذكـرا أن الإنسان ظهر أول مرة في أوربا في حـقبة مندل - رس.

وفي الفـترات التي أعـقبت العـصور الجليـدية حلت مكان ظاهرة العـصور الجليدية والفتـرات التي تخللتها ظاهرة السواحل المـرتفعة والتغيـرات المناخية. فبعد إجراء بعض الدراسات المجـهرية على المخلفات النباتيه استطاع بلت Blytt وسرناندر Sernander التمـييز بين خمـسة أقسـام للفترات التي تلت العـصور الجليـدية، وهي ماقبـل البورال Pre-Boreal والبورال Boreal والأطلنطي At-lantic والبورال الجزئي Sub-Boreal والأطلنطي الجزئيSub-Atlantic . وقد تأكدت هذه التـقسيـمات عبـر دراسات بذور اللقاح التـي طورها لينارت فون بوست Lennert Von Post أول مرة.

اتخذت محاولة وضع تسلسل مطلق للعصور الجليدية والعصور المناخية التي تلتها مـسارين؛ أولهما بواسطة حـساب تقديري ارتكز على سمـك الطبقات، وثانيهما بالتقنية الجيوكرونولوجية. قدر آرثر إيفانز بداية العصر الحجري الحديث في كـريت بحـوالـي ١٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ ق.م. وفي أناو أجـرى بمبلي إحصائيـات استندت على زيارة قام بها إلى مصـر خلال عام ١٩٠٦ / ١٩٠٧م حيث قدّر نسبة تراكم بعض المخلفـات السكنية هناك بـ ٦ر١ قدم في كل قرن.

وقد اعتمد على هذه الأرقام ليعطي بداية أناو -١ تأريخاً في الألف العاشر قبل الميلاد، كذلك اقترح دي مورغن تأريخاً مبالغاً فيه بالنسبة لسوسة -١. أما شمث فإنه لم يوافق بمبلي على اقتراحه واقترح تأريخاً لأناو -١ في الألف الثالث قبل الميلاد. جاء تقرير حفريات أناو محيراً إذ أورد كلا التاريخين؛ تاريخ بمبلي وكذلك التاريخ الذي اقترحه شمث الذي يختلف عنه كثيراً. لقد قُدمت تقديرات كثيرة عن طول العصر الجليدي تبعاً لسمك الترسبات، من بينها تقدير بنك الذي قدر له عمراً يصل إلى ٦٠٠ ألف سنة.

أما الوسيلة الثانية أو الجيوكرونولجية فقد تضمنت حساب حلقات الأشجار وحساب موجات الصلصال Clay Varves[1]. كان القس مناسيح كتلر Manasseh Cutler قد استخدم حساب حلقات الأشجار لتأريخ بناة التلال في أمريكا، كما أن توماس جفرسون قد ركّز على أهمية هذه الوسيلة. وفي عام ١٨١١م قام دكتور ويت كلنتون Witt Clinton باستخدام حلقات الأشجار لتأريخ بعض الأعمال بالقرب من كنديغوا بولاية نيويورك. هذه المجهودات الرائدة طورت بواسطة أ. ي. دوجلاس A. E. Douglass في عام ١٩٠١م إلى وسيلة علمية. وبهذه الوسيلة أرّخت حضارة صانعي السلال في أمريكا إلى بداية الحقبة المسيحية، أي خمسة عشر قرناً قبل أن يصل كولمبس إلى أمريكا.

كان السويدي البارون غيرار دو غير Baron Gerhard de Geer هو أول من أشار إلى إمكانية استعمال موجات الصلصال، وهي إحصاء موجات الصلصال التي خلفتها الطبقات الجليدية المنحسرة في نهاية العصر الجليدي وسيلة للتأريخ

(١) تعرف Clayvarves أيضاً برقائق الوحل. (المترجم).

وذلك في عام ١٨٧٨[١]. بدأ عمله الميداني في عام ١٩٠٥م وفي عام ١٩١٠م نشـر مقاله المـعروف **جيوكـرونولوجيـا الاثني عـشر ألف عـام الأخيـرة A Geo-chronology of the Last 12000 Years** اتخـذ دوغيـر في عـام ٦٨٣٩ ق.م. نقطة انطلاق انتهى عندها العصر الجليدي وبدأت حقـبة مابعد العصر الجليدي. كان هناك خلط ومراجعة لهذه التواريخ إلا أنها سرعان ما مكنتنا من عد الفنون الجدارية الخاصة بالعصر الحجري القديم الأعلى في جنوب فرنسا وشمال إسبانيا سابقة للألف الثالث عشر ق.م.

شهدت هذه الفتـرة كذلك بداية إجراء التحاليل الكيمـيائية على المواد، ففي عام ١٨٤٤ نشر الجـيولوجي الإنجليزي ج. مـيدلتون J. Middleton مقالاً في **محاضر الجمعية الجيولوجية في لندن** (العدد الرابع ص ٤٣١- ٤٣٣) **Proc Geol Soc Lond**، وكذلك الفرنسي أ. كارنوا A. Carnot في **حوليات المناجم** (العدد الثـالث ص ١٥٥- ١٩٥) (١٨٩٣) **Annales de Mines** حـيث أشـارا إلى أن كميـة الفلورين في العظام القديمة تزداد مع العمر الجـيولوجي، إذ إن الفلورين الموجـود في ميـاه التـربة يتراكم بـانتظام على العظام والأسنان. هذه المعلومـة الشائقة نسيت تماماً حتى كان اكتشاف هذين البحثين بواسطة ك.ب. أوكلي K. P. Oakley بعد سنوات عديدة. كان من الممكن استـعمال هذه الوسيلة لتأريخ المخلفات العظمية التي عثر عليها في جالي هل في سوانسكوم في مقاطعة كنت في عام ١٨٨٨م، وفي بلتداون بالقرب من لويس في مـقاطعة سسكس في عام

(١) موجات الصلصال أو رقائق الوحل هي وسيلة جيوفـزيائية لإعطاء تأريخ مطلق، وتستند على حقيقة أن الصلصال أو الوحل يـترسب مرتين في السنة في المناطق الجـليدية، مرة في الصـيف وأخرى في الشتاء بتركيبـة مختلفة، وبإحصاء هذه الموجات أو الرقائق يمكن إحصاء عمر الطبـقات ومحتوياتها. (المترجم).

١٩١٢م. الهيكل الذي عثر عليه في جالـي هل كان يخص إنساناً معاصراً زُعم أنه يحمل سمات قديمة؟ وعندما عـثر عليه في عام ١٨٨٨م قيل: إنه كان على عمق ثمـانية أقدام (متـرين ونصف) في باطن الحصى تصـحبه فؤوس حـجرية ترجع إلى العصر الحـجري القديم الأسفل ومخلفات حيـوانات منقرضة. حين طبقت عليـه وسيلة الفلورين خلال الأربعينيـات من هذا القرن اتضح أن هيكل جالي - هو قبر دخيل يعود إلى فترة متأخرة كثيراً عن تراكمات العصر الجليدي الأوسط التي يرقد فيها. أمـا اكتشاف جمجمة بشريـة ومعها فك لقرد بواسطة شارلس داوسن في بلتداون فقد بشرت بالعثـور على أقدم إنسان عرفته إنجلترا. وسميت أيونسروبس داوسني Eoanthropus dawsoni أي إنسان فجـر البشرية الذي عثر عليه داوسن! ولفترة طويلة مـن الزمن صبغ هذا الاكتشاف الكتابات العلمـيـة عن باليونـتولوجـيـا الإنسان إلى أن أثبـتت وسـيلة الفلورين خـلال الخمسينيات من هذا القرن كذب الادعاء، وأنه كان معثوراً مزيفاً[١].

التصـوير الجوي بوصـفه مـعاوناً لا غنى للآثاريين عنه كـان نتاجـاً للحرب الكونية الأولى ومابعدها مباشرة، إلا أن بداياته سبقت ذلك بوقت طويل. كان مـصور بـاريسي يدعى غـاسبـار فـيلكس طورناشـون Gaspard Félix Tour-nachon، - وعرف أيضاً باسم نادر Nadar - قد صـور مدينة باريس من على

(١) في الوقت الذي كانت الجـمجمـة تخص إنساناً مـعاصراً كـان الفك يحمل سمـات قرد، وحين تم اختبارهما الأول في عام ١٩٤٩م اتضح أن نسبة الفلورين فيهـما متفاوتة للحد الذي يستحيل معه أن تكون الجمجمة والفك متعاصرين، ومن ثم لا يمكن أن يعودا إلى مخلوق واحد. أعيد الاختبار عام ١٩٥٣م بعد أن طورت وسيلة النايتـروجين الذي تقل كميته في العظـام مع توقف البروتين عند وفاة الكائن الحي وقد دعم هذا الاختبار النـتيجة السابقة، ثم جاءت وسيلة اليورانيـوم لاحقاً لتؤكد تلك النتائج. (المترجم).

بالون في عام ١٨٥٨م. كـذلك صور كنج King وبلاك Black مدينة بوسطن من الجو وفعل نيغريتي Negretti الشيء نفسه لمدينة لندن خـلال الستينيات من القرن الماضي. أما أول تصوير جوي في مجال الآثار فقد تمّ على أيدي النقيب ب. هـ. شارب P. H. Sharp الذي التقط صوراً من بالون عسكري لموقع استون هنج، كانت الصـور رأسيـة وجانبيـة وقد أظهرت عـلامات داكنة هي مـعالم الطريق الذي لم يعـد ظاهراً على السطـح للعين المجردة. هـذه الصور نشـرت وقتهـا في مجلة أركيـولوجـيا (١٩٠٧ الصور ٦٩ و٧٠). وفي السنوات التي سبـقت حرب ١٩١٤- ١٩١٨م اسـتعـمل هـ. س. ولكم H. S. Wellcome صندوقاً شـراعياً يحـمل كامـيرا ذات تحكم أوتوماتيكي لتـصوير حـفرياته في السودان.

باندلاع الحرب اتضح جلياً أن علم الآثار ـ كما يشير تطوره ـ سـيعتمد شيئاً فشيئاً على التقنية العلميـة، إذ لم يعد مجرد دراسة معزولة للأدوات في الحقل وفي المتـاحف. وأصبح الآثاري أكـثـر اعتـماداً على الـعلماء الذين يدرسـون المخلفات النباتيـة والحيوانية والمناخ الخاص بالـموقع، الذين يؤرخون المادة بمعزل عن الوســائل الآثارية، هذه التـوجهـات سـوف تظهر بوضـوح في الفـصلين التاليين.



الفصل الرابع
علم الآثار يشب عن الطوق
(١٩١٤-١٩٣٩م)

نظام العصور الثلاثة وانتشاره:

قبل اندلاع الحرب الكونية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) كانت فكرة عهود ماقبل التاريخ قد تعرضت لانتقادات حادة. وبعد الاكتشافات التي تمت في عام ١٩٠٩م في غروت دوفلا أصبح واضحاً أن الفترتين الأزلية والتاردنوسية متعاصرتان[1]، وأنهما ثقافتان وليستا عهوداً. كذلك فإن البحث القيّم الذي قدمه بروي في عام ١٩١٢م بعنوان **تقسيمات العصر الحجري القديم الأعلى وأهميته Les Subdivisions du Paleolithique Superieur et leur Significantion** كان نذيراً بانهيار نظام العهود القديم.

شهد النصف الأول من القرن العشرين أربعة أحداث أسهمت في الإدراك العام لموت فكرة العهود، كانت الأولى ـ كما ذكرنا ـ هي إثبات تزامن تلك الفترات أو الحقب. أما الثانية فهي أن مجال البحث قد تجاوز فرنسا التي شهدت الإقرار بنظام العهود ـ على يدي دو مورتييه ـ إلى مناطق أخرى من

(١) الثقافة الأزلية Azilian هي إحدى ثقافات العصر الحجري الوسيط في شمال إسبانيا وجنوب غرب فرنسا، ويعتقد أنها تطورت من الثقافة الماجدلينية وتتميز صناعتها بخطاطيف عظمية، وهي تؤرخ إلى الألف التاسع ق.م. أما الثقافة التاردناسية Tardenoision فقد سادت في نهاية العصر الحجري الوسيط في غرب أوربا ووسطها وتميزت بأدوات حجرية قزمية. (المترجم).

أوربا ثم إلى إفريقيـة ومن بعدها بالتدريج إلى بقية أنحاء العـالم، حيث أصبح من الواضح أن السترة الفرنسية تلك أضيق من أن تتسع لبقية العالم.

أما الحدث الثالث فقد كان تبني علماء ماقبل التاريخ العاملين في مجال آثار أوربا البربرية للمنهج الحـديث للنظرية الآثارية والاصطلاحات التي طورت في منطقة بـحر إيجة والشـرق الأدنى. وكمـا رأينا حين درس شليمـان المخلفات الأثرية في طروادة وموكيناي فـإنه لم يربطها بأسماء ذات علاقة بعـهود العصر الحجـري والعصر البرونزي، وإنّـما قام ـ بجرأة ـ بربطهـا بالحضارة الموكـينية، وكـذلك صنّف آرثر إيفـانز المخلفـات من كنوسس على أنهـا مـينوية. وبالمثل استعملت عبارات مثل إيجية وكيكلادية وهيلادية لحضارات ومجموعات بشرية وليس لفترات زمنية. لاشيء يميز طبيـعة هذه الحضارات في شرق المتوسط عن العهود الخاصة بآثاري غـرب أوربا وشمالها سوى محتواها ودرجـة التعقيد في مخلفـاتها. لقد بدأت تطل على فـجر الآثاريين حقـيقة هي أن عـهودهم التي اتضح أنها مـتعاصرة مـاهي إلا أنواع من الحضارات. ألا يحق لما قـبل التاريخ إذن أن يتبع نماذج شليمان وإيفانز ويشير إلى الحـضارة الموستيرية بدلاً من العهد الموستيري، وحضارة هالشتات بدلاً من فترة هالشتات وما إلى ذلك؟ كان بعض الآثاريين حـذرين في استـعمال كـلمة «مدنـية»[١] لتلك المخلفات المادية التي تخص مجتمعـات وحشية أو بربرية، وكانوا يفضلون اختصار اسـتعمالها على المجتـمعات التي تمارس الكتابة. هذه المعـضلة صادفت بمبيلي الذي قـام بحلها كما رأينا، حين وصف محتويات الطبـقات في أناو على أنها حضارات لا على

(١) يجدر أن تترجم كلمة Civilization على أنها «مـدنية» أما Culture فهي «حضـارة» أو «ثقافة». (المترجم).

أنها تمثل فترات. فقد ذكر في مؤلفه استكشافات في تركستان حملة عام ١٩٠٤ (١٩٨٠) **Explorations in Turkestan: Expedition of 1904** قائلاً: «لاستبعاد أي سوء فهم لابد من الإشارة إلى أن عبارة «حـضــارة» قد اسـتعملت مـرادفاً لعـبارة «مدنـيــة»، وأن عبـارة «طبقـه حضـارية» تعني المخلفات التي تتـراكم تدريجياً أثناء احتلال موقع ما».

أما العامل الرابع فقد كان تبني الآثاريين في بداية القرن العشرين لأفكار من الجغرافيا البشرية والإنثروبولوجيا.

لقـد ميـز الإنثـروبولوجيـون والإنثـروبولوجيـون الجـغرافـيون الدارسـون للمجـتمعات البـدائية المعاصـرة بين جوانب الحضارة المـادية والمعنوية والذهنية وصنفوها في حـضارات. فقد مـيز راتزل Ratzel في مؤلفيه علم الشعوب[1] **Volkerkunde والأنثروبولوجـية الجغرافـية (١٨٨٢-١٨٩١م) Anthropo- Geo- graphie** «المركّبـات الحضـارية» وقام تلميـذه ليو فـوربينيوس Leo Forbenius بتطوير تلك الأفكار عبـر ما أسماه «المنهج الجغـرافي الإحصائي»، وخلص إلى «مدارات حـضارية» في غرب إفـريقية ومـولينيزيا خلال السنوات الأخـيرة من القرن التاسع عشر. طورت هذه الأفكار في ألمـانيا في بداية القرن العشرين إلى دراسة معــقدة عن «المناطق الحضارية» و «الـطبقات الحضارية»، أمـا في أمريكا فقد طورت فكرة «المنطقة الحضارية» على أيدي بواز وفسلر.

إلا أنه على الرغم من أن بذور الـدمار لنظام العـهـود كانـت تنمو خـلال العشرينيـات من هذا القرن؛ فإن ذلك النظام ظل موجـوداً في المراجع كما في

(١) كان الألماني فردريك راتزل من أوائل من بعـثوا فكرة الانتشار الثقافي التي نجـد جذورها عند إسحق نيوتن ومنتبودو وهيردر ممن سبقوا هذه الفترة. (المترجم).

مؤلفات م. بركت M. C. Burkitt ماقبل التاريخ (١٩٢١) Prehistory ، و ج. ماكردي G. Maccurdy أصول البشر: موجز ماقبل التاريخ (١٩٢٤) Human Origins: A Manual of Prehistory، و هـ. اسبورن H. O. Sborn إنسان العصر الحجري القديم (١٩١٨) Men of the Old Stone Age.

ومازالت مدرسة مانشستر تغمر الأسواق بمؤلفات تدافع عن المركزية المصرية للانتشار Egyptocentric hyper- diffusionism حلاً لكل قضايا التغير الحضاري.

ظهرت الطبعة الأولى من كتاب المصريون القدماء The Ancient Egyptions في عام ١٩١١م، وبعد اثني عشر عاماً حين ظهرت الطبعة الثانية من الكتاب وقد قال إليوت اسمث في مقدمتها: «لم أكن أتوقع وأنا أكتب هذا الكتاب الذي لم أسع من ورائه إلا إلى إعداد تقرير مؤقت... أن يقدر له أن يفتح أفقاً جديداً أو ربما يعيد النظر ويطور منهجاً قديماً منسياً لتفسير تاريخ الحضارة».

مضى إليوت اسمث مبشراً بكل حماس المتعصب وبعين مغمضة عن حقائق تسير في الاتجاه المعاكس لنظرياته التي تقول بأن كل الحضارات الراقية في أوربا وآسيا وإفريقية ومصر قد جاءت من مصر القديمة. لقد انتشرت الحضارة المصرية القديمة، أو الهيليوليتية ـ كما أسماها ـ عن طريق التجارة المصرية حين كان أبناء رع يبحثون عن «واهبي الحياة». نشر تلك الأفكار في مجموعة من المؤلفات مثل ارتحال الحضارة المبكرة (١٩١٥) Migrations of Early Culture وتطور التنين (١٩١٥) Evolution of the Dragon والأفيال والإثنولوجيون (١٩٢٤) El- ephants and Ethnologists وفي البدء: أصل الحضارة (١٩٢٨) In the Be- ginning: The Origin of Civilization وتاريخ البشرية (١٩٣٠) Human His- tory وانتشار الحضارة (١٩٣٣) The Diffusion of Cultrue . وكان و.ج. بري W. J. Perry أكثر حوارييه حماساً له وتعاوناً معه. بدأ بري عمله أستاذاً في

الديانات المقارنة بجامعة مانشستر حين كان إليوت اسمث أستاذاً للتشريح فيها. وبعدها أصبح بري أستـاذاً في الأنثروبولوجيا الثقافيـة بجامعة لندن حين ارتحل إليوت اسمث إلى الكلية الجامعية في لندن ليعمل أستاذاً في التشريح.

كـان بري أكثـر تشدداً وأبعـد في ادعاءاته من إليـوت اسمث، فـقد أصـدر مجمـوعة من الكتب مثل **أبناء الشمس** (١٩٢٣) **Children of the Sun** و **أصل السحر والدين** (١٩٢٣) **The Origin of Magic and Religion** و**حضارة إندونـسيا الميـغـاليثيـة** (١٩١٨) **The Megalithic Cuture of Indonesia** و**نشـوء الحضـارة** (١٩٢٤) **The Growth of Civilization** ، شرح فيـها ونشر بها تعـاليم المركزية المصرية في الانتشار. أعيدت طباعة **نشوء الحضارة** في عام ١٩٣٧م لدى بنجوين وكان من أوائل الكـتب الآثارية التي تنشر بغـلاف غير مـقوى، وقـد تم توزيعه بشكل كبـير وكان له أثر واسـع. سُئِل بري ذات مرة مـاذا كان يجري في بقـية أنحاء العـالم حين كانت مصر تـضع أسس الحضارة؟ أجاب ببـساطة «لاشيء». كمـا ذهب إلى القول واضعـاً في الاعتبـار ظهور النسـخة الأولى من **المصريون القدماء** في عام ١٩١١م بأن: «تراكم الأدلة خلال الأعوام العشرين التي انقضت منذ نشر ذلك الكتاب تميل إلى تأكيد صحة ما كان يعتقد أنه تعميم مذهل».

حقيقـة إنه مذهل، إن نظرية اسمث/ بري بكاملها تعد مـثالاً رائعاً لابتداع ماضٍ لاوجود له، وفرض نمط على الدليل الأثري يمكن إثبـاته فقط بأمثلة غير واقعية وتسلسل زائف وأدلة ملفـقة. يشير لوي Lowie في كتابه **تاريخ النظرية الإثنولوجية History of Ethnological Theory** إلى إليوت اسمث بأنه شخص: «يصعب فهـمه وأنه جاهل بأساسيـات الإثنوغرافيا»، كما أشـار الدكتور أ.م. توزر الذي يعمل بمتـحف بيبودي بهـارفارد ذات يوم إلى زميله الدكـتور رونالد ديكسون بأن مدرسة مـانشستر ستصل بذلك الفيـضان من المؤلفات إلى إقنـاع

كل فـرد في هذا العالم بـأن الهنود الأمريكيـين قد وفـدوا من النيل، وطلب توزر من ديكسون أن يعـجل بإصدار رد على تلك الادعاءات. وبالفـعل أصدر الأخير **بنـاء الحـضارة** (١٩٢٨) **The Building of Culture** فكان ضربة مدمرة لأوهام سـمث وبري إلا أن أثره على أتبـاعهم كـان محـدوداً. ولا ندري لماذا يبتـدع الأكاديميـون الأذكيـاء هذا الخليط من الهـراء ويعتقـدون به؟ لقد كـانوا يخدعـون العالم؟ فهل نجـحوا في خداع أنفـسهم؟ الإجابة نعم، ذكـر إليوت اسمث في محاضـرته في ذكرى هكسلي في عام ١٩٢٨م: «أن الموقف الذهني للمفكر قـد يصعب تمييـزه عن الخديعة أحـياناً». وهذا ماحـدث له، لقد طور موقفاً ذهنيـاً خاصاً بالأصل المصري للحضارة البشرية وقـد أصبح ذلك خديعة كبرى[١].

بعد عامين من موت إليـوت اسمث نشر لورد ريجلان Raglan كتابه **كيف جـاءت الحضـارة** (١٩٣٩) **How Came Civilization** ، وفيـه استـبدل الأصل المصري للحضارة البـشرية بأصل سومري واقترح مركزية سـومرية للانتشار وأن كل الحضـارات قد بدأت في بلاد الرافـدين، كتب يقـول: «ليس من ابتكار أو اكـتشـاف أو عادة أو مـعـتقـد أو حـتى قصـة يمكن أن تنشـأ من حضـارتين مختلفتين. . . إن الحالة الطبيعية للإنسان هي الوحشية السفلى. . . والمتوحشون لايمكن أن يبتكروا أو يكتشفوا شيئاً. . إن الكثـير من الاكتشافات والاختراعات الأساسية التي تستند إليـها حضارتنا يمكن تتبعها ـ فيـما يبدو ـ إلى منطقة قرب

(١) في مقابل المـدرسة الانتشارية البريطـانية هذه كانت هناك مدرسة انـتشارية ألمانية قامت عـلى كتابات فـريتز جريبنور (١٨٧٧-١٩٣٤) ووليم اشـمت (١٨٦٨-١٩٥٩)، إلا أنهم نادوا بوجـود أكثـر من مركـز واحد للإشعاع الحـضاري حيث كـوَّنت هذه المراكز في رأيهمـا مناطق حضارية مـا لبثت أن اتصلت ببعضها، والمدرستان على اختلافهما التفصيلي تشتركان في رفض التطورية. (المترجم).

رأس الخليج الفارسي».

إن مايميز نظريات مـدرسة مانشستـر ولورد ريجلان بالنسبة لغـير العارفين بعلم الآثار هو أنها تضمنت تفسيراً كاملاً ومبسطاً لأصـول الحضارة وليس ثمة خطورة في ذلك، إلا أن تفسيرات أخرى لآثار ماقبل التاريخ أصبحت من الخطورة بمكان.

أحد هذه التعاليم هو ما كان قد بشر به غوستاف كوسينا Gustav Kossinna في ألمانيا، فقـد كتب أحد النبلاء الفرنسيين واسـمه الكونت دوغوبينو Comte de Gobineau مقالاً بين عامي ١٨٥٣- ١٨٥٧ بعنوان **مقال في عدم المساواة بين أجناس البشر Essay on the Inequality of Human Races** صرح فـيه بأن أمل العالم ـ كما كان دائماً ـ يقع على كاهل أصـحاب الشعر الأشقر التيوتونيين أو من أسماهم الآريّين، وفي عام ١٨٩٩ نشر هيوستن استيورات شامبرلين Houston Stewart Chamberlain **مرتكزات القرن التـاسع عشر The Foundations of the Nineteenth Century** الذي خلط فيه بين الإنثروبولوجيا الطبيعية واللغات والآثار، وبدأت الخرافـة القائلة بتمـيز الجنس الألماني تأخذ في الانتـشار. ولم يكن مدهشاً أن النازيين حين جاءوا إلى السلطة حـملوا معهم تلك الخرافة التي نراها واضحة في كـتاب هتلر **كفـاحي Meni kampf**. إلا أن المدهش حقاً هو وجود آثاريين على استعداد لتسخير الآثار لغايات سياسية.

بدأ كوسينا (١٨٥٨- ١٩٣١) عـالماً في اللغات القديمة ثم تحـول إلى ماقبل التاريخ، وفي عام ١٩٠٢م عين أسـتاذاً لما قبل التاريخ في ألمانيا بجـامعة برلين وبقي في تلك الوظيـفة حتى وفاته. كـان محتـجاً لأن ماقـبل التاريخ الألماني لايزال في اعتـقاد الكثيريـن أقل أهمية في الثقـافة الألمانية مـقارنة بمكانة الآثار المصرية أو الإغـريقية أو الرومانيـة أو الشرقيـة في ثقافاتها، وشـرع في إثبات عظمة الشعب الألماني عـبر الدليل الأثري لحقب ماقبل التـاريخ فوضع تسلسلاً

حضارياً لشمال أوربا مبالغاً فيه بحيث يبدأ كل شيء فيه في ألمانيا، وسط شعب رفيع المستوى قبل أن ينتشر إلى جيرانهم الأقل شأناً في غرب أوربا وشرقها.

كل هذا يبدو غريباً وغير واقعي في عالم اليوم لكنه كان مقبولاً وقتها، لقد كان كوسينا مقتنعاً بذلك، ووجدت تلك التحريفات الآثارية قبولاً عند العنصريين الألمان، وبدا لهم أنه برهان على عظمة الشعب الألماني جاء فيما يبدو من علم الآثار الذي لاتحوم حوله الشكوك. لم يكن ذلك خرافة بالنسبة لهم بل كان حقيقة وحقيقة مبهجة للتعاليم النازية، لقد قال هملر[١] ذات مرة: «إن ماقبل التاريخ هو الدليل على سمو الألمان عند فجر الحضارة».

إن الأمثلة التي جاءت في الصفحات السابقة توضح مخاطر ما يسمى تأدباً هذه الأيام «بعلم الآثار البديل» Alternate archaeology. وسنرى لاحقاً أن هذه المخاطر وأن اختلفت شكلاً لاتزال بيننا[٢].

(١) هنرى هملر (١٩٠٠-١٩٤٥) زعيم نازي ألماني وداعية للأفكار النازية، عمل مديراً للاستخبارات تحت زعامة هتلر. وقد أنشأ الجهاز تحت إدارته عدداً من الكراسي لآثار ماقبل التاريخ، كما عين عدداً من الآثاريين وموّل حفريات ميدانية؛ كل ذلك لخدمة الغايات العنصرية النازية، بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية انتحر هملر بالسم. (المترجم).

(٢) خلال العقد الرابع من هذا القرن طُرحت أفكار المدرسة الوظيفية البريطانية التي نادى بها كل من مالينوفسكي (١٨٨٤-١٩٤٢) Malinowski ورادكليف براون (١٨٨١-١٩٥٥) Radcliff-Brown، وكلاهما تأثر بالفرنسي إميل دوركايم (١٨٥٨- ١٩١٧) Emile Durkheim.
ويرى هؤلاء أن الثقافة هي مجموعة النظم الوظيفية التي تلبي حاجات ورغبات (مادية أو روحية في المجتمع، وتحتاج تلك الرغبات إلى أدوات لتنفيذها، تشكل نظاماً اجتماعياً كلياً يؤدي إلى ربطها وتماسكها)، ومن ثم فإن فهم أي عنصر ثقافي يتطلب فهم وظيفته التي تتطلب بدورها فهم علاقته مع العناصر الأخرى. قاد هذا الاتجاه إلى تكثيف الدراسات الحقلية كتلك التي قام بها بعض مؤيدي هذا الاتجاه من أمثال إيفانز بريتشارد Evans- Pritchard. (المترجم).

مصر والشرقين الأدنى والأوسط:

أمــضى فلندز بيتــري من بداية الربع الأول من القــرن العشــرين حتى عــام ١٩٢٦م يعمل بالتنقيب في مصر، وبعــد أربعين عاماً من العمل في ذلك البلد حول اهتــمامه إلى فلــسطين التي توفى بها في عام ١٩٤٢. وقــد مكّنه توقف الحــفريات أثناء الحــرب العالميــة الأولى من كــتابة تقــاريره التي بدأها بــ: فنون وحرف مــصر القــديمة (١٩٠٩) **Arts and Crafts of Ancient Egypt** والجعــارين والأختــام **Scarabs and Cylinders** الذي نشــر في عام ١٩١٥، ثــم تبعــه بــ: أدوات وأسلحة (١٩١٦) **Tools and Weapons**، ومجموعة فخار ماقبل التاريخ (١٩١٨) **Corpus of Prehistoric Pottery**. ومــصــر ماقــبل التــاريخ (١٩٢٠) **Prehistoric Egypt: illustrated by over 1000 Objects in Univeristy College London.**

إلا أن أعظم الاكتشــافات في مجال الآثار المصرية خلال القــرن العشرين لم تكن من نصــيب بيتري. فــفي عام ١٨٨٧ كانت زوجــة لأحد الفــلاحين تقوم بحفــر التربة بغــرض أخذ سمــاد في منطقة تل العــمارنة، وهناك عــثرت على مايعــرف الآن بألواح العمــارنة الطينية وعليــها كتــابة مســمارية. هذه الألواح تجاهلها الناس في البداية ثم وصفوها بأنها مــزيفة، ولكن أعترف بأهميتها على الرغم من أن نصــفها كــان قد فقــد وقتــها[1]. ثم نُشرت الألواح فــي النهاية وكــذلك نُقب الموقع بواسطــة عدد مــن الآثاريين (من بينهم بيــتــري في عــام ١٨٩١- ١٨٩٢). وبدءاً من عام ١٩٠٧ تولت التنقيب فيه جمــعية المستشرقين

(١) هذه الألواح المكتوبة بالخط المسماري هي رسائل تبادلهــا ملك مصر مع الحيثيين وبعض حكام الشام. (المترجم).

الألمان، وحين انتهى امتياز الجمعية الألمانية في عام ١٩٢١م تولت العمل فيه جمعية الاستكشافات المصرية. واستمر العمل في الموقع لعدد من السنوات تعاقب على إدارته أشخاص أصبح لهم شأن في مجال آثار الشرق الأدنى، منهم وحسب تسلسلهم: بيت TEPeet وولي CLWoolley ونيوتن F. G. Newton ووقريفث L. Griffith وفرانكفورت H. Frankfort وبندلبري. J. Pendlebury. وقد نشرت نتائج الحفريات الأخيرة موجزة في كتاب بندلبري **تل العمارنة** الذي حوى صورة حيّة مفصّلة للحياة في القرن الرابع عشر ق.م. في هذه المدينة الرائعة في عهد أخناتون، رغم أنها لم تعمر طويلاً.

أما أخناتون أو أمنحوتب الرابع فهو الفرعون المصري المنشق الذي حكم مع زوجته الملكة نفرتيتي سبعة عشر عاماً (حوالي ١٣٦٩- ١٣٥٢ق.م.) في أواخر الأسرة الثامنة عشرة. وقام بنقل العاصمة من طيبة إلى تل العمارنة التي شهدت تطوراً رائعاً في الفنون والآداب عرف بطراز العمارنة. لقد حاول أن يبدل الكم الهائل من الديانات المصرية المعقدة ـ خاصة عبادة أمون ـ رع ـ إلى عبادة معبود واحد هو الشمس التي يرمز إليها بأتن أو أتون. ثم خلفه على العرش توت عنخ آتون، ابن امنحوتب الثالث الذي حكم تسعة أعوام وعمل على إعادة الاعتبار لأمون ـ رع وحول اسمه إلى توت عنخ أمون. وقد حاول خلفاؤه التقليديون التخلص من اسمه وذكراه ولهذا فإننا لانعرف عنه إلا الشيء القليل. إلا أن المصادفة التي لعبت دوراً في حفظ مقبرته وكذلك في الكشف عنها ربما قد جعلت منه أكثر الأسماء شيوعاً وشعبية في مجال علم المصريات، كان ذلك نتيجة اكتشاف مقبرته ذات التحف المدهشة في خريف عام ١٩٢٢م.

إن الاكتشافات التي توصل إليها شليمان في طروادة وموكيناي قد جعلت

اسمه على كل لسان، وأمواله الخاصة التي أنفقها على الحفريات، والكنوز التي عثر عليها، غيرت العالم. كتب البروفسر أ. هـ. سايس الذي كان يعمل بجامعة اكسفورد غاضباً: «لماذا لم يقتف بعض الأثرياء الذين تزخر بهم إنجلترا أثر الدكتور شليمان؟ لماذا لايضعون في خدمة العلم قليلاً من تلك الأموال التي تنفق بسخاء على تربية الخيول وصيانة أماكن تربية الكلاب؟ لابد أن يكون بيننا شخص أو اثنان على الأقل على استعداد لمد يد العون لاكتشاف تاريخ حضارتنا».

لقد وجد هذا في شخص اللورد كارنرفون (١٨٦٦- ١٩٢٣م) Lord Car-narvon الذي كان معتلاً إثر حادث سيارة ونصح بالسفر إلى مصر، ومثل الكثيرين فقد فتن بمصر وآثارها. كشف بيرسي نيوبري Percy Newberry عالم المصريات والصديق المقرب من كارنرفون أن الأخير قد ذكر له ذات مرة أنه: «يفضل اكتشاف مقبرة غير منهوبة من أن يكسب سباق الخيل». ذهب كارنرفون إلى مصر في عام ١٩٠٧م وأمضى موسماً في كل سنة من الأعوام الستة عشر التالية يعمل في مصر.

بدأ العمل مع هوارد كارتر ١٨٧٣-١٩٣٩) Howard Carter) الذي عمل بدورة تحت نيوبري ونافيل وعينه ماسبيرو في عام ١٨٩٩م ليعمل مفتشاً للآثار في مصر العليا. بدءاً من عام ١٩٠٢م تعاون مع ثيودور ديفز (١٨٣٧-١٩١٥) Theodore Davis وهو أحد رجال الأعمال الأثرياء من نيويورك، فعملا معاً في وادي الملوك، واكتشفا معاً مقبرة تحوتمس الرابع. وفي عام ١٩١٢م قرر ديفس أن الوادي قد نضب، فقرر ماسبيرو منح الامتياز إلى كارنرفون الذي عمل مع كارتر في الوادي حتى عام ١٩٢١م باستثناء سنوات الحرب. وفي العام التالي أخبر كارنرفون كارتر أنه على غير استعداد لإنفاق المزيد من الأموال

في مهــمة لاطائل من ورائها، ولكنه أُقنع بتــمويل موسم آخر وأخــير. وفي ٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٢ عثــر عُمّال كارتر على دَرج منحوت في الصخر به ستة عشر درجة بين مدخــلين، على الثاني منهما ختم توت عنخ آمون. هذه المقبرة كانت قد افتتحت رسمــياً في ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢م، ونقَّب فيها كارتر من حين إلى آخر على مدى عشر سنوات، وقد أنجبت المقبرة مايقارب خمسة آلاف عمل فني. لقد أحــدث الاكتشاف ضجة على امتــداد العالم وأصبح توت عنخ آمــون على كل لسان، وكــذلك المقبــرة التي صــارت أعظم كشف آثاري بهــذا الثراء. لم تنشــر الحفريات بكاملها إلا أن هناك ثلاث مــجلدات لكارتر وميس Mace بعنوان **مقبرة توت عنخ آمون The Tomb of Tutankhamen** نشرت خلال الأعوام ١٩٢٣-١٩٣٣م. وللذين يودون مــعرفة المزيد عن حــفريات توت عنخ آمون عليهم مراجــعة توماس هوفنج Thames Hoving **توت عنخ آمون، القــصة غيــر المروية** (١٩٧٩) **Tutankhamun, the untold Story** وأرنولد براكمان Arnold Brackman **البــحث عن كنــوز توت عنخ آمــون** (١٩٧٦) **The Search for the Gold of Tutankhamen** وكذلك المذكرات الشائقــة لابن كارنرفون المسماة **قصص أرمين Ermine Tales**.

تعاقب عدد من الآثاريين خلال العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن على مواصلة أعمال بيتري الرائدة في نقادة وأصول الحضارة المصرية في حقب ماقبل التــاريخ. ففي مــصر الســفلى عــمل كل من يونكر Junker ومنغن Menghin وشارف Scharff في موقع مرمــدة بني سلامة الذي يعود إلى العصــر الحجري الحديث. كــذلك درست كل من الآنسة كــيتون طومــسون Caton-Thompson والآنسة قاردنر Gardner حضارات العــصر الحجري الحديــث في وهاد الفيوم خلال الأعوام ١٩٢٤- ١٩٢٨م. وفي مصر العليا والوسطى نقبت بعثة المدرسة

الآثارية البـريطانية في مـصر في البـداري وماحـولها خـلال الأعوام ١٩٢٢- ١٩٢٥م. وقام غي بـرنتون Guy Brunton بحـفريات في مـقابر في البـداري ونقبت الآنسة كيتون طومسون موقعـاً في الحمامية بين قاو والبداري. وقد نشرا نتائجـهما مـعاً في **حضـارة البداري ومـخلفـات ماقبـل الأسرات قرب الـبداري** (١٩٢٨) **The Badarian Civilization and Predynastic Remains near Badari**. جعل ذلك من حضارة البداري السلف المباشر لحضارات ماقبل الأسرات في مصـر العليـا. وفي عام ١٩٢٨ و ١٩٢٩م قام برنـتون بالتنقـيب في مقـبرة ومستوطن قديم في دير طاسا قرب مستجدة، وفي كتابه **مستجده وحضارة طاسا** (١٩٣٧) **Mostogedha and Tasian Cutture** زعم أن حضارة طاسـا قد أنجبت حضـارة البداري، كـان بيتـري حكيماً حـين جعل س. د: ٣٠. SD30 بداية لتسلـسله الزمني لمصر حـيث أصبح ممكناً وضع حـضارتي طاسـا والبداري في مرحلة سابقـة لهذا، وبذلك أصبح لدينا تسلسل يقودنا من حـضارة طاسا إلى الأسرة المصرية الأولى في س. د: ٧٩ SD79[1].

وفي وادي الرافدين بدأت الحفريات مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، فبدأ ر. كامبل ـ طومسون R Campbell-Thompson ممثلاً للمتحف البريطاني

(١) شهـد الربع الأول من هذا القرن (١٩٠٠-١٩٢٥م) أعمـالاً آثارية مهمة مكـثفة في شمـال السودان وأواسطه، نذكر منها حفريات جامعة ليفربول بقيادة جون غارستناق خلال الأعوام ١٩١٠- ١٩١٤م في موقع مدينة مـروي (العاصمة الثالثـة لكوش). كذلك قامت بعثة مـشتركة من جامـعة هارفارد ومتحف بوسطن بقـيادة جورج رايزنر G. Reisner بحفريات بـين عام ١٩١٦-١٩٢٢م في مواقع كوشية تخص الأسره الخامسة والعشرين وأسلافـها في نتة (العاصمه الثانيه لكوش)، وجبل البركل والكرو ونوري والبجراوية. كما قامت بعثة من جامـعة أكسفورد بقيادة فرانسيس عريفث G. Griffith ومن بعده ماكادام M. Macadam من جامعة درام بحفريات في موقع الكوة. (المترجم).

حفريات في أور وأريدو[١] قبل هدنة عام ١٩١٨م. بعـد ذلك عثر هـ. ر. هول H. R. Hall في العبيد ـ وهو موقع جـديد على بعد ٤ أميال إلى الغرب من أور ـ على مسطبة مـعبد صغيـر يمكن عده نموذجاً أولياً للزقورات الســومرية. وفي عام ١٩٢٢م تابعت بعـثة مشـتركة من المتـحف البريطاني ومـتحف جامـعة بنسلفـانيا حفـريات طومســون وهول في أور والعبـيد تحت إشـراف لينارد وولي Leonard Woolley. وفي عام ١٩٢٦م كشـفت مقبرة في أور تعود لحقب مـاقبل التاريخ، وعثر في مقـابرها الملكية على كنوز ذهبية رائعة وحـجارة كريمة. لفت هذا الدليل الأنظار إلى العادات الجنائزية وأحـدث ضجة شبيـهة بتلك التي أعقبت اكتـشافات شليمـان ومقـبرة توت عنخ آمون، ووضـعت التنقيـبات في أور الســومريين على خارطة المعرفة. ثم وضعت في متناول أيدي العامة التقارير الأولية التي نشرت في مـجلة جامـعي التـحف **Antiquaries Journal** خلال الأعـوام ١٩٢٣- ١٩٣٤م. والتقارير المفـصلة التي نشرت خلال الأعوام ١٩٢٧- ١٩٣٤م كـانت تقارير رائعة مفـصلة أعدها وولي أحـد أميز الآثاريين الحـقليين الذين عملوا علـى إيصال علم الآثار إلى العامة، منها **أور الكلدانية (١٩٢٩) Ur of the Chaldees و السومريون The Sumerians (١٩٣٠)** وإبراهيم: **الاكتشافات الأخيرة وأصل العبرانيين (١٩٣٠)**
Abraham: Recent Discoveries and Hebrew Origins.

في الوقت الذي كانت البعثة البريطانـية الأمريكية تعمل في أور كانت هناك بعثة مـشتركة بين جامـعتي أكسفورد وشـيكاغو تحفر في كش وجـمدة نصر[٢]

(١) أور هي موقع تل مخيّـر الحالي وتقع على بعد ١٦٠ كيلاً غرب البـصرة، وأريدو هي تل أبوشهرين على بعد ١٢ ميلاً إلى الجنوب الغربي من أور. (المترجم).

(٢) كش موقع سومري قرب بابل، وجمدة نصر موقع بين بابل وبغداد يعود إلى حقبة ماقبل السلالات. (المترجم).

(وهو العمل الذي واصله الفرنسي واتلان Watelin)، وكان الألمان ينقبون في الوركاء (أورك)[1]. وفي عام ١٩٣١م ميز المؤتمر الثامن عشر للمستشرقين الذي عقـد في لايدن ثلاث فتـرات لحقب مـاقبل التاريخ فـي وادي الرافدين: أولاً العبـيد، وثانياً أورك، وثالثاً جـمدة نصر. أمـا في شمال وادي الرافدين فـقد جرت تنقيبات في تل حلف وأربشية وتبة قاورا. وفي عام ١٩٣٣م صدر قانون عراقي يمنع البعثـات الأجنبية الآثارية من تصدير المعثورات. فـارتحل الفرنسيون إلى سورية حيث بدأ بارو Parrot تنقيـبات في ماري في عـام ١٩٣٤م، وأخذ البريطانيـون يحفرون شـقار بازار وتل براك في سورية وفي عطشـانة في سهل أنطاكية.

إيران والأناضول وفلسطين:

كانت معرفتنا بآثار ما قبل التاريخ في إيران وحول بحر قزوين لبعض الوقت تسـتند على أعمـال جاك دومـورغين Jacques de Morgan في سوسـة وبمبلي Pumpelley في أناو. وفي الفـترة قيـد البحث توسـعت معـرفتنا بآثار مـاقبل التاريخ في الشرق الأوسط عـبر التنقيبـات في مواقع مثل تبة حصـار وشاه تبة وتورانج تبة وتبة غيان وتبة سيالك[2]. والموقع الأخير ذو أهمية خاصة، إذ أمدنا بتسلسل لتعاقب طـبقي. تقع سيالك على مقربة من كاشـان وقد تمت الحفريات فيها خلال الأعـوام ١٩٣٣ و١٩٣٤ و١٩٣٧م على يد رومان غرشمان **Roman Ghirshman**، ونشرت التقارير كاملة في **حفريات سيالك** (المجلد الأول ١٩٣٨

(١) الوركاء أحد أهم المواقع السومرية وتقع على بعد ٥٥ كيلاً شمال غرب أور. (المترجم).

(٢) تبة عبارة فارسية («دبة» العربية) تعني تل كما تحمل عبارة هيوك التركية المعنى نفسه. (المترجم).

والمجلد الثاني ١٩٤١) **Fouilles de Sialk** . لقد كشفت الحفريات عن أربع مراحل متتابعة، كانت الأولى سيالك -١ أكثرها إثارة، فقد تميزت بمنازل طينية تحتوي على مقابر تحت أرضياتها دفن فيها الموتى بشكل قرفصائي، وقد شملت المعثورات مقلاعات حجرية وصولجانات وفؤوساً حجرية وأزاميل إلى جانب دبابيس ومخارز نحاسية. كذلك عرف مزارعو سيالك تربية الضأن والأبقار، وربما مارسوا زراعة الحبوب وقاموا بصيد الحيوانات وجمع النبات، وربما كان دورهم انتقالياً بين جامعي القوت في العصر الحجري الوسيط ومنتجي القوت في حضارات العصر الحجري المعدني المعروفة في الشرق الأدنى والأوسط. لقد قام غرشمان بإحصاء تاريخ سيالك -١ على أساس تراكم الرديم في الموقع معطياً كل طبقة سكانية خمسة وسبعين عاماً، ومن ثم أعطى تاريخاً في حدود ٤٣٠٠ ق.م. - ٢٠٠٠ لأقدم استيطان في الموقع.

أما العمل الرائع الذي قام به سير أورل اشتاين (١٨٦٢- ١٩٤٣م) Aurel Stein فهو تسليط الضوء على آثار الهند وإيران وأواسط آسيا في الحقبة قيد البحث. لقد عمل اشتاين - وهو هنغاري الأصل بريطاني الجنسية - أولاً في مجال التعليم في الهند ثم في دائرة الآثار الهندية. وقد كان رحالاً لايعرف التعب، قام بالإشراف على أربع بعثات إلى أواسط آسيا (١٩٠٠-١٩٠١، ١٩٠٦-١٩٠٨، ١٩١٣-١٩١٦ و١٩٣٠م)، وتشير قائمة أعماله المنشورة إلى اتساع أبحاثه وبُعدها، منها: خوتان القديمة **Ancient Khotan** وسريندرا (١٩٢١) **Serindra** وألف تمثال لبوذا **The Thousand Buddhas** آسيا الموغلة (١٩٢٨) **Innermost Asia** واستكشافات آثارية في شمال غرب الهند وجنوب شرق إيران **Archaeological Reconnaissance in NW India and SE Iran** (١٩٣٧) والدروب القديمة في غرب إيران (١٩٤٠) **Old Routes of Western Iran**. ومن

أهم اكتشافاته تلك المخطوطات التي عثـر عليها في تركستان وتؤرخ إلى القرون الميلادية الأولى، وقد كتبت بلغة التوقار وهي لغة ميتة من عائلة اللغات الهندية الأوربية.

واصل فريق من الباحثين العمل الذي بدأه هروزني لترجـمة الوثائق الحيثيّة، وسرعان مـا أصبحت رسائل بوغـازكوي جزءاً من معرفـتنا عن الشرق الأدنى القديم، ونقبت مواقع أخرى في الأناضول. بدأت بعثة من معهد الآثار بجامعة ليفربول التنقـيب في الأناضول تحت إشراف جون غـارستانق John Garstang الذي واصل العمل هناك لأكـثر من أربعين عامـاً. وقد جمعت مـعلوماتنا عن الحيثيين التي جاءت من حفريـات أخرى ومن قراءة ألواح بوغازكوي في كتاب أ. كاولي A. E. Cowley الحيثيـون (١٩٢٠) **The Hittites** و ج. كونتينو G. Contenau عناصر البيليـوغرافيا الحيـثية (١٩٢٢) **Elementes de Elementes de Bibliogrophie Hittite** وغارستانق الحيثيون (١٩٢٩) **The Hittites** .

بعد أربعـين عاماً على نهـاية حفـريات شليمـان على يدي دوربفلد نظمت جامعة سنسناتي حملة ميدانيـة تحت إشراف البروفسر و.ت. سمبل W. T. Semple للعمل في طروادة. وعين كارل بلجين Carl Belgen مشرفاً مـيدانياً لها، وقد عمل طوال سـبعة مواسم هناك بين ١٩٣٢- ١٩٣٨م. وقـد نشرت نتائج ذلك العمل على يد بلجين وزملائه في كتابه **طروادة: حفريات جـامعة سنسناتي ١٩٣٢- ١٩٣٨م** (٤ مجلدات ١٩٥٠ - ١٩٥٨م) **Troy: Excavations Conducted by the University of Cincinati, 1932-38** ، كمـا أن كتـيباً مـختـصراً لبلجين قـد ظهـر في عـام ١٩٦٣م بعنوان **طروادة والطروادين** **Troy and the Trojans** . كان الهدف من هذه الحملة هو اخـتبار مناطق أخرى في المواقع إلى جانب مـراجعة التـعاقب الطبـقي والتسلسل الزمني وكـذلك التأكد مما أسـماه

دوربفلد طروادة -٤ (التي أرخها إلى الفترة بين ١٥٠٠ق.م. و١٠٠٠ ق.م.) على أساس أنها المدينة التي تحدث عنها هومر، وكانت استنتاجات دوربفلد الخاصة بطروادة -٤ والتسلسل الزمني قد انتقدها أبرغ Aberg في كتابه كرونولوجيا العصر البرونزي والعصر الحديدي المبكر **Bronzezeitliche und Fruheisenzeitliche Chronologie.**

لقد كشفت بعثة جامعة سنسناتي أن طروادة -١ كانت مدينة صغيرة، أرخها بلجين إلى الفترة من ٣٠٠٠ ق. م. إلى ٢٥٠٠ ق.م. أما طروادة -٢ التي يرى بلجين أنها قد لعبت دوراً كبيراً في تطور العصر المعدني في أوربا فقد أرّخت إلى الفترة بين ٢٥٠٠ ق.م. و٢٢٠٠ ق.م. وطروادة - ٦ كانت مدينة دمرتها زلازل، أما طروادة - ٧ أ فقد صنفت على أنها المدينة التي عناها هومر وأرخت عن طريق معثورات مستوردة من موكيناي إلى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر ق.م.، وقد عدّل بلجين ذلك التاريخ في عام ١٩٦٣م إلى ١٣٠٠- ١٢٦٠ ق.م.

ألحقت الدلائل من طروادة بحفريات في كوم تبة ويورتان وثرميا في لسبوس[1]، حيث عثرت الآنسة وينيفرد لامب Winifred Lamb كما جاء في كتابها **حفريات في ثرميا في لسبوس** (١٩٢٨) **Excavations at Thermi in Lesbos** على تسلسل لخمس مدن متعاقبة تعلو بعضها البعض، تعاصر الأربعة الأولى منها طروادة -١ .

أما الحفريات في وسط الأناضول وشرقها فقد كشفت عن حضارات سابقة للحيثية وثقافات يمكن مقارنتها بتلك التي عرفت من الطبقات المبكرة في طروادة

(١) لسبوس جزيرة في بحر إيجة. (المترجم).

وثرميـا. وفي عام ١٩٢٦م نشـر دو غنوياك de Genouillac فخـاراً ملوناً من متـحف اللوفر يـخص حقب ماقـبل التاريخ فـي الأناضول في كـتابه **الفـخار الكبدوكي Ceramique Cappadocienne**. أضحت الحاجة ماسـة لحفريات أكبر حجماً تربط ذلك الفـخار الملون بالحيثيين وتمدنا بتسلسل مـتكامل لحقب ماقبل التاريخ في الأناضول. لقد كان ذلك هو هدف معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو حين خطط خـلال العشرينيات من هذا القـرن لإجراء بحث شامل في حضارة الحيثيين وأسلافهم. وفـي عام ١٩٢٦م ـ خلال موسم واحد ـ عثر فون در أوستن Von der Osten على مـا يزيـد على ثلاثمـئـة مـوقع جـديد في الأناضول، كان أكثرها مدعاة للاهتمام هو موقع عليشار هيوك، وهو تل يرتفع لما يزيد على مـئـة قدم (ثلاثين مـتـراً)، وقد قـام كل من أوستن وشـمت EF Schmidt بالتنقيب فيه بين عام ١٩٢٧ و١٩٣٢م.

كان هذا المـشروع حفـريات متكاملـة نفذت بإتقـان وأصبحـت إحدى أهم المساهمـات التي قدمت لعلم الآثار خـلال القرن العـشرين، كـما يلاحظ من دراسة كتـاب شمت **الأناضـول عبر الـقرون: اكتـشافـات تل عليـشار** (١٩٢٧-١٩٢٩) **Anatolia through the Ages: Discoveries at Alishar Mound** وكتاب فون در أوستن واشـمت **حـفـريات عليـشـار هـوك ١٩٢٧- ١٩٢٩** (١٩٣٠-١٩٣٧) **Alishar Huyuk Excavations, 1927-29**.

إضافـة إلى ذلك جاءت معلومـات مفصلة أخـرى للتسلسل الحـضاري في الأناضول من حفـريات الدكتور حامت زبيـر كوساي Hamit Zubeyr Kosay مدير الآثار والمتـاحف التركي، في احلاتليـبل والأجاهيوك. كـذلك فإن المسح الأولي في سهل سلـسيان الذي قـام به جيرشـتاد Gjerstad قد واصلتـه بعثة نلسـون تحت قيادة غارستـانق خلال الأعوام ١٩٣٦-١٩٣٧م ولعدة مواسم في

تل مرسن. قام م. برخت M. C. Burkitt بدراسة الصناعة المبكرة للعصر الحجري الحديث وزعم أنها أقدم ثقافة في الشرق الأدنى لحقبة مابعد العصر الحجري القديم وأعطاها تاريخاً في حدود ٥٥٠٠ ق.م.

وفي فلسطين تولى معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو الحفريات في موقع مجيدو بدءاً من عام ١٩٢٥م، وكانت بعثة ألمانية بقيادة شوماخر Schu-macher قد أجرت تنقيبات في الموقع خلال الأعوام ١٩٠٣- ١٩٠٥م. أما موقع رأس شمرا (أوغريت القديمة) فقد اكتشف مصادفة في عام ١٩٢٩م وتم التنقيب فيه خلال السنوات العشر التالية على يد كلود شيفر Claude Schaef-fer. كشفت تلك الحفريات عن تتابع حضاري طويل يمتد من العصر الحجري الحديث الذي يمكن مقارنته بما عثر عليه في مرسين[١] Mersin وحتى الألف الثانية ق.م. حيث أطلال مدينة جاء ذكرها في مدونات تل العمارنة على أنها أوغريت، وكذلك في مراسلات حيثية ونقوش مصرية. كانت أوغريت قد دمرها زلزال في منتصف القرن الرابع عشر ق.م. ثم أعيد بناؤها، ثم دمرتها مرة أخرى مجموعات بشرية قدمت من الشمال، ممن يُسمون «بشعوب البحر» People of the Sea في نهاية القرن الثالث عشر وبداية الثاني عشر ق.م. لقد كانت فيما يبدو ميناءً عالمياً وظل خلال الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن الثاني عشر ق.م. على اختلاف الفترات واقعاً تحت تأثير المصريين والحيثيين والموكينيين.

لقد عثر في مكتبة رأس شمرا على مئات الألواح الطينية التي تؤرخ للقرن

(١) مرسين Mersin هو موقع يومُك تبة على الساحل الجنوبي للأناضول ويحوي عدة أدوار حضارية تمتد من بداية العصر الحجري الحديث وحتى العصور الإسلامية. (المترجم).

الخامس عــشر وبداية القرن الرابع عــشر ق.م.، حملت هذه الألواح كـتابات بأبجدية مسمارية صنفت عــلى أنها لغة سامية قريبة الصلة بالعبـرية والفينيقية. كان اكتشاف ألواح رأس شمرا التي حوت أقـدم أبجدية معروفة بسجل مكتمل أحد أهم الاكـتشافات الآثارية، ولـقد اشتقت كل الكتـابات الأبجدية بما فيـها الإغريقية من الأبجدية الفينيقية[1].

جرت أول حفريات في أريحة على يد جمعية المستشرقين الألمان في الأعوام ١٩٠٧- ١٩٠٩، وكان غـارستـانق قد بدأ عـملاً هناك في عـام ١٩٣٠ وظل ينقب حتـى عام ١٩٣٦، حيث كـشف عن تسلسل يمتد من العـصر الحـجري الحـديث مـاقبل الـفخـار، الذي أرخـه إلى ٤٥٠٠ ق.م. ـ ٤٠٠٠ ق.م.، ومروراً بعــدة مدن أخرى حـتى تدمير أريحة عـلى يدي يوشع الذي أرخه إلى ١٤٠٠ق.م.

أوربا الكلاسيكية والبربرية:

قادت الاكتـشافات الرائعة لآرثر إيفانز في كنوسس إلى حـفريات في مواقع كريتية وإيجية أخرى، حيث قام الإيطاليون بقيادة هالبر Halbherr بالتنقيب في قصر في فستوس وفي قبر هاغيا ترايادا[2] الذي حوى مايزيد على ٢٥٠ هيكلاً عظمياً، كذلك قام البريطانيون بحفـريات في قورنيا والفرنسيون في ماليّا، وقد

(١) تؤرخ بداية الكتابة الأوغريتيـة إلى نحو القرن ١٤ ق.م. أما بداية الكتابة الفينيقـية فتؤرخ إلى القرن العاشر ق.م. وينسب موت الأولى لشيوع الثانية. (المترجم).

(٢) يحوي مـوقع هاغيـا ترايادا (على بعـد ميلين إلى الغـرب من فستـوس في وسط كريت) علـى المقر الرئاسي للمـينويين وقد بني في حوالي ١٥٥٠ق.م. بعـد أن دمرت هزة أرضـية فيـما يبدو قـصر فستوس، وهناك تلال تحوي مقابر جماعية. (المترجم).

اشترك الكريتيون أنفسهم في الحفريات فقام هاتزداكس Hatzidakis بحفر قصر مينوي في تليسوس وفي مقبرة كانسوديس في مسارا. هذه التطورات في الأعمال الآثارية في كريت جمعت في كتاب د. فيمن D. Fimmen **الحضارة الكريتية والموكينية** (١٩٢١) **Die Kretish- Mykenische Kultur** وكتاب ج. د. س. بندلبري J. D. S. Pendlebury **آثار كريت** (١٩٣٩) **The Archaeology of Crete** وكتاب جلوتز G. Glotz **الحضارة الإيجية** (١٩٢٣) **Civilisation egeenne** وكتاب ر. هتشنسون R. C. Hutchinson **كريت ماقبل التاريخ** (١٩٦٢) **Prehistoric Crete**.

في عام ١٩١٤م أوقف أرنست بوشر Ernest Buscher حفريات البعثة الألمانية في بلاد الإغريق لبعض الوقت. وعاودت البعثة أعمالها بدءاً من عام ١٩٢٥ وحتى ١٩٤٠م. وفي عام ١٩٢٥م نشر في ألمانيا الأعمال العظيمة لـ ج. د. بيزلي J. D. Beazley عن **طراز الفخار الاتيكي الأحمر** التي استندت على دراسة لعشرة آلاف قطعة، وظهرت النسخة الإنجليزية للكتاب في عام ١٩٤٢م في وقت كان بيزلي قد فرغ من دراسة خمسة آلاف قطعة أخرى.

وفي عام ١٩٢٧م عاود ت. فيغاند T. Wiegand العمل في بيرغامون كما بدأ ك. ليمان K. Lehman حفريات في ساموتريس في عام ١٩٣٨م[١].

أما في مجال الآثار غير الكلاسيكية فإن بروي سبق أن أوضح آراءه عن تطور فنون الكهوف الخاصة بالعصر الحجري القديم منذ عام ١٩٠٢م، ونشر تقويمه النهائي في عام ١٩٣٤م في كتابه **تطور الفنون الجدارية في الكهوف**

(١) بيرغامون موقع مدينة إغريقية قديمة في غرب الأناضول، وساموثريس جزيرة في بحر إيجة. (المترجم).

والملاجئ المزخـرفـة في فـرنسـا **L'Evolution de L'Art Parietal dans les Cavernes et Abris Ornees de France**.

وكرر ذلك التـقـويم في كـتابه أربعمـئة قرن مـن فن الكهوف (١٩٣٤) **Four Hundred Centuies of Cave Art**. وفي هذه الأثناء تم اكتشاف مواقع جديدة، منها على سبيل المثال موقع بش ميرل[1] الذي اكتشف في عام ١٩٢٠م.

كان عام ١٩٢٥م نقطة تحول في دراسات حقب مابعد العصر الحجري القديم في أوربا، حيث نشر غردون شايلد V Gordon Chide الأسترالي الشاب الذي كان يعمل مساعداً لأمين مكتبة المعهد الملكي للدراسات الأنثروبولوجية في لندن كتابه **فجر الحـضارة الأوربية The Dawn of European Civilization**. والكتاب ليس له سابق بالإنجليـزية على شاكلته رغم أن كتـاب شوخارت Schuchhardt **أوربا القديمة (١٩٢١) Alteuropa** كان تحليلاً رائعاً على نـهج كتاب شايلد وربما كان شايلد مـديناً له بأكثر مما هو مـصرح به. أعقب شايلد كتـابه هذا في عام ١٩٢٩م بكتاب آخـر بعنوان **الدانوب فـيمـا قبل التـاريخ The Danube in Prehistory**. في هذه الأثناء كـان شـايلد قد عين عـلى كرسي أبركـرمـبي للآثار بجامعة أدنبره وهو المنصب الذي تقلده من عام ١٩٢٧ وحتى عام ١٩٤٦م حين عين مديراً لمعهد الآثار بجامعة لندن، وهي الوظيـفة التي بقي فيها حتى تقاعده في عام ١٩٥٧م. وخلال ثلاثين عاماً من التـدريس والبحث أصبح شايلد أحد أهم الشخـصيات وأمـيزها في حقل علم الآثـار في العالم. لم يعرف بوصـفه شخصاً مهـتماً بالعمل الحقلي أو ممارساً له، إلا أن معرفـته بحفريات الآخرين وبالمقتنيات الأثرية في متاحف أوربا والشرق الأدني كانت واسعة عميقة.

(١) بش ميرل أحد المواقع التي كـشفت عن فنون صخرية تعود إلى حقبة العـصر الحجري القديم الأعلى في جنوب غرب فرنسا. (المترجم).

بعد صدور مؤلفاتـه تلك لم يكن بوسع أي بلد أوربي أن يدرس ماضيه في حدوده القطرية، فقد قدمت نظرته الأوربية الشاملة لحقب ماقبل الرومان نموذجاً للطلاب والدارسين حتى الحـرب العالمية الثـانية وعلى مدى عـشرين عامـاً بعد ذلك، لم يكتف شايلد بوضع حقائق ماقبل التاريخ في إطارها الصحيح بل قام بتفسيرها بوسيلتين:

أولاهما: استبداله نظام العهود القـديم بفكرة الحضارة التي تبرز واضحة في مقدمـة كتابه **الدانوب فيما قبل التاريخ**. **وفي المجال الثاني:** قام بتفـسير تطور حضارات ماقبل التاريخ في أوربا عن طريقين: بواسطة انتشار مجموعات بشرية وأفكار من الشـرق الأدنى وحوض المتـوسط (بعـد وقفـة خاطـفة عند تعـاليم الانتشـارية المصرية لإليوث اسمث تخلـى عن فكرة أبناء رع) تعدّلت وتطورت في أوربا. كذلك نظر إلى أوربـا البربرية على أنها تلقت انتـعاشاً حـضارياً من جنوب غرب آسيا ولكنها أوجدت أشياء جديدة خاصة بها.

أثناء سنوات التحليل والتأليف والكتابة والتـدريس تلك، كانت الاكتشافات الجـديدة تتواصل، وكـان شـايلد متـابعـاً لها. لقـد وُصِف كـثيـراً بأنه آثاري ماركسي، لكنه لم يكن كذلك كـما أوضح بنفسه (راجع مجلة **العصور القديمة** ١٩٧٩م ص ٩٣- ٩٥). لم يكن منتـميـاً إلى مدرسـة دانيال ولـسـون ولويس مورغن التي كـانت تؤمن بالتطور الحضاري الآحـادي، على الرغم من أنه سار على النهج الماركـسي في الوحـدة النفـسيـة للإنسـان في كتـابه **أسكتلندا قبل الأسكتلنديين** (١٩٤٦) **Scotland before the Scots** . لقد بقي انتشـارياً مبشراً بنموذج معدل عمـا نادت به مدرسة مانشستر، وكان مهـموماً دائماً بالموازنة في التفسـير بين الانتشار والتطور المـستقل عن الانتشار. هـل كانت إنجازات أوربا البربرية في العصـرين الحجري الحديث والبرونزي نتيجـة ما أخذته عن جنوب

شرق أوربا والشـرق الأدنى أم ترى تفسـيراً مهـماً لما اقتـبسـتـه من الخارج؟ لم يحدث أن أجـاب على هذا السؤال بما يشـبـع رغبتـه، والسبب واضح وهو أن إجابة السؤال ليست بتلك البساطة[1].

هناك ثلاث شخـصيات بريطانية أسـهمت بشكل مميز في مسـيرة علم الآثار خلال ربع القـرن الذي نتناوله في هذا الفصل، وسنعـرض لهذه الشخصـيات حسب ترتيبها الأبجدي وهي كروفورد Crawford وفوكس Fox وويلر Wheel-er. اثنان منهم تركا لنا قصتي حـياتيهما: قول أُنجز (١٩٥٥) **Said and Done** لكروفورد، **ومـازلت منقبـاً Still Digging** لويلر. والكتـابان على درجـة من الأهمـية، ليـس لفهـمنا لهـؤلاء الرجـال فقط ولكـن لتطور علم الآثار داخل بريطانيا وخارجـها خلال العشـرينيات والثلاثينيات من هذا القـرن. أما فوكس فإنه لم يترك سـيرة لحياته إلا أن المقال الذي نشـر في مقدمة الطبعـة الثانية من كتـاب **آثار منطقـة كيـمبـردج The Archaeology of the Cambridge Region** يوضح الكثير عنه وعن تطور أفكاره.

حين نضـيف إلى هذه القـائمة الـقصـيـرة من الرجال الثـلاثة اسم شـايلد الأسترالي الجنسـية الذي أمضى كل حيـاته العملية في بريطانيا، ونـذكر إيفانز الذي كان يعـمل في كريت، وكذلـك اكتشـافات هوارد كارتر وكـارنرفون في مصـر وولي في بلاد الرافـدين ومارشـال في الهند وغارسـتانق في الأنـاضول وفلسطين؛ يصبح من الإنصاف القول: إن هذه الفتـرة هي فترة سيادة الآثاريين البريطانيين مثل ماكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة سيادة الآثاريين الأسكندنافيين والفرنسيين.

---

(١) راجع الفصل الخامس.

تخرج و.ج.س. كروفورد (١٨٨٦- ١٩٥٧م) في قسم الجغرافيا بجامعة أوكسفورد تحت إشراف هربرتسون وعمل مدة قصيرة ملاحاً جوياً خلال الحرب العالمية الأولى، وأمضى فترة أطول رهينة حرب في ألمانيا، بعدها عين ضابطاً للآثار بمصلحة المساحة. وقد أدرك ضرورة احتواء الخرائط على معلومات حديثة دقيقة عن المواقع الأثرية، الشيء الذي جعلها محل اهتمام العالم. ثم بدأ سلسلة من الخرائط حسب الأدوار الحضارية (كان من أشهرها خريطة لبريطانيا تحت الرومان) أعطت حقب الماضي شكلاً تصويرياً، كذلك فإن خبرته بوصفه ملاحاً أقنعته بقيمة الملاحظة الجوية والتصوير الجوي بالنسبة لعلم الآثار. لم يكن الوحيد في هذا المجال فمنذ الحرب العالمية الأولى أدرك علماء بريطانيون وألمان وفرنسيون يعملون في الاستخبارات العسكرية قيمة التصوير الجوي بالنسبة للآثاريين. فقد قام الدكتور الألماني فيوغاند Wiogand بتتبع الأطراف الشرقية لحدود الإمبراطورية الرومانية إلى دبروجا من صور جوية[1]. وفي وقت لاحق ألحق خصيصاً بقوات ألمانية في جنوب فلسطين وسيناء لتصوير المواقع الأثرية ووصفها. كذلك استعمل ليون ري Leon Rey صوراً جوية لأغراض آثارية في عام ١٩١٥م في مقدونيا، كما درس الأب أنطوان بوادبارد Antoine Poidebard صوراً جوية للشرق الأدنى، وطار في عام ١٩١٨م عبر بلاد الفرس. أما الصور الجوية التي التقطتها الجمعية الملكية للطيران لمناطق من الشرق الأدنى وتحوي مواقع أثرية فقد وجدت استحسان رجال من أمثال بيزلي Beazeley وهامشو توماس Hamshaw Thomas. قدم الكولنيل بيزلي بحثاً

(١) الإشارة هنا إلى التحصينات الرومانية لسد الفجوات بين الراين والدانوب، وبين الأخير ودبروجا على البحر الأسود لرسم الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية الغربية. (المترجم).

للجمعـية الملكية الجغرافـية في لندن بعنوان مسوحـات في وادي الرافدين خلال الحرب Surveys in Mesopotamia during the War ونشر في المجلة الجغـرافية Geographical Journal في عـام ١٩٢٠م، حيـث أرسى القاعـدة للتـفـسيـر الآثاري للصور الجوية.

وناقش و.ج.س. كروفورد مع الدكتور ويليمز فريمان Williams Freeman قبل اندلاع الحرب العالميـة الأولى قيمة معاينة الأرض من الجـو. وكان ويليمز فريمان نفسـه قد قال: «يجب أن تكون طائراً لكي تصبح آثارياً حـقلياً». كذلك كان كـروفورد ـ كمـا رأينا ـ ملاحاً خـلال الحرب، وبعد الحـرب طور إمكانية استـعمال التـصوير الجـوي ونشر عمله الرائد مع الإسـكندر كيلر Alexander Keiller في عام ١٩٢٨م تحت عنوان وسكس من الجو Wessex from the Air. لقد كان عـملاً عظيماً حيث استـأجر طائرة وقام بالتقاط ثلاثمئـة صورة جوية لمواقع أثرية خلال شهرين.

كان كـتاب وسكس من الجو مصـدر إلهام للمـيجر ألان الـذي كان هاوياً للطيران، كان يمتلك طائـرة خاصة به ويستعمل آلات تصـوير قام بتجميـعها، وخلال مـواسم محددة من الطيـران قام بالتـقاط عدة آلاف من الصـور الجوية لجنوب بريطانيا.

عمـل بيير بوادبـار Pére Poidbard فـي الشرق الأدنـى، وجاءت مؤلفاته أثـر رومـا فـــي الصـحــراء الســـورية (١٩٣٤) La Trace de Rome dans le Derert de Syrie ومـيناء عظيم اختـفى، صـور (١٩٣٩) Un Grand Port Disparu, Tyr و(مع ر. موتيرد R Mouterde) حدود كلخيس Le Limes de Chalcis، نماذج للبحث الآثاري القائم على الصور الجوية.

كان كروفورد مــدركاً تمام الإدراك لأهمية جذب اهتمــام العامة لعلم الآثار، وكان كتابه **الإنسان وماضيه** (١٩٢١) **Man and his Past** جهداً رائداً لتوضيح أهمية علم الآثار للعالم. وفي عام ١٩٢٧م أصدر مجلة **العصور القديمة** (التي بقي محــرراً لها على مدى ثلاثين عــاماً حتى وفاته في عــام ١٩٥٧م) لإيصال نتائج الأعــمال الآثارية للعــالم، وعلى حداثتهــا فقــد أحرزت نجاحــاً فاق كل توقع، إن مؤلف هذا الكتاب لفخــور وسعيد بخلافته كروفــورد محرراً للمجلة التي قدمت الكثير لتجعل من علم الآثار مادة مقروءة وذات صلة.

بدأ فــوكس حيــاته العمليــة في مجــال الآثار الحقليــة والمتاحف في منطــقة كيمبــردج، وكان كتابه **آثار منطقة كيــمبردج** (١٩٢٣) **The Archaeology of the Cambridge Region** رائداً في التوجه الجغرافي لعلم الآثار. وتجدر الإشارة إلى أهمية العنوان الفــرعي للكتاب وهو **دراسة طوبغــرافية للعــصر البرونزي والعــصر الحديدي المبكر والعــصر الروماني والإنجلو ساكــسوني**. لقد كانت أفــكاره متأثرة بمدرسة أبرسوث للإنثــروبولوجيين الجغرافيين. وكان البــحث الرائع الذي قدمه فلير Fleure ووايتهاوس Whitehouse بعنوان **الهجــرة السكانية المبــكرة صوب الأودية في جنوب بريطانيــا The Early Valleyward Movement of Population in Southern Britain** قد نشــر في مجلة آثار كــيمــبردج **Archaeologia Cambrensis** في عام ١٩١٦م، كــما أن كتاب كــروفورد **الإنسان ومــاضيه** قد طور إمكانات التوجــه الجغرافي ووسائله لدراســة ماقبل التــاريخ والتاريخ المبكر. إن مافــعله فوكس هو تطبيق فــكرة كروفورد (ومن قــبل كروفورد ومــدرســة فلير وأعمال الألمان مثل غرادمان) على منطقة محدودة، تمتد من عشرين إلى خمسة وعشرين ميلاً حول مدينة كيمبردج، وقام بدراسة توزيعات مواقع ماقبل التاريخ إزاء الخلفية الطبيعية للنبات وربطها بالغطاء النباتي لحقب ماقبل التاريخ، وليس الحقبة التاريخية.

طبّق فوكس بعـد ذلك تفسيره الجـغرافي للماضي على دراسـة الآثار بوجه عام، ويتضح ذلـك في كتابه شخـصية بـريطانيا (١٩٣٢) **The Personality of Britian** الذي كان له أثر كـبير على الآثاريين في كل مكان. وصف البـروفسر ي.غ.ر. تايلر E. G. R. Taylor أثر هذا الكتـاب بأنه: «هزة أرضيـة صغـيرة تعادل ٦ درجات بمقياس روسي ـ فوريل» كانت «إيـقاظاً عاماً للنيام... وقرعاً للأجراس، وهجرة بعض المفزوعين لمقاعدهم».

كذلك فإن بعض الآثاريين الجالسين باسترخاء على مقاعدهم قد فزعوا أيضاً حين علموا مـن فوكس وكروفـورد بنهج مناخي وبيئي لعلـم الآثار. إن الجيل الجديد من الآثاريين في بريـطانيا ربما يدينون بالعرفـان لأشخاص مـثل غراهام كلارك وأريك هيغـز لتركيزهـم على أهمـية الإطار الأيكولوجي Ecofact (وهو كل مايرتبط بالحضارة من غير المخلفات المادية). على هؤلاء ألا ينسوا أن النهج المناخي لدراسـات ماقـبل التـاريخ الذي عرف في الثـلاثينيـات والأربعينيـات والخمسينيات قد ارتكز على أعمال فوكس وفلير وكروفورد في العشرينيات.

إن تاريخ علم الآثار يصعب سـرده حين نحاول أن نضم مثلاً ماحـدث فعلاً في التفكير الأوربي بين حقـبة ماكارتي وغوجيه وافتتـاح متحف كوبنهاجن في عام ١٨١٩م. ومثالاً لذلك؛ فإننا حين نؤرخ لتطور نظام العصور الثلاثة التقني يتعذر علينا أن نجـد من يذكر فضل مؤرخي بداية القرن الثامن عـشر من أمثال يوهان فـون ايكارت Johann Von Eckart الذي طرح نظام العـصـور الثـلاثة بوصفه مفهوماً تاريخياً بالوضوح نفسه الذي طرحه به فيديل سيمونسن Vedel-Simonsen. ربما كان ذلك لأن أحـدا لم يكترث بما قاله، كـما أوضح ر.ج. شرير RJ Sharer ووندي أشمور Wendy Ashmore في كتابهما **أساسيات علم الآثار** (١٩٧٩: ٥٢) **Fundamentals of Archaeology**.

وبالدرجة نفسها من الصعوبة - إن لم يكن أكثر منها - يكون الحال حين يتعلق الأمر بأشخاص يعرفهم الكاتب وكان قد ناقش معهم تطور أفكارهم. إنه لمن الواضح لأي مؤرخ لعلم الآثار أو مؤرخ للأفكار أن نظريات فوكس قد استندت إلى كتاب هالفورد ماكندر Halford Mackinder **بريطانيا والبحار البريطانية Britain and the British Seas** وكذلك على كتابات فيدال دولا بلاش Vidal de la Blache وهو أستاذ الجغرافية البشرية، فرنسي كان قد جاء بفكرة الشخصية الجغرافية Geographical Personlality. إنني أعرف فوكس جيداً، وقد ناقشت معه مراراً منشأ أفكاره الجغرافية وتطورها، إنه لم يكن قد سمع بماكندر أو فيدال دولا بلاش! دعك من أن يكون قد قرأ لهما، وهنا مثلما كنا نحاول التركيز على حقل التفسير الآثاري، نلاحظ في حقل الأفكار الآثارية تطوراً مستقلاً ومتوازياً.

أما البريطاني الثالث فهو ر.ي.م. ويلر (السير مورتمر ويلر Mortimer كما عرف للعالم بعد أن نال لقب فارس في عام ١٩٥٢م). ولد في عام ١٨٩٠م، وكان تواقاً في بداية حياته إلى أن يصبح فناناً ولكنه اختار بدلاً من ذلك أن يواصل اهتماماته الأكاديمية ويدرس العلوم الكلاسيكية في الكلية الجامعية بلندن تحت إشراف أ.ي. هاوسمان وآخرين. ثم تحول إلى الآثار بنجاح باهر ومنفعة جمة لأجيال الآثاريين بخاصة في بريطانيا والهند. كان سائراً على ذلك التقليد الملحمي في العمل الميداني والحفريات، وربما كان الأخير في سلسلة بدأت بليارد وماكارتي واستمرت ببيتري وشليمان وبت- ريفرز وآرثر إيفانز وولي.

في مرحلة مبكرة من عمره تولى ويلر إدارة متحف ويلز الوطني، وكان كتابه الثاني **ويلز ماقبل التاريخ والفترة الرومانية** (١٩٢٥) **Prehistoric and Roman Wales** عملاً مثيراً ذا نظرة مستقبلية. كانت حفرياته الأولى في مواقع رومانية مثل لا يدني وكارلون وكارنرفون وفرلاميون، إلا أن أكثر حفرياته شهرة

ومـعرفـة لدى العـامـة هي قلعـة ميـدن في دورست التي تؤرخ إلى الـعصـر الحديدي. أعقب ذلك بعمل ميداني مكثف وتنقيـبات منتقاة في حصون التلال في شمــال فرنســا. وصدر كـتاب قلعة مـيدن **Maiden Castle** في عام ١٩٤٣م يحوي تطبـيقاً واضحــاً لمنهج ويلر، وسيبقى لوقت طويل نموذجـاً للإصدارات الآثارية. لقد قدم ويلر نظاماً جديداً وأسلوباً في الحفريات ـ كما كان يردد كثيراً ـ على غرار أعمال بت ريـفرز التي نُسيت وقتها أو التي لم تحظ بماتســتحقه من اهتمام. إن مــا أسماه الفرنسيـون «بمنهج ويلر» هو عبارة عن مقــاطع عريضة، وتنقيب بالمربعــات أو الأرباع مع وجود فواصل ثم التسجـيل الدقيق لكل شيء والمسح الدقيق المفصّل والنشر الكامل العاجل للنتائج.

انتقل ويلر من كاردف ليـعمل مديراً لمتحف لندن، وأسس مع زوجتـه تيسا فرني ويلر معـهد الآثار بجامعة لـندن. إن سجل قصة حيــاته في كتابه مازلت منقباً يجب أن تضم إليه كلمات النعي التي نشرها كل من استيورات بيغوت في محاضر الجمـعية الملكية (١٩٧٧ ص ٦٢٣- ٦٤٢) **Transactions of the Royal Society** وجاكيتا هوكس **Jacquetta Hawkes** في مداولات الأكاديميـة البريطانية (١٩٧٧ص٤٨٣ -٥٠٧) **Proceedings of the British Academy**.

وفي عام ١٩٤٣م عيّن ويلر مديراً عاماً للآثار في الهند[1]، وعلى أن عماله في الهند ومابعدها تدخل في نطاق الفصل القــادم إلا أنه من الخطأ تجزئة سيرته بوصفه آثارياً عظيماً. لقد أدخل إلى شبه القارة الهندية المناهج العلمية في المسح والحـفــريات الآثارية، وهي المنــاهج التي طوّرها في بـريطانيــا بين الحـــربين العالميتين. كذلك أدخل روحاً جديدة لدراسة الهند القـديمة، مقترنة بعبقرية في الإدارة وطاقة في تحـمل العمل الشــاق، وكان لدهشــة زملائه الهنود وتلامــيذه

(١) يقصد «بالهند» هنا شبه القارة الهندية التي تشمل إلى جانب الهند باكستان وبنغلادش. (المترجم).

لايعبأ بقسوة المناخ. لقد بعث روحاً جديدة في دراسة الآثار الهندية ودرَّب آثاريين وقام بنفسه بإجراء سلسلة من التنقيبات ذات أهمية قصوى؛ في المدن الهندية في موهنجدارو وهرابا أولاً، حيث كشف عن الطبيعة الحقيقية لتلك المدن. وفي مواقع مثل تاكسيلا وشاندراغبتا ثانياً حيث تمكن من سد الفراغ بين حقب ماقبل التاريخ والحقب التاريخية، وسلط الضوء على العلاقات بين هذه المدن والمناطق الأخرى إلى الشرق والغرب خلال الفترة الإغريقية الرومانية. نذكر عمله كذلك في مواقع مثل المحطة التجارية الهندية الرومانية في أريكاميدو على الساحل الشرقي قرب بوندشيري. لقد اكتشف ذلك الموقع وقام بالتنقيب فيه، وتمكن من تأريخ فخار لم يكن معروف التأريخ بعد، وبه استطاع تأريخ المباني الميغاليثية الهندية في دكَّان إلى القرون التي سبقت المسيحية مباشرة.

وكما كانت إنجازات ويلر في الهند متميزة عبر الحفريات والأبحاث، كانت مساهماته في علم الآثار في شبه القارة الهندية متميزة أيضاً بتدريبه لآثاريين هنود، وإنشاء مدرسة لتخريج فنيي متاحف وفنيين ميدانيين على درجة عالية من الكفاءة. كذلك أصدر مجلة **الهند القديمة Ancient India** ، وقد كانت هذه في حد ذاتها إنجازاً عظيماً في أيام الحرب في بلد لم تعرف فيه طباعة متميزة. وهناك قلة من الآثاريين ممن تجاوزوا سن الأربعين في الهند أو الباكستان لايقرون بأن ويلر هو «الأب الروحي» guru بالنسبة لهم، إنه لمن المدهش أن تفجر مقدرات رجل واحد ثورة آثارية في شبه قارة بكاملها. وكما هو الحال بالنسبة للثورة التي أحدثها ويلر في مجال علم الآثار الميداني خلال العقد الثالث والرابع من هذا القرن، كانت مقدراته مدعومة بمناهج صارمة ونشاط دؤوب وغاية لا تنثني.

وحين غادر ويلر الهند بعد التقسيم كانت هناك دائرتان آثاريتان متميزتان. أما الحفريات والبحوث فقد ظلت تسير بخطاً حثيثة، وكان واحد من أكثر

المواقع الجديدة إثارة قـد تم التنقيب فـيه في آخر العـقد السادس وبداية العـقد السابع على يد شري راو Shri Rao ، وذلك في لوثال في غوجرات. واتضح أن الموقع مدينة قديمة في وادي السند يحوي بقايا ميناء ومدخلاً للسفن ورصيف لشحن البضائع وتفريغها، يصل طوله إلى ثمـانين قدماً (أربعة وعشرين متراً)، ويؤرخ من الفترة المبكرة لهـرابا حتى ازدهارها، وقد عثر فيـه على ختم فارسي من الفترة نفسها.

بعد عودة ويلر إلى إنجلترا أصـبح أميناً للأكاديمية البريطانية، وعـاود تنقيباته في بريطانيا بإجراء حفـريات في استانويك في شمال يوركشيـر. لقد كان يعد عمله في الهند أعظم إنجـازاته، ولكنه على عظمته كـان يمثل حلقة متمـيزة في سلسلة أعماله العظيمة. لقد كان عملاً حافلاً بأحداث مهمة في سيرة رجل هو بلا أدنى شك أحد الرموز العظيـمة في تاريخ علم الآثار. إن إنجازاته في الهند يجب أن تقوَّم في إطار مـاكان يدور هناك في مجـال الآثار قبل ذهابه، الشيء الذي سنتناوله بإيجاز في الفصل القادم.

لقد ذُكـر أن ويلر لم تكن لديه مسـاهمات في المجـال النظري لعلم الآثار، والرأي عندي أن خير موقف نظري يمكن أن يتبناه الآثاري هو استعمال الوسائل المتاحـة لصياغة الماضي البـشري من المخلفات المادية المتوافـرة، وكان ويلر دائم الالتزام بغـايات علم الآثار. يقول: «إن الآثاري لاينقب عن أشـياء، إنما ينقب عن شعوب». تلك عبارة نظرية لايطبـقها كل الآثاريين. وفي ختام هذا الجزء، دعنا نتمثل بقولين من أقواله: «في عبـارة بسيطة ومباشرة، فإن علم الآثار علم يجب أن يُعـاش، يجب أن يُوشح بالإنسانيـة»، : «إن الآثار الميتـة هي أجدب عاصفة تهب».

الهند والصين:

في عام ١٩١٣م بدأ باريت Barrett كتابه آثار الهند The Antiquities of India بتراتيل الرغفيدا[1] وقال: «في الهند، ليس هناك فجر قبل الغروب». وحين كتب سير جون مارشال فصلاً عن آثار الهند القديمة في المجلد الأول من سلسلة **تاريخ الهند** التي أصدرتها جامعة كيمبردج والذي صدر في عام ١٩٢٢، ذكر: «أنه من سوء طالع تاريخ الهند أن أقدم صفحاته وأكثرها غموضاً لم تنل سوى القليل من الضوء من البحث الآثاري المعاصر». ماكتبه عن مرحلة ماقبل الهندوسية Pre-Vedic في الهند لايشمل سوى إشارات عن العصر الحجري القديم والآثار الميغاليثية في جنوبي الهند وبعض المعثورات النحاسية من الجانج.

بعد ذلك بعامين أعلن مارشال في صحيفة **أخبار لندن المصورة The Illustrated London News** عن حفريات في مدن هرابا وموهنجدارو التي تقع في باكستان الحالية، وقارن بين اكتشافهما واكتشاف شليمان لطروادة وموكيناي. تقع هرابا على بعد ثلاثمئة ميل إلى الشمال الغربي من دلهي قرب خط السكة الحديدية الذي يصل لاهور بملتان، إن حوالي مئة ميل من رصيف هذا الخط الحديدي قامت على الطوب الذي جلب من المدينة الأثرية.

وفي عام ١٩٢١م قام دايا رام ساني Daya Ram Sahni بالتنقيب في هرابا وتعرّف إلى طبيعة الموقع، ثم تواصلت هذه الحفريات خلال الأعوام ١٩٢٣-١٩٢٥م على يد ساني، الذي أعقبه م.س فاتز MS Vats خلال الأعوام ١٩٢٦- ١٩٧٤م وقام الأخير بنشر نتائج الحفريات في عام ١٩٤٠م.

---

(١) الرغفيدا هي أقدم الكتب الهندوسية وتحوي أشعاراً كتبت بالسنسكريتية، وتؤرخ إلى النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. (المترجم).

في الوقت نفســه الذي كان فـيه ساني يجـري تنقيبـاته في هرابا بدأ ر.د. بنرجي R.D. Banerji حـفريات فـي موهنجـدارو (مكان الموتى) التـي تبعـد أربعمئة ميل جنوباً، ومئة وأربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من كراتشي. خلال موسم عام ١٩٢١-١٩٢٢م اخترقت الحفريات هناك مباني من الحقبة التاريخية، كـشفت بعـدها طبـقات تحـتـوي على أخـتام كـتلك التي عـرفت من هرابا. وتواصلت هذه الحـفريات كـذلك على يدي فاتز ودكـشت Dikshit ومارشـال وهارغريفز Hargreaves وساني وماكاي Makay. ونشرت نتائج تلك التنقيبات التي استمرت عشر سنوات في ثلاث مجلدات لمارشال تحت عنوان **موهنجدارو وحضـارة السند** (١٩٣١) **Mohenjo-daro and the Indus Civilization**. كما نشر ماكاني **حفريات أخرى في موهنجدارو** (١٩٣٨) **Further Excavations at Mohenjo- daro.**

بينما كانت الحفريات الرئيسة تسير في هرابا وموهنجدارو كان ماجمدار Ma-jumdar في السند وهارغريفز واستين Stein في بلوخشتـان يسجلون مواقع مما كان يعرف وقتها بحضارات السند أو حضارة هرابا. بعض هذه المواقع كان مدناً صغيـرة مثل شانهودارو، والبـعض كان قرى. لقد سـاعدت اكتشـافات أخرى على مد الحدود الجـغرافية لهـذه الحضارة لتصل إلى تلال سـوالك في الشمال الشرقي وإلى خليج كامبي في الجنوب، فغطت رقـعة أكبر من تلك التي غطتها حضارتا مصر ووادي الرافدين.

إن الاكتـشافات في وادي الســند قدمت منظوراً جديداً لنـمط الماضي، لقد كشف علم الآثار خـلال الخمسين عاماً المـاضية عن حضارات مما قـبل التاريخ ترقد تحت المدنيـات التاريخية في بلاد الإغـريق وروما وآشور ومصـر، كما أن المينوية والموكينية والحيـثية والسومرية أصبحت أمـراً مألوفاً في الفكر التاريخي.

إلا أن هذه الاكتشافات قد تركزت في منطقة شرق المتوسط وجنوب غرب آسيا، أما حضارات السند فقد كانت تبعد ألفي ميل عن وادي الرافدين، وتتمتع مدنها بشوارع منتظمة وحرفيين بارعين في صناعة المعادن وإنجازات فنية مثل «الراقصة والراهب الملتحي». لقد أضافت إلى التاريخ المبكر للمدنيات بعداً جديداً، ليس جغرافياً فحسب وإنما حضارياً كذلك.

كذلك كان حال الاكتشافات من الصين، لقد كانت النظرة لما قبل التاريخ في الصين لاتختلف عن تلك التي عرفتها الهند، إذ إنه حتى بداية العقد الثالث من هذا القرن ـ وعلى وضوح أهمية مدنيات الصين القديمة ـ كان هناك اعتقاد بأن الصين لم تعرف استيطاناً بشرياً خلال حقب ماقبل التاريخ. كتب جاك دو مورغن Jacques de Morgan في كتابه **إنسان ماقبل التاريخ Prehistoric Man**: «أن المدنية في الصين تؤرخ إلى القرن السابع أو الثامن ق.م. إننا نجهل ماقبل التاريخ فيها تماماً».

لقد أُزيل هذا الجهل أولاً عبر مبادرة الجيولوجي السويدي غونار اندرسون Gunnar Andersson واهتمامه. فقد ذهب غونار إلى الصين في عام ١٩١٤م مستشاراً في مصادر الفحم والبترول. وفي عام ١٩٢١م اكتشف مستوطناً يعود إلى العصر الحجري الحديث في كهف يانج شاو تسون في هونان[١] ونشر تقريراً مبدئياً بعنوان **حضارة صينية مبكرة** (١٩٢٣) **An Early Chinese Culture** أبرز فيه ماعُرف منذ ذلك الحين بحضارة يانج شاو، وقد عثر على

(١) تنتشر مواقع ثقافة يانج شاو في الجزء الأوسط من النهر الأصفر في شمال الصين، وقد عرف أهل تلك الثقافة صناعة الفخار وزراعة الحبوب. (المترجم).

حضارات سابقة ليانج شو في الصين خلال الأعوام العشرة التالية[١].

في نهاية القرن التاسع عشر عثر مـزارعون قرب أنيانج شمال مقاطعة هونان على مخلفات عظمية بعضـها مزّين بأشكال، لقد تمت دراسة هذه المخلفات في هذا القرن وصُنفت على أنها عظام للابتهال للمعبود[٢].

وفي عام ١٩٢٨م قام معهد الأبحـاث الوطني للتاريخ واللغات القديمة التابع لأكاديمية العلـوم بالاشتراك مع المعهد الأسـمثوني بحفريـات في موقع أنيانج. اشرف كل من لي شي وليانج سو يونج على الحـفريات، ونشر التقرير في أربع مجلدات حملت العنوان **تقارير مبدئية عن الحفريات في أنيانج** (١٩٢٩- ١٩٣٣) **Preliminary Reports on Excavations at Anyang** . لقد كـشفت الحرفـيات عن مدينة أنيانج القديمة، عاصمـة عائلة شانج في منتصف الألف الثاني ق.م. وقد كانت المدينة مـركزاً لحضارة كانت تصنّع البـرونز وتشكل العظام والحجارة والعاج. هنا في الألف الثاني تكمن عناصر المدنية الصينية القديمة.

لقد كشف علـم الآثار الآن حضارات ماقبل التـاريخ في الهند والصين، أما عن عمر تلك الحضارات وعلاقاتهـا بحضارات ماقبل التاريخ في الشرق الأدنى القديم فقد كانت ـ ولاتزال ـ رياضة ذهنية للعلماء لسنوات طويلة.

---

(١) كان من أهم هذه الاكتـشافات كهف شوكوتين على مـقربة من بكين حيث عثر على ثقـافة تعود إلى العصر الحجري القديم الأسفل تؤرخ إلى ماقبل نصف مليون سنة، وقد حوت أدوات حجرية بسيطة الصناعة، كما قدمت دليلاً على تحكم الإنسان في النار. وإلى جانب المخلفات الحضارية كانت هناك مخلفـات عظمية بـشرية لجمـاعات الهومـو إركتس Homo erectus التي سكنت الكهف، إلا أن المخلفات العظمية فقدت ـ بكل أسف ـ أثناء الحرب الكورية. (المترجم).

(٢) هذه العظام في أصلهـا أجزاء من عظم لوح الكتف عند البـقر، وقد حـملت كتابات تعـد من أقدم الكتابـات الصينية، تقـول الأسطورة الصينيـة: إنها تحـمل السؤال والإجـابة عليه، ولعلهـا تعاويذ وابتهالات للمعبود. (المترجم).

وبقدر ما كانت نتائج حفريات مارشال ومعاونيه وزملائه مثيرة وموطناً للإعجاب، كانت مناهجهم في العمل محل انتقاد. كان ماكاي قد حمل إلى وادي السند خبرته في مصر ووادي الرافدين، وكما أقر جون مارشال نفسه فإن أحد الأسباب التي جعلت منه مديراً عاماً للآثار في الهند كان تحسب إدخاله المناهج العملية في الحفريات التي تعلمها في بلاد الإغريق. إلا أن فهم الإستراتغرافيا الآثارية كما طبقها دوربفيلد في طروادة وشمت في أتاو وبيتري في مصر وفلسطين وبت - ريفرز في إنجلترا لم تصل بعد إلى مارشال وماكاي. إن مايسمى بالإستراتغرافيا في مواقع وادي السند لم تقم على تميز الطبقات السكنية ومتابعتها، وإنما على تحديد عمق كل معثور بالنسبة لسطح البحر في كراتشي؛ تلك الطريقة التي وصفها ويلر بأنها «مذهلة». وقد كانت مذهلة بالنسبة للعقد الثالث من القرن العشرين. إنه مثال جيد للآثاريين الذين يجهلون تاريخ علمهم، ألم يسمع مارشال وماكاي بفارسيه وفيوريلي وبت - ريفرز، ناهيك عن توماس جفرسون؟ لايبدو أنهم قد سمعوا بهم.

علم الآثار الأمريكي:

أيد ويلي وسابلوف في الطبعة الثانية من كتابهما **تاريخ علم الآثار الأمريكي** (١٩٨٠) اقتراحاً سبقهما إليه شوارتز بتمييز أربع مراحل في تطور علم الآثار في أمريكا، وهي:

١- مرحلة التخمين: من ١٤٩٢ إلى ١٨٤٠م وقد أستعملت العبارة بمعنى أن التخمين هو صياغة أحداث في أمور لم تخضع للتجربة.

٢- مرحلة التصنيف والوصف: من ١٨٤٠ إلى ١٩١٤م وقد شهدت بداية الاحتراف في علم الآثار الأمريكي.

٣- مرحلة التصنيف والتاريخ: من ١٩١٤ إلى ١٩٦٠م.

٤- مرحلة التفسير: ١٩٦٠م ومابعدها.

أما المرحلة التي تقع في إطـار الفترة التي يعالجـها هذا الفصل فـهي مرحلة التصنيـف والتاريخ، وتتزامن بداية تـلك المرحلة مع الثورة الإستـراتغرافـية في مناهج العمل الميداني في أمـريكا. لقد بدأت هذه الثورة بأعمال مانـويل غاميو Manuel Gamio أحـد تلامـيذ فـرانز بواس، الذي شـارك أ.م. توزر A. M. Tozzer من هارفارد بتشجيعه ليقوم بحفريات إستراتغرافية في وادي المكسيك، بغية تحديد فـعلي لتسلسل الحضارات في المكسيك في مرحـلة ماقبل كولمبس. فـقام غـاميـو بحفـر مجس اختـبـاري عمـقه سـبعـة أمتـار في ركام مـوقع اتزكابوتزالكو. ورواية عن ويلي وسابلوف فـإنه: «بهذا المجس وحده بدأ آثاريو أمريكا الوسـطى يعون العمق الزمـني لحضارات المنطقـة، وأهم من ذلك أنهم أخذوا يدركـون مايمكن عـمله تجاه ذلك». خلف نلس نـلسون Neles Nelson غامو في أعمـاله في نيومكسيكو في عام ١٩١٤م وما بعـده. ثم جاء أ. كيدر A. Kidder الذي عاصر نلسون في هارفـارد حيث كان قد تدرب على يد توزر وعالم المصريات الأمريكي ج. رايزنر G. Reisner، كان عمله في بيكوس في أعالي وادي بيكوس في نيومكسيكو واحداً من أكبر الأعـمال البحثية في أمريكا الشمالية في حينه، وذا أهمية قصوى في تطور مناهج علم الآثار في أمريكا.

بدأ كيـدر عمله الميـداني في مجـال الآثار في عام ١٩٠٧م حين قـام أدغار هيويت Edgar L Hewett - الذي كان من شـاكلة مورتمر ويلر - بـأخذه واثنين من زملائـه الطلاب من جامـعة هارفارد إلـى قمة هضـبة في الجنوب الـغربي الأمريكي. وهناك أشـار لهم إلى منطقة تغطي مئـات الأميال المربعـة، وكانت هذه في نظر كيدر كما روى لاحقـاً: «لقد بدت لي وكأنها نصف العالم»، لقد

أشار هيويت إلى بعض المعالم الأثرية في تلك المنطقة وخاطبهم بحدة: «أيها الصبية عليكم القيام بمسح آثاري لهذه المنطقة، وسأعود إليكم خلال ستة أسابيع، يمكنكم الاستعانة ببعض الخيول».

تم اختيار كيدر لبيكوس لأنها كانت مستوطنة يقيم فيها الهنود حين وفد المستعمرون الأسبان في القرن السادس عشر. استمرت حفرياته من عام ١٩١٥ وحتى عام ١٩٢٩م ومثلت الأساس لأول تسلسل للاستيطان في الجنوب الغربي الأمريكي من المرحلة التي سبقت مجيء الأسبان، ثم نظم كيدر مؤتمراً في بيكوس في عام ١٩٢٧م للآثاريين من كل نواحي أمريكا، فصب هؤلاء خبراتهم وبحوثهم وخرجوا بمشروع للتسلسل الحضاري لايزال يمثل القاعدة التي تستند عليها الأعمال المستقبلية في المنطقة.

نُشر كتاب كيدر **مقدمة في دراسة آثار الجنوب الغربي An Introduction to the Study of South- Western Archaeology** في عام ١٩٢٤م (وظهرت طبعة جديدة منه في عام ١٩٦٢ تحوي مقالاً افتتاحياً لأريفنغ رواس Irving Rouse بعنوان: **آثار الجنوب الغربي اليوم (Southwestern archaeology Today)**، يعد هذا الكتاب نموذجاً في تاريخ علم الآثار الأمريكي، كما أن كيدر نفسه يعد واحداً من أعظم الشخصيات التي أسهمت في تطور علم الآثار الأمريكي الحديث.

وفي عام ١٩٢٩م أصبح كيدر مديراً للأبحاث التاريخية في معهد كارنغي في واشنطن، ومن موقعه هذا استطاع أن يخطط وينظم عدداً من المشروعات الآثارية الكبيرة. ركزّ على المايا، مطالباً بدراسة المايا المعاصرين وإجراء حفريات للمواقع لرصد تاريخهم القديم. وفي عام ١٩١٥م نشر سلفانس مورني Syl- vanus G Morley كتابه الأساس **مقدمة في دراسة هيروغليفية المايا Intro- duction to the Study of Maya Hieroglyphs**؛ وكانت ثلاث من حفريات

معهد كـارنغي قد تركزت في كل من ياخاكستان في غـابات جواتيمالا وشنشن اتزا فييوكاتان وكاميناالجويو (التي تعني تلال الموتى) في مرتفعات جواتيمالا.

في كـتـاب فـخـار بيكوس (١٩٣١) **The Pottery of Pecos** يطرح كـيـدر مشروعه عن كيفية البحث في أي منطقة، ونورد هنا خطته بكلماته:

١- إجراء مسح أولي للمخلفات قيد البحث.

٢- اختيار معايير لترتيب المخلفات في إطار زمني.

٣- إجراء دراسة مقارنة لسمات تلك المعايير للوصول لترتيب زمني للمواقع التي تحوي تلك المعثورات.

٤- البحث عن مواقع تحوي مـعثورات في طبقات، والتنقيب فيـها للتحقق من الترتيب المقـترح للمعـثورات، وللحـصول على عينات من هذه المعـثورات لإجراء الدراسات الخاصة بأشكالها وأصولها.

٥- إجراء مسح مكثف للمنطقة في ضوء ما هو معلوم لترتيب المواقع بشكل نهائي، وإن دعت الحاجة تنقيب مواقع جـديدة منتقاة يتوقع منها أن تحل بعض المشكلات التي تطرأ خلال مسار البحث.

نجد هنا برنامج عمل للأبحاث الآثارية يبدو لنا مثـالياً وملهماً. بعد خمسين عامـاً من طرحه، وعلى أن مـا أراده كيدر كـان يتم في بعض المناطق في أوربا (مناطق محددة فقط) إلا أنه ـ حسب علمي ـ لم يفصح عنه أحد بهذا الوضوح الذي فعله كـيدر، ولاشك أن فوكس في مقـاطعة كيمـبردج في شرق بريطانيا كان يمارس ما أراده كيدر بالتحديد.

في هذه الأثناء كـان هنالك خلاف بين الآثاريين الأمـريكيين حـول طبيـعة الإستراتغرافيـا الآثارية، فقد كان كثيرون يرون أنها مسألة قـياسات، بينما كان

آخرون ـ من أمثـال كيدر ـ يرون أنها إدراك للإستراتغـرافيا الحقيقـية، أي فهم ماتوضحه الطبقات في إطار علاقتـها بالتاريخ. ولمتابعة الحوار الشائق الذي دار حول قضية الإستـراتغرافية القياسية (المترية) والطبيـعية هذه؛ نحيل القارئ إلى كـتاب ويلي وسـابلوف **تاريخ علم الآثار الأمـريكي** (طبـعة ١٩٨٠، ص ٥٢ ومابعدها). إن هذه هي القضية الأساس ذاتها التي واجهت ويلر في الهند حين بدأ يختبر نتائج سابقيه، والإجابة سهلة، إن الإسـتراتغرافيا القياسية هي مسألة تسجيل أمـا الإستراتغرافيـا الطبيعية أو التـي جاءت نتيجة عـوامل بشرية فهي تفسير للآثار[1].

في عام ١٩٢٩م أدرك الطـيار الشهـير الكولونيل شـارلس لندبرغ Charles Lindbergh قيمة التصوير الجوي في الآثار، فقام أولاً بتصوير مواقع بويبلو في الجنوب الغربي الأمريكي. وصـف البروفسر أدغار هيـويت الصور الجوية التي التقطهـا لندبرغ بأنها أول تطبيـق ناجح للتصوير الجـوي في الآثار في أمريكا. وسرعـان ما أدرك كيدر قـيمته كـذلك، وقال: «إن بعض الصور التي التـقطها الكولونيل لندبره وزوجته تكشف بوضوح العـلاقة التي ربطت قديماً بين مصادر المياه والأراضي الصالحة للزراعة والمواقع السكنية المؤمنة».

وفي وقـت لاحـق من تلك السـنة قـام الكولونيـل وزوجتـه بـتصـوير مناطق المايا الداخلية في بليز ضمن مشروع أعده معهد كارنغي للمسح الجوي، وصف هذا العـمل بأنه أول مـشروع آثاري شـامل من نوعـه في نصف الكرة الغربي (Leo (Deuel, Flightsinto Yesterday, 1969-213).

---

(١) الإستراتغرافيا القـياسية (وتسمى أيضاً المترية أو الافتراضية) هي افتـراض طبقات ذات سمك محدد، وهي وسيـلة يلجأ إليـه الآثاري في المواقع التي تحوي تراكـماً حـضارياً يغـيب فيه الـتباين الطـبقي الجيولوجي وكذلك الطبقي الحضاري. (المترجم).

الفصل الخامس
الجديد وغير الجديد في علم الآثار
(١٩٣٩-١٩٨٠م)

اندلعت الحرب الكونيـة الثانية في غضـون أسابيع قليلة بعد واحـد من أكثر الاكتشافات إثارة في علم الآثار الحديث؛ ذلك هو اكتشاف مقبرة سفينة «ستون هو» في سفوك مع محتوياتها المميزة من الكنوز. هذا الأثر (الذي لم يعثر على أي جـثـمان بـداخله) ربما كـان يخص الملك ردوالد (٥٩٩- ٦٢٥) Redwald الذي عاش في القرن السادس. كرّس كـروفورد عدداً كاملاً من مجلة **العصور القديمة** لهذا الاكتـشاف، وقد تمّ نشر الاكتشـاف كاملاً بواسطة روبرت بروس متفولد Robert Bruce Mitifold في ثلاث مجلدات.

ساد لبـعض الوقت ماكان يطلق عليـه الحرب الباردة، حـتى كان الاجتـياح الألماني لهولندا ثم بلجيكا ومن بعدها فرنسا. وبعد دنكرك اشتدت المخاوف من غزو ألماني لبريطانيا، بدا للكثيرين أن الحضـارة الأوربية الغربية والفكر الحر غير الموجه في فـهم التاريخ وماقـبل التاريخ سيكتـسحه طوفـان النازية وتعاليمـها العنصرية وتبشيرها بأسطورة السيادة الآرية.

كان لابد أن يحس البعض من أمثال غردون شايلد وآخرين أن هذا الأمر قد أصبح حتمياً يصعب تجنبه، فقد سبق لشايلد في عام ١٩١٧م أن وصف الحرب الكونية الأولى بأنهـا: «ستدمـر المدنية والحرية الحق»، وفي عـام ١٩٥٧م كتب

شايلـد وهو ملق نظرة إلى الوراء، إلى سنوات الحرب الكونـية الثانيـة: «كنت أنظر إليها كهاوية ليس لها قرار ستـبتلع كل القيم الحضارية»، كتب إلى صديقه الحميـم روبرت بريدوود في عام ١٩٤٥م قائلاً: «إنـه بنهاية الحرب فـإن العالم القديم خارج الاتحاد السوفيتي سيكون قد دمّر تماماً».

إلا أنه من حسن الطالع بالنسبة لنا جميعـاً، داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه أن شايلد كان مخطئاً. في عام ١٩٤٠م ظهر كتابه **مجتمعـات ماقبل التاريخ في الجـزر البـريـطانيـة** Prehistoric Communities of the British Isles. كان هذا الكتاب وقتها هو أفضل وأحدث مسح لما قبل التاريخ في بريطانيا. وقتها جلس شايلد ليكتب **ما حدث في التاريخ** What Happened in History الذي نشر في عام ١٩٤٢م. كان هذا الكتاب فاتحة للعامة على أنه لم يكن واثقاً من أن العامة سيقرؤون التاريخ وماقبل التاريخ بتجرد وبلا تحيز. وحين كتب **الحضارة الأوربية** European Civilization كان يحس: «أن الرأسمالـية والاشتراكية معـاً يتجهان إلى عصر مظلم لا رجعة فيه».

التفسير الشامل للتـاريخ عبر الآثار الذي ظهر في كتابه **ما حدث في التاريخ** كان تفسيراً مبسطاً. كان يرى أن الإنسان المتوحش في العصر الحجري القديم قد طوّر الزراعة مـرة، مرة واحدة فـقط في جنوب غرب آسيـا، وهي المنطقة التي أطلق عليـها برسـتد اسم «الهـلال الخـصيب». كـانت هذه هي ثورة العصـر الحجري الحديث التي شبت عند طرفي الهـلال في مصر ووادي الرافدين، بعد ذلك قامت مجموعتان بربريتان في العـصر الحجري الحديث ـ كانتا على اتصال بينهما ـ بتطوير حياة المدينة والمعرفة بالتدوين، كانت تلك هي الثورة الحضرية. وقـد أدت المدن المتحـضرة في الشـرق الأدنى في النهـاية إلى ظهور المدنيـات الكلاسيـكية في بلاد الإغريق والرومـان، وكذلك في الهند والصـين. وبقيت

أوربا خـلال الألفين الأول والثاني قـبل الرومان انعكاسـاً باهتاً للشـرق الأدنى المـعن في القدم، لقـد انتشـرت كل الأفكار الجديدة والابتكارات من الـشرق الأدنى إما عن طريق الغزو أو التجارة أو انتشار الأفكار.

حين عقـد اجتماع الجـمعية البـريطانية لتقـدم العلوم في كيمبـردج في عام ١٩٣٨م، كنت آنذاك سكرتيراً محلياً لأحد فروعـها، وكان شايلد هو رئيسها. التقـينا عدة مرات وناقـشنا خطاب الرئاسة الذي كـان بعنوان «الشرق وأوربا». وكان قـد أخذ هذا العنوان من مونتـليوس متـعمداً ذلك، ثمّ ناقـشنا ذلك مرة أخرى بعد الحرب، الحـرب التي لم تدمر الحضارة الغربيـة. وقد كرّر أن دراسة أوربا في العصـر الحجري الحـديث والعصر الـبرونزي والحديدي ليـست سوى تعرض البربرية الأوربية لإشعاع المدنيات الشرقية.

بعـد ذلك بعشـر سنوات حين جاء في عـام ١٩٤٦م ليكتب **فجـر المجتـمع الأوربي**[١] The Dawn of European Society بدأ يعـدل أفكـاره في كـتـابه **الأريون** (١٩٢٦) **The Aryans** الذي تمنى محقاً أن ينسـاه في آخر أيامه، وركّز على الإسهامات الأوربية المحلية ودورها فيما تحقق من إنجازات في أوربا. وفي وقت لاحق أخذ يتـفهم ـ كمـا فعل الكثـيرون من الآثاريين في وقتـه ـ رسالة كرستـوفر هوكس Christopher Hawkes التي ضمنهـا في كتابه **أسس ماقـبل التـاريخ في أوربا** (١٩٤٠) **Prehistoric Foundations of Europe** التي تقـول: إن أوربا ـ كغيـرها ـ قد تأثرت بإشعاع حضـاري من مناطق أخرى، وذلك أمر

(١) يبدو أن خطأ مطبعياً أو خلطاً قد حـدث هنا (في الكتاب الأصل) إذ ليس لشايلد كتاب بهذا الاسم، ولكن هناك كـتاب باسم **مـاقبل التـاريخ في المجتـمع الأوربي** (١٩٥٨م) **The Prehistory of European Society** صدر بعد وفاة شايلد بقليل. (المترجم).

لاننكر أهميته إلا أنه ليس بالعـامل الوحيد. منذ ذلك الحين جاء الكربون -١٤ بعدة تواريخ قـديمة لإنجازات حضـارية أوربية كان يظن أنهـا قد حدثت نتيـجة لإشعاعات من الشرق القديم. وقد أثبت كولن رينفرو Colin Renfrew وجون كولز John Coles وآخرون أن التـاريخ الناتج عن كربون -١٤ يـؤكد أن بداية صهر المعادن والعمارة الميغاليثية في أوربا قد سبقت وصول أي اشعاع من منطقة بحـر إيجـة أو الشـرق القـديم، لقـد دخل علم الآثار الآن مـرحلة مـا بعـد شايلد[١].

بينمـا كان شايـلد يعد كـتابه مـا حدث في التـاريخ في عام ١٩٤٠م وقعت حادثتان مثيـرتان ومهمتان: في ١٢ سبتمـبر (أيلول) من ذلك العام حين كانت بريطانيا تخوض قمة حربها مع ألمانيا اكـتشف أربعة تلاميذ الرسومات والنقوش الصـخرية في كـهف لاسكو بالقرب من مـونتنياك في الدوردوين. احـتل هذا الاكتشاف المرتبة الثانية بعد ألطمـيرا. ومن وجهة نظري فإن هذا الاكتشاف من عدة أوجه أروع وأفضل مثال لفنون العـصر الحجري القديم الأعلى. كان ذلك إنجازاً أوربياً في حقب مـاقبل العصر الحجري الحديث، حـيث لاوجود لإشعاع

(١) كان شايلد في كـتاباته المبكرة على قناعة بفكرة الحتميـة البيئية بوصفـه عاملاً محركاً لحـركة التحول الحضـاري، ثم تحول عنها إلى العـامل التقني. وأضـاف التفسـير المادي إلى نظرية مورغن الخـاصة بالتطور الاجتماعي الاقتصادي، فقدم تصوراً للتحول الحضاري قائماً على أنماط اجتماعية اقتصادية. كان رافضاً لفكرة التطور الحضـاري القائمة على أساس التمييز العرقي والوحـدة النفسية، وكان يرى في التحول الاقتصادي القائم على إنتاج القـوت أعظم ثورة في تاريخ البشرية. وتشير كتاباته إلى أن فهمنا للتطور الحـضاري يتم عبر فهـمنا للعوامل التي تحكم تداخل المؤسسات وترابطهـا في الحضارة الواحدة إلى جـانب العوامل المحركـة لتطور تلك المؤسسات، وحين كـان معظم معـاصريه مهـتمين بوصف المعثورات، كـان شايلد عبر نظرته الشـمولية يتجاوز ذلك إلـى محاولة فهم حركـة التحول الحضاري. (المترجم).

من الشرق الأدنى. إن فنون العـصر الحجري القديم الأعلى مـن كهوف جنوب فرنسـا أو كنتابريـا تبقى إنجازاً أوربيـاً فوق المألوف. ويبـقى من حق المهـتمين بأصول الفنون أو تطور حياة الإنسان الثقافية أن يسألوا: لماذا أنتجت تلك الرقعة المحدودة في جنوب غرب أوربا كل هذه المنجزات الضخمة؟

أما السؤال الثاني الذي يجب أن يطرحه كل مؤرخي علم الآثار على أنفسهم فهو: لدينا الآن مايقارب مئـتي كهف تحوي مايزيد على الألفين من الرسومات والنقـوش للحيـوانات التي يرجع تاريخـها لـلفتـرة الممتـدة من ٢٠٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ ق.م. ماهي النسـبة التي يمثلها هذا الـكم في مجمل المنجـزات الفنية لإنسان العصر الحجري القديم الأعلى؟ في خلال الخمسين إلى المائة عام القادمة ربما يسجل أحـد مؤرخي علم الآثار سلسلة جـديدة من الاكتشـافات المذهلة، فالصالة الجديدة فـي نيو التي عثر عليها في عـام ١٩٧٠م هي تجسيد حي لمدى جهلنا بفنون العصر الحجري القديم الأعلى.

إلـى يومنا هذا ليـست لدينا أي فكرة ـ وفي رأيي لـن تكون لدينا أية فكرة أبداً ـ عن مبرر لوجود هذه الفنون المبكرة الطبيعية الحية المدهشة الخاصة بأسلافنا الأقدمين. أهي سحر لخدمة الذات كما يقول بروي، أم هي عرض للفنون كما اقترح البعض، أم هي سجل للحيوانات التـي قتلت (بمعنى أنها كتاب صيد من العصـر الحجري القديم)، كـما قيل أيضـاً؟ أم هي تصوير رمزي كـامل لرموز نـسائية ورجـالية؟ كما يـحـاول أ. ليروي قورهـان A. Leroi Gourhan أن يثبت بلا جدوى. تشـير فنون العصر الحجري القـديم الأعلى بوضوح إلى أنها معلم في آثار ماقبل التاريخ، إلا أننا في الغالب وبكل أسف نقف عاجزين عن الإجابة.

وفي عام ١٩٤٠م ذاك حين تم اكتشاف لاسكو، كان سمسون Simpson يرسل بالوناته في سماء نيويورك ليكتشف وجود الكربون -١٤ والكربون -١٢. ومن ملاحظاته بدأ تطوير وسيلة التأريخ بالكربون -١٤ بالاشتراك مع ويلارد ف. ليبّي Willard F Libby من شيكاغو.

العلوم في الآثار :

لم يعرف علم الآثار خلال الفترة الممتدة من ١٩٣٩م حتى اليوم حدثاً أهم من اكتشاف الكربون -١٤ المشع أو التاريخ الكربوني الذي أعلنه ليبيّ في عام ١٩٤٩م. إن كانت الثورات الآثارية والجيولوجية التي شهدتها بداية القرن التاسع عشر قد جاءت بعلم الآثار إلى حيّز الوجود؛ فإن ثورة التأريخ الكربوني التي وقعت خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين قد قفزت بقضية التأريخ في علم الآثار إلى مرحلة اليقين. هذه الوسيلة الحديثة الثورية في التأريخ تعتمد على حقيقة هي: أن كل ماهو حي يحتوي على كمية ضئيلة من الكربون -١٤، وهو نظير كربوني مشع، يتكون هذا الكربون في طبقات الجو العليا عبر تفاعل النيوترونات مع النيتروجين، التي تتأكسد حالاً مع ثاني أكسيد الكربون ثم تختلط مع هذا الكربون غير المشع في نهاية الأمر. عندئذ تأخذه النباتات بنسبة ثابتة مع الكربون العادي (ذرة واحدة من الكربون -١٤ بين كل مليون مليون ذرة من الكربون -١٢ غير المشع). وحين يموت الكائن تختل هذه النسبة ويأخذ الكربون -١٤ في التلاشي بنسبة معروفة. الرقم الذي وضعه ليبي لنصف عمر الكربون -١٤ هو ٥٥٦٨ ± ٣٠ عاماً والتوجيهات المتوافرة لدينا حالياً هي في الاستمرار في استخدام هذا الرقم على أن رقماً

جديداً أكـثر دقـة هو ٥٧٣٠ ± ٤٠ عامـاً قد اقـترح[١] ، ويمكن تحويل نصف العمر القديم للرقم الجديد بضربه في ١٠٣[٢].

يوجد الآن مايزيد على ثمانين معـملاً في العالم لإعطاء التأريخ الكربوني، كمـا أن حوالي ٥٠٠٠٠ تاريخ قـد أمكن تحديدها[٣]. وتسجل هـذه المعامل التـاريخ ق.ح. (قبل الحـاضر)[٤]، وقـد اتفق على أن يحدد الحـاضر بالعـام ١٩٥٠م، وعليه ينبـغي خصم هذا الرقم من كل تاريخ ق.ح. ليـعطي التاريخ الميلادي أو قبل الميلاد.

كان اعتـقاد قد ساد بأن الحـدود العملية للتأريخ بوسـيلة كربون -١٤ تقف مابين ٤٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ سنة من وقتنا الحـاضر، إلا أنه يبدو الآن أن هذه الوسيلة يمكن مدها إلى أبعد من ذلك بكثير لتصل إلى ٨٠٠٠٠ سنة مضت[٥]. وخلال الخمسينيات والستـينيات من هذا القرن أحدثت التواريخ الناتجة عن هذه الوسيلة الكثير من الخلط في أوساط الآثاريين. فالتواريخ الخاصة بأروبا البربرية جاءت أقدم بكثير عن تلك التي عـرفت بوسائل التاريخ بالمقابلة Cross-dating التي عرفها مونتليوس وشـايلد وآخرون. البعض من أمثال ميلويتش رفض هذه التواريخ بكاملهـا، كما أن البعض الآخر كـان حذراً خاصة في قـبول التواريخ المبكرة الخاصة بالعمارة الميغاليثيه في مالطا وبريتاني Brittany التي جعلتها أقدم

(١) كان ذلك حـين إعداد هذا الكتـاب، أما الآن فقـد عاد الرقم مـرة أخرى إلى ٥٥٦٨ (راجع مـجلة الكربون المشع **Radiocarbon**). (المترجم).

(٢) ربما كان هناك خطأ مطبعي في الكتاب الأصل، والرقم الصحيح هو ١٫٠٣ وليس ١٠٣. (المترجم).

(٣) هذه إحصاءات قديمة، فعدد المعامل والنتائج المستخلصة منها، هي الآن أضعاف هذا الرقم. (المترجم).

(٤) الاختصار ق.ح. بالعربية اجتهاد من المترجم «قبل الحاضر» في مقابل b.p. (before present) (المترجم).

(٥) وذلك عبر وسيلة «المسارعات» accelerators التي تحصى عدد ذرات الكربون بدلاً من قياس تحللها كما هو الحال في المعامل التقليدية. (المترجم).

تاريخاً من الأهرامات المصرية وزقورات وادي الرافدين. فأصبحت بذلك أقدم المباني المعمارية المعروفة[١]. كذلك فإن التواريخ الكربونية لفترة فجر التاريخ المبكرة في مصر لاتتفق مع تلك التي عرفت بواسطة التسلسل التاريخي المصري المعتمد على الوثائق المكتوبة، ولأن الوثائق المكتوبة فيما يبدو غير قابلة للانتقاد، كان من الأفضل أن يفترض بأن ثمة خطأً يكتنف التاريخ بهذه الوسيلة الجديدة.

من الصدف الغريبة أن التأريخ بواسطة حلقات الأشجار الذي لم يؤخذ مأخذ الجد خلال الربع الثاني من القرن العشرين قد استعمل الآن للتأكد من صحة نتائج الكربون -١٤. كان التأريخ بوسيلة حلقات الأشجار من بعض أنواع أشجار الصنوبر Pinus Aristata التي تنمو في شرق كلفورنيا قد أعطى تسلسلاً زمنياً يمتد لسبعة آلاف سنة، كما أوضحت هذه الوسيلة أن التأريخ الناتج عن الكربون -١٤ لايساير التقويم الشمسي كما كان يعتقد من قبل. فجاء اقتراح مفاده أن نسبة الكربون -١٤ الموجودة في الغلاف الأرضي ليست ثابتة وربما كان ذلك ناتج عن تغير الأرض لمجالها المغناطيسي. وقد أمكن تحديد الفرق بين الأعمار الناتجة عن الكربون -١٤ وتلك التي نتجت عن التقويم الشمسي في عدد من المعامل. وليس هناك اتفاق عام على نظام موحّد للمضاهاة Calibration، هناك اتفاق عام على إضافة bp (ق.ح.) و ad (ميلادية)، و bc (ق.م.)، أما الأرقام المعدلة المسايرة للنظام الشمسي فتميز بـ Bp ق.ح. و BC ق.م. و AD م[٢].

(١) لعلّ الكاتب قد قصد المباني الدينية، أما المباني المدنية فهي أقدم من ذلك بكثير. (المترجم).

(٢) درءاً للخلط بين التاريخ المعدل وغير المعدل جاء الاتفاق على أن تميز النتائج المُعدّلة بـ .b.p. كما تجدر الإشارة إلى أن التعديل لايتجاوز الحد الذي تصل إليه وسيلة حلقات الأشجار وهو الألف السابع ق.م. (المترجم).

كـان التـاريخ بوسـيـلتي التـوهج الحـراري (TL) Thermoluminescence وأرجونات البوتاس Potassium- Argon حدثين مثـيرين شأن الكربون -١٤. تعتمد وسـيلة التوهج الحراري على إطلاق المادة شحنات ضوئيـة عند تعرضها لدرجة حرارة تفوق وهج الحرارة العـادية. ويمثل هذا الضوء تحريراً للطاقة المخزنة في شكل إلكترونات حبيـسة في الشبكة الكريستالية للمـعادن، وفي الكثير من أنواع الفخار مكونات معدنية لها خاصـية تجميع التوهج الحراري، هذه الوسيلة للتاريخ طورت في معمل بحوث الآثار وتاريخ الفن في أكسفورد، وكذلك في وحدة MASCA بمتحف جـامعة فـيلادلفيـا وأماكن أخرى. وتعـد مجلة Ar-chaoemetry التي تصدر عن معمل بحوث أكسفورد هي المنبر الذي تناقش فيه القضايا الخاصة بوسيلة التوهج الحراري وأمور قياسية - آثارية أخرى.

طورت وسيلة أرجونات - البوتاس في بيركلـي بكلفورنيا على يدي الدكتور أفرندين Evernden والدكتـور كورتس Curtis بهـدف تحديد عـمر الصـخور البركانيــة والناريــة والأجـســام الزجاجية، فأصبحت تُــؤرّخ التراكمات التي تحوي هذه الصخور أيضاً. وتستند هذه الوسيلة على حقيقة أن البوتاس (K40) يتلاشى تـدريجياً ويتـحول بنسـبة ثابتـة إلى أرجونات (Ar40)، هذه الوسائل والكثير غيرها يجدها القارئ مُفصّلة في كتاب كنيث أوكلي Kenneth Oakley **أطر تاريخ الإنسان القديم Frameworks for Dating Fossil Man** (الطبعة الثانية ١٩٧٠) وكذلك في كـتاب دون بروثويل Don Brothwell وإيريك هيغز Eric Higgs **العلوم في الآثار Science in Archaeology** (الطبـعة الـثانيـة ١٩٦٩)، والأخير تلخـيص قيّم يناقش مختلف الوسـائل العلمية التي تستـعمل اليوم في حقل الآثار، ليس في مجال تأريخ المخلفـات فحسب، بل للكشف عن المواقع (بما فيها الوسـائل الجيوفزيائية كالمسـح الجيوفربائي Prospecting)، والتصنيف

الجيولوجي للصخور، والوسائل التحليلية الأخرى مثل الجس الإلكتروني الدقيق Micro-probing، والتحليل بطريقة النشاط النيتروني Neutron activa-tion، والكشف الفلوري بالأشعة السينية X-ray fluore scence والتحليل الطيفي Spectrometry، ووسائل أخرى كثيرة. ونوصي قراءنا بمراجعة كتاب ي. بيدوك E Pyddoke **العالم والآثار** (١٩٦٣) **The Scientist and Ar-chaeology**، وكذلك المُلخّص الجيد الذي أعده المجلس البريطاني للآثار في عام ١٩٧٠ بعنوان **دليل الوسائل العلمية للآثاريين Handbook fo Scientific Aids and Evidence for Archaeologists.**[١]

في عام ١٩٥٥م أنشأ كارلو ليرسي Carlo Lerici «مؤسسة ميلانو للعلوم التقنية Milan Fondazione Politechico». وهناك طور أسلوباً شائقاً يحتوي على منظار بريسكوب Periscope ثُبتت عليه كاميرا تستطيع التقاط صور من خلال ٣٦٠ درجة[٢]، وقد أمكن إدخالها في إحدى حجرات الدفن التي لم تنقب بعد. وفي عام ١٩٥٦م بدأ يستعمل هذه الوسيلة في مقابر الأترسكيين في سيرفتري Cerveteri وتاركوينيا Tarquinia وقد فاقت نتائجه هناك وفي فلشي Vulci كل التوقعات[٣]. وقامت مؤسسة ليرسي بإصدار مجلة باسم **Prospezioni Archeologiche** لمعالجة هذه الأمور.

زاد الاهتمام باستخدام التصوير الجوي في الآثار، كما أظهرت الحرب العالمية الأولى للآثاريين فائدة الاستطلاع الجوي للآثاريين، وتدرب أثناء الحرب

(١) كذلك نحيل القارئ إلى J. W. Michels: Dating Methads in Archaeology. الذي نشر في عام ١٩٧٣م. (المترجم).

(٢) أي في دائرة كاملة. (المترجم).

(٣) هذه مواقع في شمال غرب إيطاليا. (المترجم).

العالمية الثانيــة عدد من الآثاريين على تفسير الصور الجوية. ولقد اعـتـمد كتاب جون بــرادفورد John Bradford **مظاهر السطح القـديمة: دراسـات في علم الآثار الحـقلي Ancient Landscape: Studies in Field Archaeology** الذي صدر في عام ١٩٦٠م على عـمله بوصفـه محللاً عـسكرياً للصور الجوية لمـنطقة وسط البحر الأبيض المتوسط. وبعد نهاية الحرب أنشأت جامعة كيمبردج قسماً للصور الجوية وزودته بطائرة خـاصة به وطيـار وتولى ج.ك سنت جوزيف JK St Joseph رئاسته. قـدم هذا القسم مساهمات جبّـارة لعلم الآثار ليس في بريطانيا فحـسب وإنّما في أيرلنـدا والدنمارك وفرنسا كـذلك. إن بعض المتشـددين من مـورخي علم الآثار وهم يذكرون الإنجـازات الهـائلة لـ و.ج.س. كروفـورد وهامشـو توماس والميجـر ألن يعدون الاستطلاع الجـوي الآثاري نشاطاً يخص الإنجليز وحدهم، إلا أننا يجب أن نذكر رجالاً من أمثال الكلونيل باراديز Barradez الذي نشر أعماله عن المواقع الرومانية في شمال إفريقية في عام ١٩٤٩م تحت عنوان: **استـطلاعات عن تنظيم حـدود الصحـراء في الفتـرة الرومانـية Fossatum Africae: Investigations on the Organization of the Border of the Sahara in the Roman Period** وكذلـك نذكر أعـمال رودجر أغـاشي Roger Agache في شمال فرنسا الذي كان كتابه **مسح جوي لآثار فجر التاريخ في بلاد الغال والرومـان ومنطقة البحـر الأبيض المتوسط Detection aerienne de vestiges protohistoriques, Gallo- Romaines et Medievaux** الذي صـــدر في عـــام ١٩٧٠م بذات أهمـية كتـابي باراديز وبرادفورد. كـتب سالمون ريناخ في عام ١٩٢٥م: «إن أغنى متاحف العالم القديم يـرقد تحت البحر الأبيض المتوسط... ولكن هذا المتحـف لايزال بعيد المنال». إلا أنه بمجيء الفـترة التي يغطيـها هذا الفصل أصبح في متـناول الأيدي، وهنا يجب ألا نهمل تلك المحاولات المبكرة

في الآثار الغارقة. ففي عام ١٤٤٦م قام المهندس الإيطالي ليون باتستا ألبرتي Leon Battista Alberti بمحاولة لانتشال السفينتين الشراعيتين الرومانيتين من قاع بحيرة نيمي Nemi التي تبعد خمسة عشر ميلاً ونصف الميل إلى الجنوب الشرقي من روما. وفي عام ١٥٣٥م عاود فرانسسكو ديمارشي Francesco De-marchi المحاولة باستعمال أقنعة للغطس للوصول إليهما.

لقد تطور علم الآثار الغارقة كثيراً، ويرجع الفضل في ذلك لعدد من الأشخاص من بينهم جاك كوستو Jacques-Yves Cousteau في منطقة مارسليا، وجورج باص George Bass وبيتر سروكمورتن Throckmorton في شرق البحر الأبيض المتوسط، وكيث ماكلروي Muckelroy وآخرين في بريطانيا. حينما كان باص يعمل في تركيا مع فريق للآثار الغارقة من جامعة بنسلفينيا كان مزوداً بغواصة تحمل شخصين أطلق عليها اسم «عشرة» وصفها بأنها: «ليست أول غواصة تبنى للأعمال الآثارية فحسب، وإنما أول غواصة لأغراض غير عسكرية تباع بواسطة شركة إلكتريك بوت (من جروتن بولاية كونتكت) على مدار ستين عاماً من عمر الشركة». إن الذين يرغبون في معرفة تطور الآثار الغارقة منذ نهاية الحرب عليهم قراءة كتاب جورج باص **الآثار الغارقة**[1] **Underwater Archaeology** (١٩٦٦) وجون تايلر Joan Taylor **الآثار الغارقة وتطورها خلال ستين عاماً في البحر الأبيض المتوسط** (١٩٦٥) **Marine Ar-chaeology, Development during Sixty Years in the Mediterranean** وكيث ماكلروي **الآثار الغارقة** (١٩٧٨) **Maritime Archaeology**.

(١) يُقصد بعبارة «آثار» هنا ممارسة العمل الآثاري من مسح وتنقيب في المخلفات الأثرية التي ترقد تحت الماء، سواء أجاءت من مواقع غمرتها المياه أم من سفن غارقة أم من غيرها. (المترجم).

هذه الوسائل الحديثة تبدو محيرة أحياناً لبعض الآثاريين التقليديين من أمثال مؤلف هذا الكتاب الذين تدربوا على الاختبارات المجهرية للأدوات وتصنيفها. إلا أن هذا يبدو مـعقولاً، وكما قـال فرانك هول Frank Hole وروبرت هايزر Robert Heizer في كتابهما مقدمة في آثار ماقبل التاريخ (الطبعة الثانية ١٩٦٩) **Introduction to Prehistoric Archaeology**: «سيُعرّف العقدان اللذان أعقبا عام ١٩٥٠م تاريخياً بأنهما يمثلان عصر الاختراعات التقنية في علم الآثار». كذلك يقول بروثويل وهيغز في مقـدمة كتابهما العلوم في الآثار (١٩٦٩): «سوف تمضي سنوات طويلة قـبل أن ندرك تماماً أثر التطبـيقـات العلميـة في علم الآثار... إن التوجه نحو ممارسات أكثر علمية في الدراسات الآثارية يسير بخطاً حثيثة».

إنني لا أتفق وهذا الرأي، وأعتقد أن معظم الآثاريين اليـوم يدركون مساهمة العلوم الطبـيعـية في تخـصصهم، كـما يدركـون خطورة استـبعـاد الوسـائل العلميـــة وعدم استخدامها إلى أقصى درجة ممكنة، إن الثورة العلمية في الآثار قد أخـذت ـ ولا تزال تأخذ ـ مكانهـا، وأصبح علم الآثار الآن ينتـهج أسلوباً جديداً، إلا أن هذا لايعـني كما أنزلق البـعض في تفكيرهم بأن عـلم الآثار قد أصبح واحـداً من «العلوم» Sciences. يجب أن نكون حذرين حين نطلق هذه العبارة، فهي قـد تعني أحياناً المعرفة، أي المعرفـة بكل الأنواع والإنجازات سواء أجاءت بهـا الطبيعـة أم الإنسان. وفي أحيـان أخرى قد تعني المعـرفة بالطبيـعة وحدها، وهذا مـايقصد به العلوم الطبـيعيـة كالفيـزياء والكيميـاء وعلم المعادن والجيولوجـيا وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الفلـك. وقد تعني كذلك العلوم التاريخـية والاجتمـاعية التي تدرس المعـرفة بتاريخ الإنسان ومـجتمعـه. يقول البعض إن رجال الآثار مرتبطون ومعتمدون على العلوم الطبيعية، فلابدّ لهم من أن يكونوا من العلماء الطبيـعيين، إلا أن الأمر بخلاف ذلك، إن الآثاري لايزال

يدرس الإنسان في مجتمعه على امتداد مليوني السنة الأخيرين، فهو إذن مايزال مؤرخاً (مؤرخاً بشرياً وليس مؤرخاً طبيعياً).

هناك عدد من الآثاريين وخاصة في أمريكا يقولون: إن علم الآثار هو أنثروبولوجيا وليس سوى ذلك. يرى و.ج.س. كروفورد أن علم الآثار هو الفعل الماضي للأنثروبولوجيا. وفي الوقت نفسه يعد لوي أن ماقبل التاريخ هو ببساطة أثنوغرافية المجتمعات البشرية البائدة، ولكن ماذا تعني هذه العبارات سوي كونها عبارات جريئة متصارعة.

إنها تعني أن يبذل كل جهد ممكن ليكشف من الماضي أكثر مما جاء به ـ على سبيل المثال ـ أشخاص مثل سوفس مولر ومونتليوس ودو مورتييه وبروي وبت ـ ريفرز وبركت Burkitt، بمعنى أن مهمتنا هي كتابة وقائع مفصّلة ما أمكننا ذلك عن تلك المجتمعات البائدة، وأننا يجب أن نكشف عن بناة كارنا[1] وستون هنج ومحاربى الهينبرج وقلعة ميدن. هذه أهداف نبيلة نتوق إليها ولكننا في أغلب الأحيان نفتقر إلى الخيال (ذلك النوع من الخيال الذي عرفناه عند فوكس ويلر في إنجلترا وويلز) ونركز جهدنا في المعثورات.

علم الآثار الأمريكي الحديث:

لعلّ أهم حدث شهده علم الآثار ـ فيما يبدو لي ـ في الفترة التي نؤرخ لها هو ظهور «علم الآثار الأمريكي الحديث»[2] علماً ناضجاً من فروع المعرفة،

(١) كارنا موقع في فرنسا يعود إلى نهاية العصر الحجري وبداية البرونزي يحوي أنصاباً حجرية ومقابر. (المترجم).

(٢) استعمل المؤلف عبارة Modern «حديث» احياناً، و New «جديد» أحياناً أخرى. لذا صعُب توحيد العبارة في الترجمة. (المترجم).

يطرح سؤالاً على آثاريي العالم القديم إن كانوا حقـيقة يعرفون أين يقفون. لم يظهـر و.ج.س. كروفـورد أي اهتـمام بالآثار الأمـريكيـة، ولم تنشر مـجلة **«العـصور القـديمة»** تحت رئاسـته إلا عـدداً قليلاً من المقـالات أو الأخبـار عن أمريكا، كذلك رأى غردون شايلد أن الآثار الأمـريكية تمثل خطأً جانبياً ليس له أهمية في المجرى العام لتاريخ البشرية. فهو يقول في كتابه **ما حدث في التاريخ**: «إن الآثار الأمريكية في حقـبة ماقبل كولمبس تقع خارج مـجرى التاريخ»، وقد قصـد بالطبع مجرى تاريخ العـالم القديم، الذي بدأ في الشـرق الأدنى القديم وطفح عبر فلسطين وبلاد اليـونان وروما إلى العصر الوسيط ثم عصـر النهضة ومن ثمّ أوربا الحـديثة. ذكـر لي مورتمر ويلر ذات مـرة: «أن الآثار الأمريكـية قضية هامشية لاتثير أحداً» وأضاف بعد فترة قصيرة: «إنها بربرية».

فإلى أي درجة كان علماء علم الآثار آنذاك أشخاصاً مُضللين؟ وخلال إعداد هذا الموجـز لتـاريخ عـلم الآثار نلاحظ أن الآثاريين العـاملـين في أوربا الذين اهتموا كما كان عليه الحال بالفؤوس الأشولية ومستوطنات البحيرات السويسرية وحصـون التلال السلتيـة وصياغـة الماضي على نمط المدنيات القديمة في مـصر وسومر لم يسقطوا أمريـكا من حساباتهم. إن تاريخ علم الآثار يجب أن يظهر أنه في الوقت الذي كان فـيه الهنود الأمريكيـون مثار دهشة في القـرن الخامس عشر قـد أصبحوا بعيدين عن الاهتـمام خلال القرن التاسع عـشر وبداية القرن العشرين. إن القليل من الكتاب الأوربيين الذين كتبوا عن الآثار كانوا قد قرأوا أو اهتموا بكتاب و.و. تايلر **دراسة الآثار** (١٩٤٨) **A Study of Archaeology** الذي ناقش فيه ما أسـماه بمنهج العناصر المترابطة Conjunctive Approach في الآثار، وهو الدراسة الكاملة للحضارة خلال فترة زمنية محددة. يمثل هذا أحد مجـالات علم الآثار الحديث، وقد سمي كـذلك خلال العقـد السابع من هذا

القرن دون نسبة الفضل إلى تايلر.

إن الإسهام بالنسبة للآثار الأمريكية الذي أثّر على بنية ذلك العلم وإلى إعادة نظر الآثاريين الأوربيين في النموذج التقني الخاص بهم؛ هو ماقام به ويلي وفلبس بتفسيرهما التطوري التاريخي لما قبل التاريخ في العالم الجديد. جاء ذلك أول مرة في مقال نشر في عام ١٩٥٥م ثم ظهر بوضوح في كتابهم **مناهج ونظريات في علم الآثار الأمريكي** (١٩٥٨) **Method and Theory of Archaeology American**، لقد أبرز هذا المشروع نموذجاً لماضي العالم الجديد يشتمل على خمس مراحل رئيسة هي:

١- المرحلة الحجرية: الهنود القدامى وبداية الإنسان في أمريكا.

٢- المرحلة القديمة: بعد نهاية العصر الجليدي، الصيد والرعي.

٣- مرحلة التكوين: بداية القرى الزراعية وحياة الاستقرار.

٤- المرحلة الكلاسيكية: بداية تطور الحياة المدنية.

٥- مرحلة مابعد الكلاسيكية: الدويلات الإمبريالية.

لقد استعمل هذا النموذج لماضي أمريكا القديم على نطاق واسع منذ ذلك الوقت، وأصبح تاريخ أمريكا في حقبة ماقبل كولمبس معروفاً تماماً. فخلال الأعوام الثلاثين الماضية أصبح واضحاً أن الإنسان قد وصل إلى أمريكا من آسيا عبر مضيق بيرنج منذ ١٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ سنة مضت أو ربما قبل ذلك، وأن بعض النباتات التي تستعمل في الغذاء قد زرعت في أربع مناطق من أمريكا على الأقل: الجنوب الغربي[١]، جنوب تامولبياس، وادي تاهوكان، وساحل بيرو، مع احتمال وجود مركز خامس في الغابات الاستوائية من أمريكا

(١) يعود تاريخ أقدم وجود بشري في أمريكا إلى ٣٠- ٣٥ ألف سنة من وقتنا الحالي. (المترجم).

الجنوبية، وذلك خلال الفترة الممتدة من ٥٠٠٠ ق.م. - ١٠٠٠ ق.م. وتعد حفـريات ر.س. ماكنيش MacNeish في وادي تاهوكان ـ وهو وادٍ جاف في جنوب المكسيك ـ نقطة ارتكاز لفـهمنا لأصول الزراعة في أمـريكا، وقد قامت مؤسسة بيـبودي بنشر التقارير الآثارية - النباتية لمشـروع تاهوكان خلال العامين ١٩٦١ و ١٩٦٢م.

في تلك المجتمعـات المحلية الأمريكية المنتجة للغـذاء تولدت مدنيات أمريكا الوسطى: الأولميك والمايا ومـدنية بيـرو. عرفـت المايا بشكل جيـد منذ بعض الوقت، أما الأولميك فهي مـدنية جديدة شائقة مدهشة تمـيزت برؤوس حجرية ضخـمة وتماثيل غريبـة للفهود السـوداء. وللمزيد من المعلومات عن حـضارة الأولميك انظر مايكل د. كو D. Coe **المدنية الأمريكيـة الأولى: اكتشاف الأولميك** (١٩٦٨) **America First Civilization: Descovering the Olmec**. وكـــذلك كتابــه **المكسيـك Mexico** (١٩٦٢) الطبعـة المنقحـة (١٩٦٧) التي يقول فيها: «ليس هنـــاك أدنى شـــك الآن فـي أن كل المدنيـــات المتـأخـــرة في أمـــريكا الوسطى، سواء أكانت تخص المكسيك أم المايا؛ ترتكز فـي النهاية وفي أساسها على حضارة الأولميك».

يستطيع الـقارئ أن يتابع أحـدث ماكتب عن آثار أمـريكا في مرحلة مـاقبل كـولمبس في المعـالجة الرائعـة التي أعـدها ج.ر. ويلي G. R. Willey بعنوان **مقدمـة في الآثار الأمريكية: أمريكا الشـمالية والوسطى**[1] (١٩٦٦)؛ **An Introduction to American Archaeology: (1) North and Middle America.** **وأمريكا الجـنوبية** (١٩٧٢) **(2) Soth America**، وهناك معالجـة أقل طموحاً إلا

(١) المقصود به الجزء الجنوب الغربي من أمريكا الشمالية. (المترجم).

أنهـا أكثـر شعـبـية أعـدها ج. هـ. س. بوشنيل G. H. S. Bushnell بعنوان **الأمريكيون الأوائل: مدنيـات ماقبل كولمبس (١٩٦٨) The First Americas: The Pre-Columbian Civilizations.**

لتقرير واضح وعصري نـحيل القارئ إلى كتاب الدنيا الجديدة (١٩٧٥) **The New World** لوريك م. بري Warwick M. Bray وإيرل هـ. اسوانسون Earl H. Swanson وأيان س. فرنجتون Ian S. Farrington.

وكما ذكـرنا سابقاً فـإن العقد السابع من القـرن العشرين شهـد في أمريكا مـاسمي عن عـمـد وقصـد «علم الآثار الجـديد»، ولتفـاصـيل أوفى عن هذا الموضوع نحيل الـقارئ إلى س. ر. بنفورد S. R. Birford و ل. ر. بنفورد L. R. Binford **منظور جـديد في عـلم الآثار (١٩٦٨) New Perspectives in Archaelogy** ومارك ب. لـيون M P. Leone **علم الآثار المعـاصر (١٩٧٢) Contemporary Archaeology** وويلي وسـابلوف **تاريخ عـلم الآثـار الأمـريكـي** (١٩٧٤، الطبعة الثانية ١٩٨٠م). دعني أنقل ما يـراه ويلي وسـابلوف نقاطاً أسـاسيـة فـي علم الآثار الجـديد: «فـي البـداية كـان نتـاجـاً لعلم الآثار الأنثروبولوجي، جـاء به آثاريون شبان تدربـوا جزئياً أثناء دراسـتهم على أيدي أنثروبولوجـيين اجتـماعيين وآثاريين. كـان مركز اهتـمامهـم هو شرح التطور الحضاري... وفي المرتبة الثانية فـإن علم الآثار الجديد ـ كان ومايزال ـ يتخلله تفاؤل عظيم بإمكانية الوصـول إلى تفسير لحركـة التطور والوصول إلى القوانين المحـركة للتطور الحـضاري. وهناك اتجـاه ثالث يرى أن في كـشف علم الآثار لتفسير التطور الحـضاري صلة وثيقة ليس ببقية فروع الأنثـروبولوجيا فحسب، وإنّما بقضايا عالمنا المعاصر كذلك».

إنّ تطور علم الآثار الأمريكي الجديد خلال العـقد السابع من هذا القرن هو

جزء هام مـن تاريخ علم الآثار ويجب علينا أن نوليـه بعض الاهتمـام. كيف ظهر إلى حيِّز الوجـود ولماذا؟ في كتابي **مئة وخمسون عاماً من تاريخ علم الآثار** **One Hundred and Fifty Years of Archaeology** (١٩٧٥) كـتـبت أقـول:

«نبعت هذه الحركـة الجديدة في أمريكا من السجل الأثري المجدب لفتـرة ماقبل كـولمبس، ولقرون عـديدة لم يحـدث هناك ما يثـيـر الاهتمـام لطلاب تاريخ البشرية، لم يعرفوا شيئاً كأستون هنج ولا المعابد المالطية، لقد أُصيب الآثاريون الأمريكيون بخـيبة أمل في ماضيـهم الأثري، وعندئذ وجدوا الملاذ في النظرية والمنهجـية، فأمضـوا الوقت في الحديث عن تفسـير التطور الحضـاري وإصدار «القوانين المحركة للتطور».

كان ذلك حكماً قـاسياً قصـدت به أمريكا الشمالية، فـالسجل الأثري لمدن أمريكا الوسـطى وبيرو ومعابدها كان مصـدر إثارة على مدى المائـة والخمسـين عاماً الماضية. إن أمـريكا الشمالية في فترة ماقـبل كولمبس هي التي تتسم بعدم الإثارة، وهي التي ألقت بالآثاريـين في أحضـان الأنثربـولوجيين الذين كـانوا يأملون جميعهم ـ بلا طائل في نظري ـ في توضيح قوانين السلوك البشري.

هل كان علماً «جديداً» بحق، أم هو «قـبعة قديمة» كما قال كـثيرون؟ يقول بنفورد نفسه: «نحس أن علم الآثار خلال العقد السابع من هذا القرن يمر بنقطة مهـمة في تحوله التطوري». إلا أن الآثاريين ظلوا دائمـاً يتحدثون عن التـحول التطوري والمسـيرة الحضـارية، والآثاريون الأمريكـيون من هذه الطائفـة خلال الستـينيات، يبدو أنهم لم يكونوا ملمين بتـاريخ علم الآثار وربما كان ذلك هو مدعاة إصـدار هذا الكتاب؛ دعهم يقرؤون أو يعـيدون قراءة طومسن وفـارسيه ومونتليوس وشايلد.

يقول و. و. تايلر في تعقـيبه على مجموعة المقـالات التي جاءت في كتاب

سالي ولويس بنفورد منظور جديد في علم الآثار الذي سبقت الإشارة إليه: «إنّ نقاشاً مستفيضاً لمنهج مشابه في علمنا هذا قد جرى منذ عام ١٩٤٨ (و.و. تايلر: دراسة الآثار)، إن النظرة العلمية للحضارة كانت أمرا أساساً بالنسبة للأنثروبولوجيا الأمريكية التي تشمل علم الآثار، منذ مالنوفسكي Malinow-ski، على أقل تقدير إن لم تكن منذ بواز Boas. أما عن معتقدات بنفورد الأخرى فأستطيع أن أشير إلى أجزاء من دراسة الآثار تغطي كلاً من تلك المعتقدات، حتى اختبار الفرضيات . . . إن ماجاء به بنفورد وبنفورد في كتابهم ليس كشفاً للنظرية ولا هو تطبيقاً يخص منظوراً جديداً وإنّما هو توضيح لأمور سابقة» (مجلة العلوم ١٩٦٩ : ٣٨٢- ٣٨٤ (Science,1969: 382-4

أما ماكتبه روبرت بريدوود عن تطور علم الآثار "الجديد" فقد كان مدمراً، كتب يقول: «إن نمو علم الآثار "الجديد" بكل علميته في الولايات المتحدة على الأقل سيفهم جزئياً في نهاية الأمر بوصفه رد فعل لنمو المؤسسة القومية للعلوم National Science Foundation؛ لكونه مصدراً لدعم مالي هائل للأعمال الآثارية في إطار الأنثروبولوجيا، من الضرورة أن يتصرف الشخص وأن يتحدث حديث عالم. والتمويل للأعمال الميدانية في الدراسات الإنسانية جاء متأخراً ومع نمو صندوق الوقف القومي للدراسات الإنسانية National En-dowment for the Humanities. إني أكاد أجزم بأن روح الصخب لدى الكثيرين من أنصار علم الآثار الجديد في الولايات المتحدة هي انعكاس للملل الذي صاحب سنوات الحرب الفيتنامية، هذه المجموعة تنتمي إلى ذلك الجيل الذي «لايثق في أي شخص تخطى عقده الثالث» (مع أنهم قد تخطوا تلك السن بفارق كبير). لقد أُعْلِن على الملأ في عدد من المؤتمرات، على سبيل المثال أن: «لاشيء مما كتب قبل عام ١٩٦٠م يستحق القراءة»، ومع نمو أدب

تلك الحركة، أصبح من الصعب على الكثيرين من الآثاريين «الجدد» وتلاميذهم أن يفهموا أياً مما كتب قبل عام ١٩٦٠م».

أما نحن ممن تخطوا الثـلاثين بكثير في تلك الـسنوات الحرجة فقـد تجاوزنا تلك المرحلة بخليط من السـخرية والتقليل من أن ثمـة حدثاً كبـيراً قد اخـترق حاجز المـعرفة. إن شعوراً مـحزناً يخالجني بأن بعض مـاكتب في "علم الآثار الجديد" سيجلب الخلط إلى أذهان الطلاب وزمـلائنا الأصغر سناً خارج أمريكا الشمالية وأوربا الغربية» (**العصور القديمة** ١٩٨١: ٢٤- ٢٥).

أني لا أشك في هذا؛ فـالكـثيـرون مـن دعاة «عـلم الآثار الجـديد» الذين يمارسونه يستعملون أدباً يصعب التمـييز بينه وبين كركرة الديوك الرومية. يوجد في بريطانيا اثـنان من الآثاريين المتميـزين (أحدهما رحل عنـا بكل أسف) كانا حريصين ومروجـين لعلم الآثار الجديد. أحدهما ديفـيد كلارك David Clarke أحد أساتذة جامـعة كيمبرج، الذي كان رحـيله المبكر في عام ١٩٧٦م خسارة فـادحة لعلم الآثار. وجـد كتـابه **الآثار التحلـيلية Analytical Archaeology**. (الطبعة الأولى ١٩٦٨م والطبـعة الثانية بمراجـعة بوب شابمان Bob Chapman) ترحيـباً من الكثيـرين بوصفه أحـد أهم مانشر في عـلم الآثار الجديد. يصف كلارك في هذا الكتاب علم الآثار «الجديد» بأنه: «مجموعة متداخلة من المناهج الجـديـدة والملاحظات الجـديدة والصـيغ الجـديدة والفلسـفـات الجـديدة والأيديولوجيات الجديدة جميعها في مناخ جديد». أما الآخر فهو كولن رينفرو Colin Renfrew الذي انتخب قريباً رئيـساً لقسم الآثار بجامعة كـيمبردج. في بحث شائق له بعنوان **التـقليد العظيم في مـواجهـة الانقسـام العظيم The Great Tradition Versus the Great Divide**، أعلن رينفرو عن اعتقاده أن: «بنفورد وزملاءه قد قدموا مساهمة كبرى للفكر الآثاري أكثر من أي شخص آخر خلال

هذا القرن» إلا أنه مضى يقول: «إن مايسمى «بعلم الآثار الجديد» قد عومل في بعض المراكز ـ بكل أسـف ـ على أنه مذهب، وكأي مـذهب فهو يعني أشـياء كثـيرة لأناس كثـيرين، إلا أن مايعـده الشخص مـذهباً قد يراه الآخـر بدعة، فالتطورات التي شهدها الفكر الآثاري رفضها عدد كبير من طلاب العلم القديم بوصفـها لغة مـشوشة مشـحونة بالغمـوض تحاول أن تفرض رداء الرياضـيات والعلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية والفكر الحر الخاص بالتقليد العظيم (لعلم الآثار). هناك بالطبع عدة أدلة تسند هذا الرأي، كمـا أن علم الآثار الجديد بعد عشر سنوات يحوي الآن عدداً من الصـالونات وإن كان بعضها سيء الإضاءة» **العـصـور القديمة الأمـريكيـة ١٩٨٠ : ٢٩٣- ٢٩٥) Journal of American Antiquity**, 1980, 293-95.

إن المؤرخ لعلم الآثار يجب أن يسـجل آراءه بكل صـدق، وأنا بالطبع أقف إلى جانب بريدوود وتايلر؛ بنهـاية هذا القرن سنرى أن ادعاءات ديفـيد كلارك وكولن رينفرو مبالغ فيها، وأنهم يكشفون عن جهل بتاريخ علمهم. ومع ذلك فإن الحافز الذي قدمته النقـاشات التي دارت خلال العقد السابع من هذا القرن قد أوحت بالكثيـر في الأعمال الجديدة ذات القـيمة العالية. نذكـر على سبيل المثـال فقط كـتاب ديفـيد كـلارك **نماذج في علم الآثار (١٩٧٢) Modes in Archaeology** وكتـابي رينفرو **قبل المدنية (١٩٧٣) Before Civilization**، و**ظهور المدنية السكلاد وبحر إيجة (١٩٧٣) The Emergence of Civilization: The Cyclades and the Aegean**، وكتـاباً آخر يحوي عـددا من المقالات باسم **قضـايا فيما قبل التاريخ الأوربي (١٩٧٩) Probelms in Eurpean Prehistory**.

في اعتـقادي أنه بعد هذه العـاصفة والنقـاش المضني الذي أثاره علم الآثار «الجديد» فإن علم الآثار سـيعود أكثر قـوة وحيوية إلى دوره الطبيـعي في كتابة

تاريخ الإنسان. إن الغـالبية من المؤرخين العقـلاء الجيدين قد فـشلوا في تحديد قوانـين كونيـة تُسيّـر الماضي البشـري، ناهيك عن تلك التي تسـيّر مـستقـبل الإنسان. إن الآثاريين الجـدد الذين ظهروا خلال الـعقد السـابع من هذا القرن وتابعيـهم المعاصرين في بريطانيـا وأسكندنافيا سـيتحررون من أوهامـهم خلال العقد الـتاسع والعاشر من هذا القـرن، وسيدركون أن ماضي الإنـسان هو أمر يمكن تسجيله ووصفـه وتقديره وفهمه، إلا أن الأمل في اكتشـاف قوانين حركة التطور من خـلال علم الآثار والأنثـروبولوجـيـا هو في الغـالـب وهمٌ آيل إلى الفشل، ربما تثـبت الأيام خطأ اعتقـادي هذا، وعلى كل فإن تاريخ علم الآثار مملوء بالافتراضات والتكهنات الخاطئة[١].

الحقيقة والخيال والوهم:

لقد قدّم عـلم الآثار الأمريكي أثناء الفترة قـيد البحث قضـايا نظرية جديرة بالدراســـة، إلا أنه أوضح لنـا كـذلك أن الّـلعنة التي أصـــابت ذلك الـعلم بالمهووسين والمعتوهين الذين رفضوا الدليل على التطـور المستقل لثقافات عرفت إنتاج الغذاء ومدنيـات في الدنيا الجديدة، والذين أرادوا لتلك الأرض أن تكون مستعمرة لقدماء المصريين والقبائل المفقودة من بني إسرائيل والفينيقيين والإغريق والأيرلنديين وأهل ويلز وأطلانطا وأهل مـو أو أناس غرباء من كـواكب أخرى جاءت بهم أطباق طائرة؛ لم تكن قاصرة على القـرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فقط، وهناك مـؤلفات مثيرة لايعتد بها تحـوي هذه الحماقات والأوهام

(١) لمعرفـة التطورات التي طرأت على علم الآثار في حـقبة مـابعد علم الآثار الجـديد (خلال العـقدين التاسع والعاشر من هذا القرن) نحيل القارئ إلى:
قراءة الماضي Hodder: Reading the Past (1986) (المترجم).

المحيرة منهـا: سايرس هـ. غردون Cyrus H Gordon **ماقبل كولمبس (١٩٧١) Before Columbus** وفون سرتيما Von Sertima **جاؤوا قبل كولمبس: الوجود الإفريقي في أمريكا القديمة (١٩٧٦) They Came before Columbus: The African Presence in Ancient America** وهناك كتابان لبري فل Barry Fell **أمريكا قبل الميلاد (١٩٧٧ America BC** و **الملحمة الأمريكية (١٩٨٠.) Saga America**. لقد كان فل أستاذاً (ليس في علم الآثار ولله الحمد، بل في الأحياء المائية) بجامعة هارفارد.

ويمكن عد كتابيه هذين مثالاً للسخف ومثاراً للسخرية، ولكل مايمكن أن ينمو ويزدهر على الشواطئ الوعرة لعلم الآثار، هذا بالطبع إذ استثنينا ذلك الهجوم غير المؤسس الذي قاده أريك فون دنيكن. ويختلف الأخير هذا عن الثلاثة الأوائل الذين كانوا على الأقل علماء لهم أفكارهم المحددة التي أصبحت أوهاماً مضللة، على حد قول إليوت اسمث منذ زمن بعيد. إلا أن مدرسة مانشستر لم تحو تحيزاتها وحماقاتها شيئاً يمكن مقارنته بالمبالغات والجهالات التي أوردها غردون وسرتيما وفل. والمُحْزِن حقا أن القارئ العام يجد هذه الكتب المضطربة في دور الكتب دون أن تكون لديه الوسيلة للتمييز بين الحقيقة والوهم، وبين التقويم العادل للدلائل المتوافرة وبين الحماقة.

ولفضح هؤلاء الكتاب المشاكسين قليلي المعرفة كتب وشوب Wauchope مشهراً بهم في كتاب رائع يفضح زيف الأسطورة الأمريكية اسماه **القبائل المفقودة والقارات الغارقة (١٩٦٢) Lost Tribes and Sunken Cotinents**. إلا أننا يجب ألا ننحى منحى استبعاد احتمال وقوع رحلات عبر المحيط الأطلسي والمحيط الهادي في فترة ماقبل كولمبس؛ فقد أثبت هايردال Heyerdahl بقاربه رع إمكانية عبور الأطلسي بقارب قصبي من الشرق إلى الغرب بعد أن أثبت في

وقت سابق إمكانيــة عبور المحيط الهادي من الشــرق إلى الغرب بواسطة طوف مصنوع من خشب البلزا في عملية اشتهرت باسم كون - تيكي Kon-tiki. إن هذه التجارب الحديثة توضح مــاهو ممكن إلا أنها لاتثبت حقائق. ونحن لانزال ننتظر دليلاً إيجـابياً يثبت أن أناسـاً ومدنيات من العالم القــديم قد وصلت إلى أمريكا. أما كون ذلك أمراً ممكناً فذلك مما لاريب فيــه: فالفينيقيون الذين يبدو أنهم قد أبحروا حول إفريقيــة في عهد الفرعون نخاو Necho[1] كان بإمكانهم عــبور المحــيط الأطلسي الجنوبي إلى البــرازيل، إن الاحــتمــالات واردة إلا أن الدليل يعتــمد على حــقائق. والحقــائق الوحيدة المتــوافرة لدينا التي تشــير إلى رحلات عبر الأطلسي في فترة ماقبل كولمبس تنحصر في مستوطنة الفايكنج في لانسي ـ أو ـ مـــدو L'Anse-aux-Meadow في نيـــوفـــاوندلاند، وكـــذلك الاكتـشافات الأخـيرة للمــعهد القطبــي الكندي لدراسات الفايكــنج في جزيرة السمير، وكذلك التعرف إلى قطعة نقدية تخص الفايكنج في ولاية مين، يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر.

هذه حقائق، وليس هناك آثاري عاقل يستطيع أن يستبعد احتمال العثور على مخلفات فينيقية أصيلة في البرازيل أو أي مكان على الساحل الشرقي لأمريكا، (بالنسبــة لقدماء المصــريين فالاحــتــمال ضعــيف للغاية إذ إن هؤلاء لم يعــرفوا باهتمــامهم بركوب البــحر). إن الصعوبة هنا ـ كــما هو الحال في الكثــير من قضــايا علم الآثار ـ تكمن في التــمــيز بين الحــقيــقة والوهــم وبين الافــتراض والأماني، أيا كانت دقة الحوار، لقد كان كل من سايرس غردون وفون سرتيما

(١) نخاو Necho هو أحد ملوك مصر في الأسرة ٢٦ وقــد حكم خلال النصف الثاني من القرن السابع ق.م. (المترجم).

أسيراً لأمنياته، قفزا إلى النتائج دون تمحيص، كما فعل إليوت اسمث وبيري أصحاب مدرسة مانشستر من قبل، لقد سلطنا عليهما الضوء هنا إذ فيهما تكمن إحدى المخاطر التي تهدد تعريف العامة بعلم الآثار.

أما الصلات عبر المحيط الهادي في الاتجاه المضاد لذلك الذي عرفته رحلة كون ـ تيكي فقد ظلّت احتمالاً قائماً دائماً. تحدث ميغرز Meggers وآخرون عن فخار يوموني ياباني في الإكوادور، إن السجل الأثري تجب مراجعته على أساس ما هو ممكن وما هو محتمل وما هو حقيقي، وليس على أساس أفكار مسبقة.

لقد أثبتت الأبحاث في الهند والصين التي سارت متوازية مع مثيلاتها في أمريكا ومناطق أخرى؛ أن الزراعة والمدنية في كلتا المنطقتين كما في أمريكا قد تطورت محلياً وباستقلال تام عن الشرق الأدنى القديم.

وعثر في شرق آسيا وغرب أندونسيا على مستوطنات بشرية يرجع تاريخها إلى مليوني عام. وعرفت جنوب شرق آسيا الزراعة وتطورت في وقت لاحق إلى مجتمعات تمارس ثقافات العصر الحجري الحديث والعصر المعدني، كان ذلك خلال الفترة الممتدة من عشرة آلاف عام إلى ألفي عام مضت، لقد عرفت تلك المجتمعات صناعة الفخار منذ عام ٥٠٠٠ ق.م.، وازدهرت ثقافات العصر الحجري الحديث التي عرفت زراعة الأرز وتربية الماشية وصناعة الفخار وصقل الأدوات الحجرية في حدود عام ٣٠٠٠ ق.م. وهو الوقت ـ فيما يبدو ـ الذي تطورت فيه محلياً صناعة النحاس والبرونز في تايلاند. ويبدو الآن واضحاً أن تطور الزراعة قد تمّ في جنوب شرقي آسيا في وقت مبكر شأن جنوبها الغربي. يجد القارئ موجزاً للآراء الحديثة الخاصة بالدراسات الآثارية لجنوب شرق آسيا ومنطقة المحيط الهادي في كتابين لبيلوود PBellowood

البولونيزيون وغزو الإنسـان للمحيط الهادي: مـاقبل التاريخ في جنوب شـرق آسيا وجـــزر المحـيط الهـــادي (١٩٧٨) Man's Conquest of the Pacific: The Pre- history of South- East- Asia and Oceania The Polynesians. وفي الكتاب الأخيـر هذا يقول الكاتب (ص١٩٨): «على علم الآثار أن يتـعمّق في جنوب شرق آسيا أكثر من أي منطقة أخرى في العالم».

إن التطور في الوسـائل العلمية للتـأريخ واتساع مجـال آثار ماقـبل التاريخ لتشمل العالم بأسره قد دفع الآثاريين لإعادة التفكير في طبيعةالتطورات الثقافية البشرية وحقيقتها في حقب ماقبل التاريخ، إن حقيقة الوجود البشري في شرق إفريقية منذ مليـونين أو ثلاثة ملايين سنة مضت قد أصبح حقيـقة ثابتة، كذلك فإن حـقيقة أن الانسـان الذي عاش على الصيـد والجمع قد تحـول إلى ممارسة الزراعة وتربيـة الحيوان في أنحاء مخـتلفة من العالم من حوالـي الألف العاشر قبل الميلاد تجـد قبولاً عاماً هي أيضاً، وبالقـدر نفسه فإن عدداً من مجـتمعات القرى الزراعية هذه قد أدت إلى ظهور مجتمعات حضرية تعرف الكتابة سميت بالمدنيـات، ولايزال علم الآثار سـائراً على افتـراض أن تحـولاً قد حـدث من وحشـية العصـر الحجـري القديم إلى بربرية العصـر الحجـري الحديث ثم إلى مدنيات العـصرين البرونزي والحديدي. ويبقى السؤال قـائماً: هل حدثت هذه التحولات في مختلف أنحاء العالم بمعزل عن بعضها، أم أن التحول قد حدث في منطقة واحـدة فقط كمـا يرى شايلد، حين جعل من الشـرق الأدنى القديم موطناً لحدوث ثورتي العصر الحجري الحديث والثورة الحضرية؟ ماهو رأي علم الآثار الحـديث في الخـلاف الأبدي بين القـائلين بنظريـة الانتشـار الحـضـاري ومعـارضيهم من أنصـار الابتكار؟ في رأيي أن الإجابة تخـتلف عن تلك التي نادى بها مورغن وأنجلز وماركس والفكر الآثاري الروسي الحديث القائلة بتطور

اجتماعي حضاري شامل، كما تختلف الإجابة عن تلك القائلة بالانتشارية التي تحدّث عنها شايلد ومونتليوس (وبالتأكيد تختلف عن الانتشارية المفرطة Hyper-diffusionism التي نادى بها إليوت اسمث ومدرسة مانشستر).

فيما يبدو أن علم الآثار يرى أن التحول من حياة الصيد والجمع إلى حياة الزراعة وتربية الحيوان قد تمّ في أماكن مختلفة متعددة من العالم بمعزل عن بعضها خلال الفترة بين ١٢٠٠٠ و٧٠٠٠ ق.م. وأن هذه المجتمعات الزراعية والرعوية أدت إلى ظهور المجتمعات التي تعرف بالمدنيات القديمة في مناطق مختلفة من العالم كذلك وبمعزل عن بعضها. وفي كتابي **المدنيات الأوائل: آثار أصولها** (١٩٦٨) **The First Civilizations: the Archaeology of their Origins** ذكرت وقتها أنه فيما يبدو لي أن المدنية ـ أو ما أسماه شايلد بالثورة الحضرية، وما أفضل وصفها «بالإجراء الالتحامي» ـ قد حدثت سبع مرات في أجزاء مختلفة من العالم: أربع منها في العالم القديم (وهي بالتحديد مصر ووادي الرافدين والهند والصين) وثلاث مرات في الدنيا الجديدة (الأولميه والمايا والمدنية الكلاسيكية في وسط بيرو). إلا أنه أصبح واضحاً خلال السنوات العشر الأخيرة أن قائمة تضم سبع مدنيات هي قائمة قصيرة، وأن هناك على الأقل منطقتين أخريين إحداهما المدنية الإيجية المينوية، والأخرى هي مدنية جنوب روسيا.

وحسب ما أراه فإن هذه تبدو معقولة، لقد أسرفنا في محاولة وضع مفاهيم لأصول الحضارة وأمضينا وقتاً طويلاً في مناقشة قضايا مثل أصول الزراعة والحضارة الميغاليثية والاستيطان الحضري في وقت كان الأجدر بنا فيه وصف التحول في مسيرة الحضارة المادية في مختلف أرجاء العالم.

إنه من الصعب إيصال النتائج التي توصل إليها الآثاريون المحدثون خلال

العقــد الثامن من هذا الـقرن إلى عامـة الناس الذين يعـتمد عليـهم الآثاريون المحترفون كثـيراً في التشجيع لمهنتهم، وفي الاكتشـافات التي تأتي عرضاً ومن الضغط على الحكومات لحفظ الإرث الحـضاري العالمي ودراسته. إن علم الآثار في هذه الأيام يلقى رواجاً عند العـامة، ومن حسن الطالع فقـد انقضى الوقت الذي كانت فيـه صورة علم الآثار يهيمن عليها ويمارس مـهنتها أناس ذوو لحى بيضاء طويلة من أمثال فلندرز بيتري أو بعض غريبي الأطوار من ضباط الجيش المتقـاعدين من أمثال بت - يفـرز. لقد أصبح علم الآثار الآن فـرعاً مفهـوماً ومحـترمـاً من العلوم التاريخـية (أو المعـرفة). إن التـحول الذي شهـده المناخ الفكري لدى العامـة يمكن رصده ببساطة: في عـام ١٩٢٧م كان هناك سبع أو ثماني وظائف لتـدريس علم الآثار في الجامعات البريطـانية، الآن وبعد نصف قرن لدينا حوالي ثلاثمئة وظيفة، إنه تحول جذري مدهش، ومستمر في الوقت نفسه.

ليس ثمـة شك الآن في الجدوي الأكاديميـة لعلم الآثار، إلا أن العـامة إلى جانب الأكاديميين المخـتصين في حاجة لمعرفة إمكانات البـحث الآثاري المعاصر ونتائجه.

ويمكن بلوغ هـذا الهـدف جـزئيـاً بـواسطة التلفـزيون والإذاعـــة وبواسطة المحاضرات والكتب الشعبـية والمجلات. ليس من شك في أن البرنامج الآثاري - الأثنوغرافي في التلفـزيون الأمريكي المسمى «مـاذا في العالم» What in the World قد قدّم الكثير لإثارة اهتمام العامة بهذه الأمور، تماماً كما فعل البرنامج الإنجليزي «الحـيوانات والخضـروات والمعادن» Animals, Vegetables, Minerals، الذي استمـر بنجاح لست سنوات خلال العقـد السادس من هذا القرن. هذه البرامج في هيئة الإذاعة البريطانيـة أدت إلى ظهور أفلام وثائقية جادة مثل

«الكنز المدفون» Buried Treasure وسلسلة «كرونكل» Chronicle التي قدمها بول جونستون Paul Johnstone واستمرت بنجاح لسنوات عديدة. لدى هيئة الإذاعة البريطانية الآن وحدة للتاريخ والآثار، كما أن شركات التلفزيون الأخرى في بريطانيا وفرنسا والدنمارك وغيرها تستعمل شاشات التلفزيون لبث برامج عن الآثار.

لقد انقضى أكثر من خمسين عاماً على إنشاء مجلة **العصور القديمة**. وفي بريطانيا لها مثيلاتها التي تصغرها سناً وتفوقها نشاطاً مثل **الآثار المعاصرة وآثار العالم و الآثار العامة** **Archaeology, Current Archaeology, World Archaeology, Popular Archaeology**، وفي الولايات المتحدة تصدر مجلات مثل **الآثار العامة والآثار والإنسان القديم و الحملة** **Archaeology, Early Man, Expedition**. وتصدر في فرنسا **الآثار** ومصادر ماقبل التاريخ **Archéologia, Initiation a la prehistoire**. وتصدر في الدنمارك أكثر هذه المجلات شهرة وشعبية باسم «سكالك» Skalk بتوزيع يصل إلى ٥٠٠٠٠ نسخة بواقع شخص واحد من كل مئة شخص في الدنمارك يقرأ (أو يشتري على الأقل) هذه المجلة.

ولكن هل يعني هذا إلى جانب الزيادة المطردة والترحيب الذي تلقاه الأعمال الجيدة في أوساط العامة أننا مقبلون على جمهور يعي مايجري في حقل الآثار؟ بكل أسف ليس إلى كل الحد. إن علم الآثار قد اشتهر الآن وأصبح موضة العصر إلا أن هذه الشهرة تشاركه فيها كتب عن علم آثار زائف. وفيما يبدو فإن الخير لاينمو إلا بنمو للشر موازٍ له، وذلك أمر مؤسف. الحقيقة أننا عندما نعود لنكتب تاريخ الإنسان في مرحلة ماقبل الكتابة حيث يرتكز عملنا كلياً على المصادر غير المكتوبة نجد السجل شحيحاً والقصة الناتجة عنه غالباً ماتكون

غيـر مقنعة لا تفي باهتـمام القارئ الـعام وطموحـه. إننا نقوم باستـخدام كل الوسائل العلمية المتاحة، كما نقوم بجـمع المعلومات القديمة والحديثة وتمحيصها وتحليلهـا ونفـعل كل مـابوسـعنا، ولكن رغم ذلك فـإن الأسـئلة التي يرددها الكثيرون تصعب إجابتها: من الذي قام برسم تلك الحيوانات في كهف لاسكو ولماذا؟ من خطط وبنى ستون هنج ولماذا؟ لماذا أقيـمت الرؤوس الحجرية الأولمية وتماثيل جزيرة إيستر وكورسيكا؟

إن استيوارت بيغوت يتخذ موقفـاً متحفظاً غير انهزامي (أشاركه إياه)، يقول فيه: «إن الدليل الأثـري وحده يمكنه أن يمدنا بمعلومات عن جوانب عـامة فقط كالتركيبـة الاجتماعية والمعتقدات الدينية، وحـتى هذه تكون بطريقة مبدئية، إن كل مايستطيع العاملون في حقل ماقبل التاريخ إدراكه هو تاريخ التقنية».

ليس من المستغـرب أن تدفع صعوبة توضيح كل جوانب القـصة إلى جانب محـدودية ما يمكن كشفـه الكثيرين إلى الجناح المتطرف لهـذه المادة. ففي أوربا الغربيـة التي هي أحسن حالاً من أمـريكا هناك طائفة كبـيرة لما وصف بـ«علم الآثار البـديل» و«علم الآثار المتطرف» و «علم آثار الهراء». يـقوم بهذا الـعمل أناس يؤمنون بقبائل بني إسـرائيل الضائعة، وقدماء المصريين والفـينيقيين وأهل قـارة أطلانطا، والمو، وصـيـادي المروج، إلى جـانب مـهـووسي الأهرامـات والأشخـاص الدخلاء الذين يؤمنون أنه بإمكانهم العـثور على علامـات قرص البروج في سياج الأشجار في الريف البريطاني.

وأخيراً وبتشجيع من أناس مـثل أريك فون دنيكن الذي وصفه ريهورك Re-hork في كـتـابه المشـهـور علم الآثار الحـديث (١٩٧١) **Fascinante: L'Ar-cheologie Moderne**، لقـد أضيف زوار من الـفضـاء الخارجـي إلى القائمـة الزاخرة بالخرافات الآثارية، لقد أسهم فون دنيكن أكثر من أي شخص آخر في

نشر سخافات خطرة عن الإنسان القديم (أقول هذا عن عمد وفي ذاكرتي أناس مثل إليوت اسمث وفل ودونلي Donnelly وبلمي Bellamy وفلوكوفسكي Velikovsky، وجاء بعلم الآثار الفلكي إضافة لعلم الآثار الفضائي ذي الصورة المريبة التي جمعت بين مايشبه العلم ويشابه الجنون. لقد طوّع اللوحات الصخرية في تسيلي وخطوط النازكا ونقوش المايا التي أساء تفسيرها لخدمة من زعم أنهم جاؤوا في مركبات فضائية هابطين من السماء[1].

إن الأساتذة والمرشدين الذين تتلمذت عليهم كانوا يقولون: إن الأجنحة المتطرفة في علم الآثار هي نزوات مضحكة يجب تجاهلها، إلا أن هذا في رأيي ليس هو الحل، إن أحد واجبات علم الآثار والآثاريين خلال العقد التاسع من هذا القرن هو كشف هذه الأفكار المتطرفة وتعريتها وتوضيح الحقيقة كما تبدو بشكل دقيق مقنع متكرر.

إن الحجم الكبير الهائل من المعلومات الآثارية والمعرفة التي توافرت أخيراً يجب أن تكون في متناول أيدي الجميع، فعلم الآثار لم يعد هواية سرية أو ممارسة مقصورة على أفراد بعينهم مثل: جون إيفانز أو بوشر دوبرت، إنه مصدر معلوماتنا من المخلفات الثقافية والمتحجرات التي تعلمنا إن كنا بشراً أم فئراناً.

في رأيي أننا بشر، وأن تاريخ علم الآثار على الرغم من أنه ضُغط كما

(١) لقد تُرجم كتاب دنيكن **Chairots of the Gods** إلى اللغة العربية ونسبه مترجمه إلى نفسه دون إشارة إلى الكتاب الأصل. كذلك يدخل في إطار هذه المؤلفات كتاب أحمد عثمان: موسى فرعون مصر (١٩٩١) **A.Osman, Moses: Pharaoh of Egypt** الذي يزعم فيه أن موسى عليه السلام هو الفرعون المصري أخناتون، وهو خطأ فادح لأن أخناتون وثني. وكذلك كتابه غريب في وادي الملوك **Stranger in the Valley of the Kings** الذي يؤيد فيه الرأي الذي دار بين بعض علماء المصريات بأن الوزير المصري يويا Yuya هو يوسف عليه السلام. (المترجم).

يجب واختصر في حدود هذا الكتاب يثبت هذه الحقيقة. إنه يوضح الإنجازات التقنيـة الهائلة للجنس البشـري في الماضي، إلى جانب التحـول التدريجي في أفكارنا عن ماضينا.

لعلّ هذا هو أكثر سبب مقنع لدراسة تاريخ علم الآثار، تحديداً لأنه جزء من تاريخ الأفكار وعليـه فهو عنصـر أساس في إدراكنا لتـقرير ذاتنا بوصـفنا أناساً نتطور مع الزمن. لقد كـان استيوارت بيـغوت حكيما حين قـال: «في دراستنا لأصول العلوم الـتاريخيـة وتطورها؛ فإننا نكون قـد أنهمكنا عملـياً في بحث تاريخ الأفكار، أفكـار عن الماضي حـملهـا أناس هم الآن مـوضـوع أبحـاثنا التاريخيـة. وكذلك في معرفة الوسـائل التي توصلوا إليها قصداً أو مـصادفة، للحصول على المادة الأسـاس التي يكتب منها التاريخ ولتفـسيرها» (**أطلال على السطح**، ١٩٧٦، **(Ruins in a Landscape,**

الاكتشافات الرئيسـة:

يجب ألا نختم هذا الفصل بما يثير الـغضب ويدفع إلى الهجوم، دعنا نسرد بعض الاكتـشافات الرائعـة والتفسيـرات الجديدة التي شهـدتها العقـود الأربعة الأخيـرة من الفترة قـيد البحث، لـقد سبـقت الإشارة إلى ستـون هو في عام ١٩٣٩م وكهف لاسكو في ١٩٤٠م.

في عام ١٩٤٢م طوّر كل من إميل غاينون وجـاكو كوستو Emile Gagnan Jacques-Yves Cousteau جهازاً للتنفس تحت الماء، وبدأ بذلك عهد جديد في الآثار الغارقة. وفي عـام ١٩٤٣م بدأ كل من ستون لويد Seton Loyd والسيد فؤاد سفر حـفريات في تل حسونة وقدموا فـهماً جديداً لبداية العـصر الحجري

الحديث في الشرق الأدنى. وفي السنة نفسها تمت توسعة القاعدة الجوية في أنجلسي (شمال وليز) وأدى ذلك إلى اكتشاف أدوات سلتية دفعت بالسير سايرل فوكس إلى أبحاث جديدة نتج عنها كتابه **النمط والغرض** (١٩٥٨) **Pattern and Purpose.**

وشهد هذا العام كذلك ظهور تقرير ويلر قلعة ميدن الذي سبقت الإشارة إليه. كما نشر كتاب بول جاكوبثال Paul Jacobsthahl المسمى الفن السلتي القديم **Early Celtic Art** الذي نشرته مطبعة جامعة أكسفورد في عام ١٩٤٤م. لقد كان مسحاً علمياً رائعاً وفاتحة عهد في دراسة الفنون البربرية خلال القرون الأربعة التي سبقت ميلاد المسيح، وقد كانت له آثار بعيدة المدى[١].

في عام ١٩٤٤م عثر في مستنقع في تولوند بالقرب من فيبورج في جتلاند[٢] على جسد آدمي أصبح مشهوراً فيما بعد، وقد جاء عنه في الكتاب المثير لمؤلفه ب. ف. جلوب P. V. Glob المسمى **بلاد إنسان تولوند** (١٧٦٧)[٣] **Land of the Tallund Man** : «لأول مرة يهبط علينا وجه آدمي من حقب ماقبل التاريخ دون أن يمسه التلف، لم نعرف تمثالاً رومانياً نصفياً أو آخر من عصر النهضة في إيطاليا، أو لوحة جدارية أو أي شيء آخر صنعه الإنسان لتجسيد الإنسان يمثل الحقيقة أكثر من وجه هذا الفرد المسود». وتم حفظ الرأس في متحف سلكبورج على بعد خمسة وعشرين ميلاً إلى الغرب من أرهوس وعرض ليراه

(١) في عام ١٩٤٤ صدر كتاب كروبر (١٨٧٦-١٩٦٠م) تشكيل النمو الثقافي **Configuration of Cuture Growth** الذي اوضح فيه أن كل ثقافة تمثل وحدة ونظاماً متكاملاً يحوي عدة جوانب هي أمور مستقلة ولكنها تكوّن وحدة فيما بينها. (المترجم).

(٢) يقع إقليم جتلاند في الدنمارك الحالية. (المترجم).

(٣) الواضح أنه وقع خطأ مطبعي والمقصود هو ١٩٦٧م وليس ١٧٦٧م. (المترجم).

الجميع. وجــه من الماضي، وجه إنسان عاش منذ ألفي عام ومــات مشنوقاً في طقوس دينية. دعنا نستشهد بما قاله جلوب مرة أخرى: «يحس المرء كما لو أنه يعرف هذا الشخص، ويعرف من هو، ويستطيع سماع صوته. شفتاه تنمان عن ثقة وهناك دفء سخرية على جنبــات فمه، ودعابة ساخرة في ابتســامة عينيه، لقد أغمض عينيه لتوه لا أحد يصدق أنه مات».

في نهاية العقد السادس من هذا القرن نظمت هيئة الإذاعة البريطانية برنامجاً تلفزيونيــاً عن إنسان تولوند، وقد كلف كل من الســير مورتمر ويلر وشــخصي بتذوق وجبــة ارتكزت على أنواع طعام شبيــهة بتلك التي تم تعرّفهــا عليها من محــتويات معدة إنســان تولوند ساعة موته. كــانت خليطاً لاطعم له من بذور وحشائش برية ومدجنة. خطر لي وقتــها ـ ولا يزال ـ شعور عن مدى انعكاس كل هذا على علم الآثار: لقــد استطعنا تحديد آخــر وجبة تنــاولها، إلا أننا لن نستطيع أبداً معرفة اسمه، أو لماذا شــنق، أو ماهي الخواطر الأخيرة التي عبرت ذهنه، تقع هذه جمــيعهــا ضمن المحدودية المستــمرة لعلم آثار ماقــبل التاريخ، الأمر الذي يجب ألا يغيب عنا أبداً.

في السنة الأولى بعــد الحرب ـ أي في عــام ١٩٤٦م ـ قام ر.ج. اتكنســون الذي يحتل الآن أستــاذ كرسي الآثار بالكلية الجامعــية في كاردف[١] والمعروف بحفــرياته في ستون هنج وسلبــري هل؛ باستعــمال أداة كهــربائية لتردد الإشــعاع للكشف الأثري أول مرة في مجال الآثار وذلك في منطقة دورشستر ـ أون ـ تيمس وكانت تلك هي بداية استعمال الأجهزة العلمية في مجال الكشف الأثري.

تعد مقاطعة الهنود اللاكندون من جنوب شرق المكسيك كما جاء على لسان

(١) كان ذلك وقت إعداد الكتاب الأصل. (المترجم).

كيرام Ceram: «منطقــة منسيــه يجيء إليهــا الرجل الأبيض فقط حين تــعوزه الحاجة إلى أشجار المهوقني أو المادة الصمـغية التي تستعمل في صناعة العلكة» صـــــورة مـن تاريـخ علـم الآثار ١٩٥٨، ٣٢٧ **A Picture of History of Ar-cheaology**. في عام ١٩٤٦م أنشأت الشـركة المتحدة للفـاكهة وحدة سـينمائية لإعداد فليم وثائقي بعنوان «المايا عبر العصور». لقد كان الهنود اللاكندون أحد مـجمـوعات المايا الآخـذة في الانقراض. إنهـم قوم ممعنون في التـخلف ولم يحدث أن عُمِّـدوا للمسيحـية. كانوا حقيـقة هم القبيلة الوحـيدة في المايا التي لاتزال تعيش مـرحلة حضارية سـابقة لوصول الإسـبان. استطـاع جايلز هيلي Giles G Healey مـصوِّر الوحـدة أن يقيم عـلاقات طيـبة مـعهم مما جـعلهم يكشـفون له عن سـرهم المقدس وهو الجـدران الملونة في بونامبـاك. إن بعض رسومـات المايا التي توضح آلهتـهم ورموزهم كـانت معروفـة، إلا أن جدران بونامباك كشفت عن رسومات توضح الحياة اليومية للمايا بأسلوب غني رائع.

في العام التالي كـذلك ألقى غلام عربي يرعى أغنامه بحـصاة في كهف في قمران على سواحل البحر الميت، ذهل الطفل من الصوت الذي أحدثته الحصاة فبدأ يستكشف الكهف حيث عثر على ما يعرف اليوم بوثائق البحر الميت. وفي ذلك الصـيف عثـرت ج. هنري ـ مـارتن G. Henri- Martin على مخـلفات للهومـوسيبيـان في فونت شوفـاد في الشارونت الأطلسي، كمـا أبحر هايردال بطوفه المسمى كون ـ تيكي من الأكوادور إلى بولونيزيا.

وفي عام ١٩٤٩م قام رودنكو Rudenko بحفر بعض التلال في بازيريك في إقليم التـاي في سيبـريا، كانت في حـقيقـتهـا مقابر تخص الأسكاثـيين يعود تاريخها إلى القرن الخامس قبل الميـلاد، وعثر على حوالي ستين من هذه المقابر التي كان جريازنوف ورودنكو أول من أشار إليـها في عام ١٩٢٩م. نشر تقرير

رودنكو عن حـفـرياته باللغـة الروسيـة أول مـرة في عام ١٩٥٣م، وفي عـام ١٩٧٠م ظهرت ترجمة إنجليـزية منقحة تحت عنوان مقابر سيبـريا المجمدة: مقابر بازيريك لخيّالة العصر الحديدي **Frozen Tombs of Siberia: the Burials of Iron Age Horsmen** كانت هذه المقابر الأسكاثية غرفاً خشبية في قاع الخنادق، وكان لصوص المقـابر قد قامـوا بإزالة السطوح الخشبـية عنها مماسـمح للأمطار والمياه بالتسـرب إلى الجثث فتجـمدت وحفظت بطريقـة مذهلة: لقد عاش القـماش والجلد والخشب واللباد لمدة ألفين وخـمسمئة عام، بالإضافـة إلى حرير صيني مُطرّز وقطع فارسية منسوجة وسجّادة صوفية ورجل به وشم.

بدأ جراهام كـلارك حفرياته في أستـار كار في مقـاطعة يوركشيـر في عام ١٩٤٩م، والموقع واحد من أكثر مواقع العصـر الحجري الوسيط أهمية. وحين نشر تقـرير هذه الحفريات في عام ١٩٥٤م عـد مثالاً لتداخل فروع المـعرفة في علم الآثار، وفي السنة ذاتها بدأ مـاكسي مالوان Max Mallowan حفرياته في غرود التي كشفت ـ ضمن أشياء أخرى ـ عن مخلفات رائعة من العاج. كذلك بدأت دورثي غارود وسـوزان دو سان ماثوران Dorthy Garrod and Sazanne de Saint- Matharin حفـريات في الملجأ الصخـري في إنجلز سورلا انجلين في شارونت حيث كشف عن مخلفات جديـدة رائعة تخص العصر الحجري القديم الأعلى.

وشهد عام ١٩٤٩م كذلك بداية حـفريات الآثاري المكسيكي البرتو روز Alberto Ruz في معبد النقوش في بالنكو، حيث عثر على هرم مدرج من ثماني درجات، وفي داخل المعـبد وعلى المسطبـة العليا وجد دهـليزاً يقود عـبر ست وستين درجة إلى حجرة تحوي هياكل عظيـمة وأواني فخارية وقطعاً من حجارة الجادي. كـما عـثر خلفـها على حـجرة أخرى يصـل طولها إلى ثلاثين قـدماً

وعرضها إلى ثلاثة عشر قدماً (٩×٣متر). وكانت الغرفة التي زيّنت جدرانها برسومات جصية تحوي قبر أحد حكام المايا يتراوح عمره بين أربعين وخمسين سنة، تزينه حلي من حجر الجادي وأقراص كبيرة للأذن تحوي نقوشاً بهيروغليفية المايا، كذلك عثر على تاج وقناع فسيفسائي ولؤلؤتين كبيرتين وخواتم للأصابع العشرة.

بعد هذا الاكتشاف الرائع لم يعد في الإمكان الزعم أن أهرامات المايا لاتحوي غرفاً للدفن، وكان من الطبيعي أن يشجع اكتشاف روز هذا في بالنكو أولئك الذين ظلوا لفترة طويلة يرون في أهرامات المايا دليلاً على وجود مصري قديم في أمريكا[١].

في عام ١٩٥٠م تابع براين هوب تايلر Brian Hope Taylor اكتشافاً تم عبر الصور الجوية لموقع أنجلو ـ ساكسوني في يفرنج في مقاطعة نورث همبرلاند. وأجريت التنقيبات ببراعة حيث كشفت أول مرة عن قاعة أنجلو ـ ساكسونية،

(١) شهدت هذه الفترة ظهور مدرسة التطورية المحدثة Neo-evolutionism التي انبثقت عن كتابات غردون شايلد (١٨٩٢- ١٩٥٧) وجوليان استيوارد (١٩٠٢- ١٩٧٢م) ولزلي وايت (١٩٠٠- ١٩٧٥م). ففي عام ١٩٤٩م ظهر مؤلفان أساسان في هذا الاتجاه: مقال جوليان استيوارد السببية الثقافية والقانون **Cultural Causality and Law** وكتاب لزلي وايت علم الثقافة **The Science of Culture** هذه الأعمال إلى جانب كتابات شايلد أثارت قضية التطور الحضاري والعوامل المحركة له (في وقت كان الاهتمام منصباً على قضايا التصنيف). حدد استيوارد هدف علم الآثار بالبحث عن القوانين المحركة للتحول الحضاري، ونادى بالتطور المستقل للظواهر الحضارية، وفي عدة خطوط Mutlilinear، وكان يرى في المناخ عاملاً مؤثراً في مسيرة الحضارة وأن الحضارة هي تكيف مع البيئة، وركّز على أهمية أنماط الاستيطان بوصفه عاملاً يسلط الضوء على كيفية التطور. أما لزلي وايت فيرى أن الثقافات عبارة عن نظم Systems وأنها تركيبة ديناميكية من العلاقات أو المتغيرات المتداخلة Interrelated Variables يتفاعل بعضها مع البعض داخل منظومة واحدة، وأن أي تغير في المناخ ينعكس تباعاً على بقية المتغيرات، ويرى كذلك أن هناك موازنة بين النظم الحضارية والمناخ الطبيعي وأن الحضارة في حالة تكيف دائم مع المناخ. (المترجم).

وربما كانت هي الأدغفرين Adgefrin التي وصفها بيد Bede في **التاريخ الكنسي Ecclesiastical History**. وظهر تقرير هذه الحفريات في عام ١٩٧٩م نموذجاً لما يجب أن تكون عليـه التـقارير وعـلامـة مميزة للمنـشورات الآثارية في القـرن العشرين.

أما عام ١٩٥١م فقد شـهد ظهور كتاب لويس ليكي Louis Leakey **أخدود أولدفاي Olduuai Gorge** كما ظهـرت أول مجموعة من الـتواريخ الناتجة عن وسيلة كربون -١٤ في مجلة **العلوم Science**. وفي العام التالي بدأت كاثرين كنيون حـفرياتها في أريحـة التي أظهرت تسلسلاً حـضارياً رائعاً وكـشفت عن جماجم بشرية مغطاة بالجص. وفي عام ١٩٥٢ ظهر كتاب جراهام كلارك **أوربا ماقبل التـاريخ: أساسها الاقـتصادي Prehistoric Europe: the Economic Basis** وهو مـجهـود رائد خرج بما قـبل التاريـخ من دائرة العصـور الثلاثة والأربعـة والخمسة، وتوجه نحو دراسة حياة الإنسان القديم واقتصاده.

لقد أدى وقـوع الثورة المصرية في عـام ١٩٥٢م إلى إغلاق المدارس الآثارية الأجنبيـة في مصر، وكانت تـلك بلا شك انتكاسة كبـرى، فالفرنسيـون كانوا يعملون منذ أيام نابليون بنجـاح كبير وفائدة جمّة لكل المهـتمين بالماضي القديم لأقدم المدنيـات داخل مصر وخارجهـا، وكان طرد دريوتو Driton أمراً سيـئاً ومؤسفاً. في العالم التـالي عثر الآثاريون المصريون على المركب الملكي الخاص بالفرعون خوفو مدفوناً بالقرب من الهرم الكبير في الجيزة، وهناك وصف كامل لها في كتاب نانسي جنكنز Nancy Jenkins **السفينة تحت الهرم** (١٩٨٠.) **The Boat beneath the Pyramid.**

أما عام ١٩٥٣م فقد كان ـ بكل المقاييس ـ عـاماً حافلاً بالإثارة بالنسبة لعلم الآثار خلال القرن العشرين، نشـر خلاله مايكل فنترس Michael Ventris حل

رموز الشريطية «ب» من اللغة المينوية. حينما كان مايكل في سن السابعة عشر تلميذاً في استوى استمع إلى آرثر إيفانز الذي كان قد بلغ الثمانين من عمره يلقي محاضرة حول هذا الموضوع، وأنه ظل يحاول فك تلك الرموز خلال الأربعين سنة الماضية. بُهِر هذا الطالب الصغير بهذا الأمر وأخذ على نفسه عهداً بالنجاح فيما أخفق فيه آرثر إيفانز. وبعد سبعة عشر عاماً، وعمره لم يتجاوز الرابعة والثلاثين نجح في مهمته من غير أن يعثر على لغة أو لغات أخرى تساعده على الترجمة كما كان الحال بالنسبة لشامبليون وراولنسون.

كذلك شهد العام نفسه كشف حقيقة إنسان بلتداون، كان كنث أوكلي قد تمكن من تأريخ بعض العظام المتحجرة بواسطة وسيلة الفلورين في عام ١٩٤٨م. وحين اختبرت مخلفات بلتداون بهذه الوسيلة ووسائل أخرى[1]، اتضح أن «إنسان إنجلترا الأول» ذلك كما اسماه اسمث وودورد Smith Woodward ، لم يكن إنساناً كما كشفت التحليلات العلمية التي أجريت على مخلفاته، على يد أوكلي ووينر ولو غروس كلارك Weiner and Le Gros Clark. ثم جاءت الضربة القاضية حين أثبت اختبار الكربون ـ ١٤ أن العظام حديثة العهد. وبذلك أصبح الأيوانثروبس داوسوني[2] لاشيء سوى خدعة مزيفة كانت قد قبلت بكل استعداد وشغف عند علماء مسؤولين. وقد أورد ج. س. وينر في كتابه خدعة بلتداون (١٩٥٥) تفاصيل كشف هذه الخدعة حيث يشير بطريقة ضمنية ـ وإن لم تكن صريحة ـ أن الخدعة من صنع داوسون. واقترح آخرون أسماء أخرى. وفي كتاب شعوب بلتداون **The Piltdawn Men** جادل ميلر Millar بأسلوب غير مقنع لصالح إليوت اسمث. أما سولاس وتيهارد دو

(١) راجع الفصل الثالث. (المترجم).

(٢) ذلك هو الاسم العلمي الذي أطلق على المخلفات ويعني الإنسان القديم الذي عثر عليه داوسون. (المترجم).

شــاردان Sollas and Teihard de Chardin فقـد أسـتميلا، ربّمـا لن نتوصل أبداً إلى الحقـيقة الـكاملة إلا أن درس بلتداون قد فـهم، تماماً كـما نسي درس مولان كـينيون حين انتـشرت أخبـار مخلفات بلتـداون. الآن أصبح من غـير الممكن عـمليـاً أن يقع خـداع مماثل؛ إن تاريخ علم الآثار هو تاريخ الـتقـويم النقدي للدلائل.

في العام الذي كشـفت فيه خدعة بلتداون عشـر ريني جفري Rene Joffroy الذي كان يعمل أستاذاً في ثانوية شاتيـون ـ سور ـ سين (الذي أصبح فيما بعد مديراً للمتحـف القومي للآثار في سان جيرمان) على قبـر الأميرة في فكسي، الذي كان أحد أكـثر الاكتشافـات الأثرية روعة، كان ذلك قبراً لأحـد أميرات الهالشتـات المتأخرات ربما يعود تاريخهـا إلى الفترة من ٥٢٥ إلى ٥٠٠ ق.م. وكانت ترتدي تاجـاً من الذهب الخالص من صناعة إغـريقية ـ إسكاثيـة، وقد دفن معـها إناء برونزي ضخم يصل ارتفاعـه إلى خمسة أقـدام وثلاثة بوصات (مئة وسـتين سنتمتراً) ويزن ٤٥٧ رطلاً، وهو أكبـر إناء معدني وصل إلينا من الأزمان السابقة.

أثناء عملية إزالة الانقـاض التي خلفتها الحرب في مدينة لنـدن عثر في عام ١٩٥٤م على معبد ميثرا، وقام الأستاذ و.ف. غرايمز W. F. Grimes بعد ذلك بحفـريات أثارت انتبـاه العامة الذين أصـبحوا على علم بمـبادئ علم الآثار إثر متـابعتـهم للبرنامج التلفـزيوني «الحيـوانات والخضروات والمعادن». واصطف الناس في صفوف طويلة وانتظروا لساعـات لمشاهدة هذه المخلفات التي لم تكن على درجـة كبـيـرة من الإثارة، إلا أن اهتـمام العـامـة بها أدى إلى ضـرورة صيانتـها. لقد أظهرت حـادثة ميثرا أن الماضي يعيش في أذهـان العامة، وأنهم يشاركون الآثاريين المحترفين بحرارة الحماس والاهتمام بهذا التراث العالمي الذي

يكشف عنه علم الآثار بثقة وأناة. وصفت لندن الرومانية وصفاً جيداً في كتاب لبيتر مارزدين Peter Marsden يحمل الاسم نفسه **Roman London**.

في الوقت الذي كنّا نترنّح فيه من هول مفاجأة بلتداون نشرت صحيفتا الفيجارو والتايمز اللندنية في عام ١٩٥٦م خبر اكتشاف «أغنى كشف لفنون العصر الحجري القديم» في منطقة الدوردوين. كان ذلك هو كهف روفنياك في منطقة ليزايزي الكلاسيكية التي استحقت عن جدارة لقب «عاصمة» ماقبل التاريخ. هذا الكهف الذي ظلّ معروفاً لعدة قرون كشف الآن عن نقوش ورسومات لحيوانات لم يحدث لأحد أن شاهدها من قبل، بما في ذلك الأب بروي الذي أمضى فيه يوماً في عام ١٩١٥م (كان في حقيقة الأمر يساعد صديقاً له يبحث عن فراشات)، كذلك فإن مارتيل الذي يعد حجة في الكهوف الفرنسية لم يشاهد أي رسومات هناك خلال زياراته المتكررة بين عام ١٨٩٠ و١٩٣٠م. لقد عبر بعضنا عن شكوكهم وارتيابهم. ولقد تقبل عالم دراسات العصور الحجرية القديمة فنون روفنياك، إلا أنني أتشكك في حقيقتها، وأرى أن معظمها مزيف، وحين يراجع شخص ما هذا الكتاب بعد خمسين عاماً سيكون دليل زيفها واضحاً تماماً كما اتضح لنا الآن زيف بلتداون.

لقد شهدت السنوات القليلة التالية أعمالاً في مواقع ساحرة ومهمة للغاية، بدأ ليرسي استكشافه في مقابر الأترسكا باستعمال أداة البريسكوب، وكذلك بدأ إمري Emery عمله في بوهين على الحدود المصرية السودانية[1]، كما أن موقع آسبينا الأترسكي في شمال إيطاليا كان قد اكتشف، وعثر على مستودع

(١) كان ذلك في موقع لحصن يعود تاريخه إلى عهد المملكة المصرية الوسطى (٢٠٠٠-١٧٨٠ ق.م). (المترجم).

للمجوهــرات التتاريــة في الكارامبولــو بالقــرب من أشــبيلية وكذلك مستودع سنت نينيــان في شتــلاند. وزار جيــمس ميــلارت أزميــر وذكر أنه قد شــاهد مايسمى بكنز دوراك الذي لم يره أحد قبل ذلك ولا بعده (للمزيد من التفصيل نحيل القــارئ إلى بيرســون وكونر Pearson and Connor **كنز الدوراك ١٩٧٠ The Dorak Treasure).**

في عام ١٩٥٩م أُخطرت اليــونسكو بخطة الحكومة المصرية لبناء ســد جديد عند أسوان، وعليه نظمت المنظمة حملة لإنقاذ آثار النوبة، كانت هذه هي المرة الأولى التي تشهــد تعاوناً دولياً في مجــال الآثار وقد كان ناجحاً لــلغاية. كان آخر مراحل المشروع وأكــثرها إثارة هو تقطيع تلك التماثيل الضخمــة في معبد أبو سمــبل ونقلها[1]، وأنني لأتساءل الآن هل كــان إغراق تلك المنطقة وقــيام بحيرة ناصر أمراً ضرورياً؟

في السنة نفسها التي بدأت اليونسكو حملتــها الضخمة لإنقاذ آثار النوبة من الزوال عثر مشيل فلوري M Fleury على قبر الملكة أرنــقوند في سان دني إلى الشمــال من باريس، كما عثــرت ميري ليكي على جمــجمة بشرية في الطــبقة

---

(١) لعلّ حملة إنقاذ آثار النوبة التي نظمتها الـيونسكو كانت أول عمل آثاري من هذا النوع بهذا الحجم، حيث اشتركت فيــها ٢٩ بعثة من حوالي خمسين بلداً، جاء بعضــها ممثلاً لعدد من الأقطار. ويقدّر ماصرف على إنقاذ آثار تلك المنطقة التي غطتها في وقت لاحق مياه بحيرة ناصر (أو بحيرة السد) بما يزيد على أربعين مليــون دولار أمريكي ذهب معظمــها إلى إنقاذ مــعابد أبو سمــبل وفيلة وبوهين. وعلى الرغم مما يمكن إثارته من جوانب قصــور لهذه الحملة (انظر: W. Y. Adams: Organizational Problems in International Salvage Archaeology. Anthrop. Quart. Vol 41, No. 3, p. 110-121 (1968).

إلا أنها وضعت منطقة النوبة على الخارطة الآثارية للعالم بشكل جعل منها المنطقة الأولى في العالم التي تشهد عملاً آثارياً بهذه الكثافة. (المترجم).

السـفلى في أخدود أولدفـاي في تنزانيـا، وقد أرّخت إلى مليـون وثلاثة أرباع المليون سنة من وقـتنا الحالي[١]. ومنذ ذلك الحين تكرر العثـور على مخلفات بشرية وخلافـها من مختلف أجـزاء شرق إفريقية، كـانت تلك هي أول إشارة لقدم الحضارة البشرية[٢].

إن الظروف التي أحاطت بالاكتـشافات المهمة في أولدفاي تسـتحق وقفة في تاريخ علم الآثار، كـان لويس ليكي آنذاك مريضـاً طريح الفراش في مـعسكر العمل، بينما كانت ميري ليكي تعمل في الرمال الجافة في الطبقات الجيولوجية السفلى في الأخـدود، وفي ١٧ يوليو (تموز) لاحظت مـخلفات عظمـية على حائط الأخدود. دعنا نتابع بقـية القصة كما جاءت على لسـان براين فيغان في كـتـابه 'البـحـث عن الماضي (١٩٧٨) **Quest of the Past** : «كـمن زود بطاقـة كهربائيـة، قامت بإزالة الأتربة العالقة باثنين من الأسنان الـكبيرة. لم يكن من شك في أنها تخص مـخلوقاً شبه بشـري متحجـر، يعثر عليهـا لأول مرة في أخدود أولدفاي فقـفزت ميري إلى سيارة اللاندروفر وأسـرعت نحو المعسكر. "لقد وجـدته.. لقد وجـدته" صاحت وهي تندفـع إلى داخل الخيمـة، نسي لويس مرضــه، وارتدى ملابسه واندفع هو وزوجـته عبـر الطريق نحو الموقع، وبعناية فائقة تفحـصا الأسنان وأزاحا المزيد من التربة. لم يكن هنالك شك في

(١) كثّفت أسرة ليكي أعـمالها الآثارية في موقع أولدفاي في سهل سرنقـيتي في تنزانيا في عام ١٩٥٩. وقد خلصت البعثة إلى نتائج باهرة فيما يخص البدايات المبكرة للإنسان والحضارة ولفتت انتباه العالم لأهمية شرق إفريقية في مايتعلق بهذا المجال.

(٢) بالنسبة لآثار الإنســان القديم في الطبقة السفلى من أولدقاي فـقد عثر على مخلفات عظمـية بشرية وحيوانية وأدوات حجرية بدائية (الدوانية) وكذلك على مخلفات عظمية للقرد الجنوبي.

أن ميري لـيكي قد عثرت على جـمجمة مـتحجرة مـوغلة في القدم، وبذلك توجت بحثاً كان قد بدأ قبل ثمانية عشر عاماً».

كان النجاح هو اكتشاف «الزنج أنثروب بويسي» أو «الابن العزيز» كما عرف بين أفراد عـائلة ليكي، و«إنسان كـسّارة البندق» Nutcracker Man كمـا عرف عند العامة.

في ذلك العام نشـر بيير ـ رولاند غـيو Pierre- Roland التواريخ الكربونية لآثار ميـغاليـثيـة في بريتاني أوضحـت أن تلك المخلفات أقـدم من الأهرامات المصرية وزقورات وادي الرافـدين، لقد كانت ـ شأن المعـابد المالطية ـ من أقدم المخلفات المعـمارية في العـالم. لقد كان علم الآثار خـلال العقـدين السادس والسابع من هذا القرن يقود ثورة في داخله وفي تصوره لماضي البشرية(١).

كذلك شهد العقـد السابع من هذا القرن حفريات يادين Yadin في مصعدة في فلسطين، وكذلك بدأ هول وفلنري Hole and Flannery عملهما في على

(١) مما يجدر ذكره أيضاً أنه خلال الستينيات من القرن الحالي ظهرت في أوساط الدراسات الأنثروبولوجية واللغوية أفكار المدرسة البنوية الفرنسية Structuralism بعد أن طورت على يد كلود ليفي استراوس (وإن كان مؤلفه البنيات الأوليـة للقرابة **Les Structures élémentaires de la Parenté** قد ظهر فـي عام ١٩٤٩. وقبلـها في عام ١٩٤٥ ظهـر له مقـال بعنوان التـحليل البنيوي في علم اللـغة والإنثـروبولوجـيـا **L'Analyse Structurale en Linguistique et Arthropologie**). يرى استراوس أن البنية هي الطريق إلى فهم الثقافة البـشرية، والبنية عبارة عن منظومة تتألف من عناصر ترتبط بعلاقات، يؤثر أي تحـول في واحد منها على بقية العناصر. ولأن هذه الجـزئيات أو العناصر تختلف دلالاتها باخـتلاف البنيات فلابد لنا أن نبدأ إذن بالبنيات ثم نهـبط إلى الجزئيات وهناك ننظر في علاقة الجـزئيات بعضها بالبـعض وبالبنية كلاً واحداً. ورغم أنه تأثر ببعض من سـبقوه؛ إلا أنه يبدو هنا أكثـر تأثراً بأفكار رادكليف براون في ربط البنية بالجزئيات، غـير أنه يعكس فكرة رادكليف الذي يبدأ بالجزئيات وينتهي بالبنية. (المترجم).

كـوش[١] كمـا كان اتكنسون وبيغـوت ينقبان في اسـتـون هنج وسـلبري هل ووست كنت وويلاند سمثي. كذلك تم اكتشاف لبنسكي فير[٢] في يوغسلافيا وأجريت تنقيبات فـيها على يد ترفنوفك وسريوفيش Trifunovic and Srejovic، وقام مايكل كو Michael Coe بحفريات في مواقع احتفالات الأولميك في سان لورينزو جنوب فيراكروز[٣].

في تلك السنوات تحول علم الآثار من علم يقتصر على ماقبل التاريخ وعلى مدنيات فـجر التاريخ في مصر ووادي الرافـدين وفلسطين واليونان وروما، إلى علم إنساني يتعامل مع المخلفات المادية للإنسان من كل الأزمان والأمكنة.

وأصبح ماقبـل التاريخ علماً يغطي حقب ماقبل التـدوين في العالم بأسره. أما قصة الآثار في أمريكا وإفريقية وجنوب شرق آسيا وأستراليا وبولينيزيا فيجب أن تسير جنباً إلى جنب مع قصة الآثار في أوربا والشرق الأدنى التي بدأت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. يظهر هذا التوجه الشامل بوضوح في كتـاب جراهـام كلارك **مـاقبل التـاريخ في العـالم World Prehistory** (صدرت الطبعـة الأولى منه في عام ١٩٦١م والثـالثة في عام ١٩٧٧م) وكـتاب شسـتر شارد Chester S Chard **الإنسان في ماقبل التاريخ Man in Prehistory** (الطبعة الثـانية ١٩٧٥) وبراين فـيقـان **شعـوب الأرض** (١٩٧٧) **People of the Earth**

(١) على كوش موقع في جنوب غرب إيران يعود إلى حقبـة العصر الحجري الحديث (الألف الثامن ق.م.)، وقد كشفت الحفريات فيه عن أدلة لبداية استئناس النبات والحيوان في تلك المنطقة. (المترجم).

(٢) لبنسـكي فيـر موقع على نهر الدانوب يعود إلى العـصر الحجري الوسـيط، ويؤرخ إلى الألف السابع ق.م.، وقد كان مستوطناً لجماعة عرفت اقتصاداً متطوراً. (المترجم).

(٣) تقع هذه المنطقة في جنوب المكسـيك والمواقع مراكز لاحتـفالات الأولميك تعود بداياتها إلى القرن الخامس عشر ق.م.، وقد سلطت الحفريات فيها الضوء على أصل الأولميك وتطور ثقافتهم. (المترجم).

(الطبعــة الثانيــة) وكــذلــك كتابــه مــا قبل الـتاريخ في العالم: مـقدمـة مختـصره (١٩٧٩) World Prehistory: A Brief Introduction.

ينتـهي بنا هذا الفصل إلى عـام ١٩٨٠م، بعد مـئة عـام على بداية فلندرز بيتري لأعماله في مصر، وبت ريفرز لحـفرياته في كارنبورن شيز وكذلك على نشر دو سوتولا لرسومات ألطميـرا. أوضحت السنوات العشر الأخيرة أن علم الآثار يسير نحــو غاياته بخطاً حثيثـة أكثر من أي وقت مضى، وأن اكتــشافات جديدة مهمة ظلت تتلاحق من مختلف أرجاء العالم.

في عام ١٩٣٩م نشر سـبريدون ماريناتوس Spiridon Marinatos الذي كان يعمل وقـتها رئـيساً لدائرة الآثار في اليــونان مقــالاً في مجلة العصــور القديمة (١٩٣٩، ٤٢٥- ٤٣٩) بعنوان الدمــار البـركــاني لكريــت المينوية Volcanic Destruction of Minoan Crete، خرج فــيه بنظرية تقــول: إن انفجــار ثيرا وآثاره الجانبية قد أحدث دماراً مفجعاً في كريت[1]. طورت هذه النظرية بواسطة سير دنيس بيدج Sir Denys Page في مقال نشـرته جمعية الدراســات الهيلينية في عام ١٩٧٠ بعنوان بركان ســانتوريني وتدميــر كريت المينويه The Santorini Volcano and the destniction of Minoan Crete. لقــد ظل الآثاريون منقســـمين على أنفســـهم حــيال هذا الموضــوع الذي ظل يناقـش في الكتب والمؤتمرات. ونشرت حفريات ماريناتوس في اكروتــيري في ثيرا التي حوت لوحات جدارية رائعــة، في سلسلة مــجلدات في أثينا خــلال الأعــوام ١٩٦٧- ١٩٧٦ وهناك مجلد آخــر يحوي تقريراً أعــده كريستــوس دوماس Christos Doumas ينتظر صدوره قريبــاً. لقــد توفي ماريناتــوس حين انهارت حفرياته في ثيــرا من تحته

(١) كان ذلك في حدود ١٥٠٠ ق.م. (المترجم).

ولفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي سير دنيس بيدج.

في عام ١٩٧٢م اكتشفت بمحض الصدفة مقبرة ترجع إلى العصر البرونزي بالقرب من بحيرة فارنا على مقربة من ساحل البحر الأسود في شمال شرق بلغاريا.

وكشفت التنقيبات التي أجراها إيفان س. إيفانوف Ivan S Ivanov الذي يعمل بمتحف فارنا في هذه المقبرة عن كمية كبيرة من القطع الذهبية هي مايسمى الآن بكنز فارنا الذي وصفه كولن رينفرو بأنه: «أقدم مجموعة كبيرة من المعثروات الذهبية يتم الكشف عنها في أي مكان من العالم حتى الآن... وهي حادثة يمكن مقارنتها من حيث الأهمية باكتشاف شليمان للكنز الكبير من طروادة منذ أكثر من مئة عام خلت» (العصور القديمة ١٩٧٨، ١٩٩). والمعثورات من فارنا أقدم عهداً من طروادة -٢ بألف وخمسمئة عام على الأقل، إنها تؤكد حقيقة التطور المحلي المبكر للتعدين في جنوب شرق أوربا.

وشهد عام ١٩٧٢م كذلك إعلان رتشارد ليكي Richard Leakey ، الذي واصل العمل الرائد لوالده لويس ليكي في شرق إفريقية، اكتشاف جمجمة بشرية تؤرخ لما يزيد على المليونين ونصف المليون من السنوات، لقد أثبتت منطقة بحيرة تركانا التي عثر فيها على الجمجمة في وقت لاحق أنها مرتع خصب لمخلفات بشرية قديمة مشابهة[١].

(١) تلك هي الجمجمة المعروفة بالرقم ١٤٧٠ التي تخص الهوموهبلز Homo habilis «الإنسان الماهر» أحد أقدم الفصائل البشرية المعروفة. وكانت هذه أول جمجمة كاملة يعثر عليها من تلك المنطقة، بعد ذلك بقليل (١٩٧٤) عثرت بعثة أمريكية في منطقة عفار بأثيوبيا على مخلفات عظمية لأحد أقدم فصائل القرد الجنوبي (العفاري = لوسي) وقد أرخ للفترة ٣ - ٣ر٢ مليون سنة. (المترجم).

في عام ١٩٧٥م اكـتشف مـايقارب عشـرين ألف لوح طيني تحوي كـتابات مسـمارية في مـسـتـودعات لقـصر ضـخم بموقع تل مرديخ (إبلا القـديمة) في سورية. فأحـدث هذا الاكتشاف ضـجة تقارن بتلك التي أحـدثتها اكتـشافات لاسكو وستـون هو ومقـبرة توت عنخ آمـون. كان على رأس تلك الحـفريات الأستاذ باولـو ماتشاي Paolo Matthiae وأستاذ النقوش جـيوفاني بتناتو Gio-vanni Pettinato، وكلاهما من روما، كانت تلك أحد المدنيات الضائعة وذات لغة غـير مـعروفة. ولسـرد مفصّل لـهذه المعثـورات نحيل القـارئ إلى حاييم بيرمانت Chaim Bermant ومشيل فـايتزمان Michael Weitzman إبلا: لغز أثري (١٩٧٩) **Ebla: An Archaeological, Enigma**، وكـذلك باولو ماتشـاي Paolo Matthiea إبلا (١٩٨٠) **Ebla**.

لم تكد اكتشـافات إبلا تفارق الأخبار الرئيـسة حتى جاءت أخبار اكـتشاف مقبرة فليب الثاني المقدوني، والد الأسكندر الأكـبر في فرجينا بشمال اليونان. تم هذا الاكـتـشـاف على يد الأسـتـاذ مالونـيس أندرونيكوس Malonis An-dronikos أستـاذ الآثار بجامـعة سالونيكـا. كما عـثر في المقـبرة على أدوات جنائزية من الذهب والفضة والبـرونز الشيء الذي يشير إلى أنها مقـبرة ملكية. عـثـر كذلك على خـمس رؤوس صـغـيـرة من العـاج تظهر شـبـهـا بفليب والأسكندر، ومنها اتضح أصل تلك المقبرة.

وهكذا استمرت قـائمة الاكتشافات الجـديدة على نطاق عالمي واسع. فأعلن ر.س ماكنيش علـى الملأ اكتشـافه لما يزيد على ستـين موقعـاً في بليز[1] التي دفـعت فيـمـا يبـدو بأصول المـايا عدة آلاف من السـنين إلى الوراء. لعله من

(١) بليز هي م اكانت تسمى سابقا بهندوراس البريطانية وتقع في أمريكا الوسطى. (المترجم).

المناسب أن أختم هذا الفصل بأكثر الاكتشافات إثارة وهو جيش الدمى الخزفية الخاصة بالإمبراطور هوانغ تي، المدفونة على بعد ميل من قبر الإمبراطور في ماونت لي بالقرب من النهر الأصفر. يرجع تاريخ هذه المقبرة إلى القرن الثالث ق.م. وكان الهدف من هذه التماثيل هو حماية الإمبراطور في الحياة الآخرة. إن أي ادراك جديد بأهمية الصين سيكون مفتاح تطور لعلم الآثار في العقود القادمة[١].

(١) شهد النصف الثاني من القرن العشرين نشاطات آثارية متعددة في شبه الجزيرة العربية التي بقيت لبعض الوقت خارج الخارطة الآثارية. ففي عام ١٩٥٠ بدأت بعثة أمريكية أعمالاً في اليمن تبعتها بعثة دنماركية في الخليج، شجعت نتائج تلك الأعمال بعثات آثارية من دول أوربية أخرى للعمل في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة خلال العقدين السابع والثامن من هذا القرن، وقامت بعثات وطنية من وكالات الآثار والمتاحف والتراث والثقافة، إضافة إلى أقسام الآثار بدول مجلس التعاون الخليجي بأعمال آثارية شملت المسح والحفريات في بعض المناطق والمواقع. (المترجم).

الفصل السادس
المحاور الكبرى

إن الفصول الخمسة السابقة التي تمثل موضوع هذا الكتاب قد قدمت عرضاً وفق تسلسل زمني لتاريخ علم الآثار منذ بدايته وحتى نهاية الربع الثالث من القرن العشرين، وإن كان ذلك العرض موجزاً مختاراً. إنها قصة مملوءة بالإثارة والشخصيات المثيرة، قصة ترتكز على عزيمة أفراد من أمثال شليمان في طروادة وهوارد كارتر في وادي الملوك، قصة تحكي الهدف من الحفريات والعمل الميداني إلا أنها في الوقت نفسه تكشف عن طرق غريبة نتجت عنها اكتشافات آثارية مهمة وعن طريق المصادفة، مثل حجر رشيد، وأبواق جاليسوس والمقابر الميغاليثية في كوشريل في عام ١٦٨٥م، وفي نيو غرينج في عام ١٦٩٩م، وألواح تل العمارنة ومخطوطات البحر الميت وكهف لاسكو في عام ١٩٤٠م.

ولكي نختم هذا الكتاب دعنا نستعرض أهم عناصر هذه القصة ونقف عند المحاور الرئيسة في تاريخ علم الآثار التي نوجزها هنا:

١- ميلاد علم الآثار:

تمثل هذه المرحلة بداية الوعي بحقيقة أن الأسطورة والخرافة والقصص الفولكلورية والإسرائيليات والكتاب الكلاسيكيين ليست مصادر موثوق بها للمعرفة بتاريخ البشرية. لقد كان الدكتور جونسون مخطئاً حين قال: «إننا يجب أن نعتمد على الكُتّاب الأقدمين، والحقيقة أن المخلفات الحضارية من قلاع

العصر الوسيط والقصور الرومانية إلى جانب الدوائر الحجرية والفؤوس اليدوية من العصر الحجري هي المصادر الحقيقية للمعرفة بتاريخ الانسان.

٢- القبول بالأدوات الحجرية :

كانت الخطوة التالية هي الاعتراف بحقيقة الأدوات الحجرية التي لم تصنعها ساحرات أو جنيّات وإنّما هي من صنع الانسان. كان ميكارتي يؤمن بذلك على الرغم من أن كتابه المعدنيات لم ينشر إلا في القرن الثامن عشر. وكذلك كان يرى سير وليام دقديل وسير روبرت سيبالد وأدوارد لويد ولافيتو، وماهوديل وغوجيه وبشوب لايتلتون، كما أن خطاب جون فرير الذي كتبه في عام ١٧٩٧ أوضح أنه لم يكن يشك في ذلك الأمر.

٣- النموذج التقني:

لقد سمح الاعتراف بحقيقة أن الأدوات الحجرية هي من صنع الانسان بوضع تصور لنموذج تقني للماضي. كان هذا واضحاً في كتابات غوجيه وفيديل سايمونسن، إلا أن هذا التصور كان قد ظهر لأول مرة للعامة عند افتتاح متحف كوبنهاجن في عام ١٨١٩م الذي قام بتنظيمه ك.ج. طومسن على أساس نظام العصور الثلاثة.

٤- بداية الاكتشافات الآثارية :

برز علم الآثار إلى حيّز الوجود عندما بدأ الآثاريون والرحالة ومن بعدهم أشخاص متخصصون يسجلون المواقع الأثرية الشاخصة. من بين هؤلاء كان استوارت وريفت في أثينا وود ودوكنز في آسيا الصغرى والشرق الأدنى وكارستن نيبور في بيرسبولس وأوبري ولويد واستوكلي في بريطانيا. وكذلك أعمال مجموعة العلماء الفرنسيين التي توّجت بكتاب وصف مصر.

٥- تطور علم الجيولوجيا الحديثة :

أوضح الاعتـراف بالإستراتغـرافيا الجيـولوجية وقـبول مبـدأ نظرية الاتساق والجيولوجيا الحديثـة كما جاءت في كتاب لايل مبادئ الجيولوجيا، أن الحضارة البـشرية أقـدم بكثيـر من «عالمنا المعـاصر» ومن العـام ٤٠٠٤ ق.م. إن علم الجيولوجيـا لـم يدفع بالحضارة البشرية إلى الوراء فحـسب، بل ساعد الآثاريين على فهم التعاقب الطبقي.

٦- الداروِنية والتطور العضوي :

صدر كـتاب **أصل الأنواع** في عام ١٨٥٩م في السنة نفـسها التي تم فيـها الاعتراف بقدم الحضارة البشرية بواسطة الجمـعية الملكية والجمعية الآثارية. وقاد ذلك إلى توضيح أن الأدلة على قدم الإنسـان سواء أكانت في شكل أدوات أم مخلفات عظمية ليست مقبـولة فحسب بل هي أمر ضروري، كذلك أوضحت أن التطور العضوي ربما يشير إلى تطور حضاري.

٧- الحفريات :

بدأت الحفـريات في المواقع الميغاليـثية الدنماركيـة في القرنين السادس عـشر والسـابع عشـر. وفي القرن الثـامن عشـر أجريت حـفريات في بومـبي وفي هيركيولانوم وتوّجت بأعمـال فيوريلي ومدرسة بومبي Scuola di Pompii. ثم اتخذت الحـفريات مساراً حـذراً وصارماً عبـر الأعمال التي قام بهـا رجال من أمثال كورتس وبت ريفرز وفلندرز بيتري وويلر وشيفر.

٨- الإستراتغرافيا (التعاقب الطبقي):

كان إدراك وفهم الإستراتغرافيا الآثارية مسألة أساساً للحفريات الآثارية، لقد ورثت تلك عن الإستراتغـرافيا الجيولـوجية، إلا أنها اعتـمدت على ملاحظات

مبكرة لفارسيه في الدنمارك وتوماس جفرسون في فرجينيا. أما إستراتغرافيا التلال فيرجع الفضل في فهمها إلى فلندرز بيتري في تل الحسى وإلى شليمان في طروادة وإلى بمبلي وشمت في أناو.

٩- المدنيات المفقودة:

كشفت الأعمال الميدانية والحفريات عن مدنيات لم تكن معروفة من المصادر المكتوبة، شملت هذه على سبيل المثال السومريين، في وادي الرافدين وهرابا في شبه القارة الهندية، وحضارة الشانج في الصين، وحضارة الأولميك في أمريكا الوسطى.

١٠- فك رموز الكتابات القديمة:

كان فك رموز بعض الكتابات القديمة التي لم تكن معروفة أحد أكثر الأمور إثارة في تاريخ علم الآثار، وقد شمل ذلك لغات مثل الرونية[١] والأوغمية[٢] في أوربا، والهيروغليفية المصرية التي قام شامبليون بفك رموزها كما فعل جروتفند وراولنسون الشيء نفسه بالكتابة المسمارية في وادي الرافدين وهروزني باللغة الحيثية، والشريطية «ب» بواسطة فنتريس وشادويك، ولابد أن نذكر هنا بالطبع أبجدية رأس شمرا.

١١- التسلسل الزمني (الكرونولوجيا):

إن الأسس الراسخة لعلم الآثار تستند على التاريخ الدقيق، فقد طوّر كل من بيتري ومونتليوس وشايلد التاريخ بالمقابلة مع المصادر المكتوبة. أما الوسائل غير الآثارية فقد بدأت مع دوغير بحساب الرقائق ودوجلاس بحساب حلقات

(١) اللغة الرونية Rune لغة قديمة كتبت بأبجدية تيوتونية يرجع تاريخها للقرن التاسع الميلادي. (المترجم).

(٢) اللغة الأوغمية استعملها الأيرلنديون القدماء خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين. (المترجم).

الأشجار (التي سبق اسـتعمالها بواسطة القس مناسيح كتلر وتومـاس جفرسون في القـرن الثامن عـشـر). أما تطور وسـائل كـربون -١٤ والتوهج الحـراري وأرقونات البوتاسـيوم بعد الحرب العالمية الثانية فقـد أحدث ثورة في دراسات ماقبل التاريخ.

١٢- دراسة البيئة والمناخ:

إن الأعمال الآثارية التي أجريت في مستوطـنات البحيرات السويسرية خلال الستينيات من القرن الماضي قـد صاحبتها دراسات لمخلفاتها النبـاتية والحيوانية، وكانت أناو هي المثل الرائد لدراسة البيـئة المحيطة بالموقع، لقد طورت دراسات المناخ والبيئة بوصفها جزءاً لاغنى عنه للبحوث الآثارية بخاصة في إنجلترا (راجع أعمال زونر وجراهام كلارك وأريك هغـز) وفي أماكن أخرى (كارل بتزرKarl Butser في كتابه المناخ والآثار، ١٩٦٤ **Environment and Archaeology**).

١٣- المقاربات الإثنوغرافية:

كان اكتشاف مجتمعات بدائية تعيش في العالم الجديد وقت اكتشافه قد أقنع ميـركاتي وآخـرين بالتسليم بوجـود عصـر حجـري، أدرك كل من بير لافـتو وغوجيه قيـمة المقاربات الإثنوغرافية وكذلك الحال بالنسـبة للبوك وبت ريفرز. جاء كتـاب و.ج. سولاس **الصـيادون القـدماء وأمثـالهم المعـاصرون** (١٩١١) نموذجاً رائعاً لاستعمال الإثنوغرافـيا على الرغم من إيمانه المفرط بالحتمية. ومنذ فترة وجيزة ظهـر كتاب لكولن رنفرو **ماقبل المدنية**، استعان فـيه بأسلوب حياة مجتمعات بولونيزيا مرشداً لفهم مجتمعات ماقبل التاريخ في أوربا التي شيدت المباني الميـغاليثيـة. وفي أمريكا توجد اليـوم جماعـات المايا والهنود الأمريكيين أمثلة حيّة للسجل الأثري، وربما كان هذا هو سبب إصرار الآثاريين الأمريكيين

على أن علم الآثار إنما هو أنثروبولوجيا. إن حاضر هذه الجماعات وفترة ماقبل كولمبس يتداخل نسيجهما بشكل لايتكرر في أوربا والشرق الأدنى. إلا أن الدراسات الأسكندنافية الرائدة للثقافة الشعبية في شمال أوربا قدّمت أمثلة أثنوغرافية حيّة كانت ذات فائدة عظيمة لعلم الآثار.

١٤- النموذج غير التقني :

كان هناك دائماً نموذج غير تقني للماضي يقوم على تعاليم المدرسة البدائية الأسكتلندية التي امتدت عبر مونبيدو إلى دانيال ولسون، وفي السويد طوّر سفن نلسون هذه الأفكار كما فعل تايلر في إنجلترا ولويس مورغن في أمريكا. وعبر أنجلز أخذت أفكار مورغن طريقها إلى ماركس وكانت هي الأساس للنظرة الماركسية لما قبل التاريخ.

١٥- ماقبل التاريخ:

بدأت دراسة آثار ماقبل التاريخ في بريطانيا وفرنسا وسويسرا. أما دراسة فجر التاريخ فقد بدأت في آسيا الصغرى ومصر ووادي الرافدين، وبالتدريج انتشرت الأبحاث الآثارية لتغطي العالم من الصين إلى بيرو ومن الجبال الثلجية في غرينلاند إلى الشعاب المرجانية في الهند. وتوجد اليوم كما ذكرنا سابقاً، دولة بأكملها سميت باسم موقع أثري عظيم وهو زيمبابوي. في مناطق ثلاث هي: أمريكا وشبه القارة الهندية والصين أصبحت الدراسات الآثارية ذات أهمية قصوى للفهم العام لقدم الإنسان والحضارة، حيث نلاحظ أن تطور زراعة المحاصيل يبدو مستقلاً بذاته دون أي اتصال بمناطق أخرى.

١٦- الابتكار المستقل مقابل الانتشار :

منذ أن اتخذت البحوث الآثارية شكلاً منظماً في بداية القرن التاسع عشر

كان العاملون فيها مـهتمين بتفسير التغير الحـضاري. ناقش العلماء الدنماركيون المهتـمون الخـلاف السرمـدي بين وجهـتي النظر المتعـارضتين: الأولى القـائلة بالابتكار المسـتقل والثـانية القـائلة بالانتـشار. ونسـتطيع ملاحظة الإفـراط في التمسك بنظرية الابتكـار المستقل في النظرة الصارمة لدى الماركـسيين للماضي. في المقـابل نلاحظ تطرف نظرية الانتشـار عند إليوت اسـمث وبـري من رواد مدرسة مانشســـتر. كان مونتليوس وشايلد قد بشرا بشكل مـعدل للانتشارية. واليوم تبدو ضـرورة الاعتراف بدورى التفسيـرين في عملية التغيـر الحضاري. ليس من شك في أن الثورة الاقـتصادية التي شهـدها العصر الحجـري الحديث وثورة الاستيطان كمـا جاءتا على لسان شايلد قد وقعـتا في أماكن عدة دون أن يكون هناك اتصال حضاري بينها.

١٧- الوسائل العلمية:

شهد القـرن العشرون تطور الوسائل العلميـة لمساعدة الآثاريين في الزيارات الاستطلاعيـة والمسح الآثاري والتنقيب والتعامل مع المـادة الأثرية، وتلك قصة طويلة تبدأ بالجيوكرونولوجيا والتصوير الجوي وتنتهي بالإحصاء وتحليل الحاسب الآلي.

١٨- الآثار التاريخية :

بالقدر نفسه الذي انبثق فيه علم الآثار خـلال القرن التاسع عشر وامتد لآثار ماقبل التاريخ، كذلك فإن دراسات ماقبل التاريخ وفجر التاريخ قد تطورت إلى دراسة الآثار التاريخية بدءاً بالأنجلو ـ سكسونية والميروفنجية[1] والفايكنج ومن

---

(١) الميروفنجية Merovingians إشارة إلى مملكة الفرنجة التي حكمت بلاد الغال وألمانيا خلال الفترة من ٥٠٠م إلى ٧٥١م. (المترجم).

بعدها العصر الوسيط ومابعده في أوربا. لقد كانت آثار المستعمرات الأوربية في أمريكا الشمالية حقلاً مثمراً للغاية (انظر نويل هيوم Noel Hume الآثار التاريخية ١٩٦٨ Historical Archaeology).

١٩- التقويم النقدي للدلائل الأثرية :

لقد أصبح هذا الأمر ذا أهمية متزايدة في تطور علم الآثار، وبهذا الفحص النقدي نستطيع تقويم قيمة الدليل الأثري ونواحي قصوره. وبهذا الفحص النقدي أيضاً نستطيع رؤيا الزيف ونتحقق من أصالة المعثورات من مولان كينيون وبلتداون إلى قلوزيل وروفيغناك. إن من واجب الآثاريين أن يطرحوا نتائج أعمالهم لا على زملائهم من العلماء فحسب بل وعلى عامة الناس أيضاً.

يشير تاريخ علم الآثار بوضوح بالغ إلى أنه من غير تعميم مدعوم للمعرفة الآثارية فإن المهتمين من العامة سيرحلون بعيداً إلى مايسمونه بعلم الآثار البديل ويسترخون هناك طويلاً وسط الأجنحة المتطرفة لشواطئ علم الآثار الموحشة. فمن الملكة مو عبر قارة أطلنطا إلى القبائل التائهة ورجال الفضاء الذين لاوجود لهم؛ كان هناك افتتان قوي وإحساس روحي بالميل إلى التفسير المبسط للماضي على ما في ذلك التفسير من أوهام، إن نجاح مدرسة مانشستر وضخامة مبيعات مؤلفات فون دانكين الزاخرة بالخيال ما هي إلا تحذيرات واضحة للأخطار المحدقة بعلم الآثار الجاد.

٢٠- أخلاقيات علم الآثار :

بدأ علم الآثار بالنهب؛ كان البحث عن القطع الفنية للمقتنيات الخاصة أو العامة. كان بلزوني وراسّام وماريت وليارد جميعهم مهتمين بالعثور على

الكنوز. وبالتدريج تحـول هذا إلى حفريات تتم بعناية، ثم إلى حـفريات تجري وفق تخطيط مدروس يهدف لحل مشكلات مـعينة. في نهاية المطاف استطاعت الدراسات الآثارية الموجهة لحل مشكلات محددة أن تحل مكان نهب القبور. إلا أن الكثير مــن قضايا أخلاقيـات المهنة لاتزال باقية: هل تُعاد المـعثورات الأثرية إلى مواطنهــا الأصلية؟ كـيف وبأي حالة من الصـيانة والحفـظ يجب أن تترك الحفـريات؟ والمواقع المهمـة، هل تنقب بكاملها أم تتـرك أجزاء منها للأجـيال القادمة؟ وكذلك أمور أخرى مـثل تعارض الأعمال الإنقاذية والأبحاث الآثارية وغيرها.

يبدو لي أن هذه هي المحاور العشرون التي تنبثق من تاريخ علم الآثار، وقد يبدو للبـعض أن هناك أموراً أكثـر أهمية، وقـد يرى البعض أن قدم الحـضارة البشرية هي الدرس الأكـثر إثارة في تاريخ علم الآثار، فالمعلومات تـأتينا تباعاً عن سلالات بشـرية ضاربة في القدم في مـواقع شرق إفريقـية، والقليلون من الناس يتفقـون اليوم مع سير توماس براون في أن: «الزمن مـسألة يمكن للمرء إدراكها».

أما بالنسـبة لي فإن إثارة علم الآثار لا تكمن في قـدم الإنسان بل في تنوع إنجازاته القديمة وروعـتها، ليس مدهشاً أن يكون علم الآثار والعـالم بأسره قد أمضـيا فتـرة طويلة قبل أن يقـبل الناس حقيـقة فنون العـصر الحجـري القديم الأعلى؛ فـتمـاثيل فينوس من براسـمبـوي وفنون الكهوف في نيـو وألطمـيرا ولاسكو لاتزال مثـار دهشة حتى الآن، علـى الرغم من وجود رسومـاتها في كتب تاريخ الفن شأن رسومات الملكة نفرتيتي وفينوس دوميلو. هذه إلى جانب فنون السلت والأسكاثيين والفـايكنج التي تقع ضـمن أكثـر الأمور الناتجـة عن دراسة تطور علم الآثار إثارة. كـذلك الحال بالنسبـة للإنجازات التقنيـة للإنسان

القـديم بدءاً من الأهرامات والمعـابد المالطيـة واسـتـون هنج إلى تماثيل الأولميك ومدن الانكا. إنها انجازات بشرية لا تنتهي، والإنجاز هو جزء من إرثنا جميعاً، الشيء الذي يجعل من دراستنا لهذا الماضي أمراً مثيراً ووثيق الصلة بحاضرنا.

* * *

* *

*

مراجـع للاستزادة

The bibliography of my *A Hundred and Fifty Years of Archaeology* provides a long and comprehensive list of books. Here is a shorter list classified by subject.

1 General Histories

BIBBY, GEOFFREY *The Testimony of the Spade*, New York 1956 and London 1957.

CERAM, C. W. *Gods, Graves and Scholars*, New York 1951 and London 1952

——*A Picture History of Archaeology*, London 1958.

DANIEL, G. E. *The Idea of Prehistory*, London and Baltimore 1962.

——*A Hundred and Fifty Years of Archaeology*, London and Cambridge, Mass., 1975.

——(ed.) *Towards a History of Archaeology*, London and New York 1981.

DAUX, GEORGES *Les étapes de l'archéologie*, Paris 1942.

EYDOUX, H.-P. *History of Archaeological Discoveries*, London 1966.

FAGAN, BRIAN M. *Quest for the Past: Great Discoveries in Archaeology*, Reading, Mass., and London 1978.

GARNETT, HENRY *Treasures of Yesterday*, London and New York 1964

2 Archaeology in the Context of Anthropology

BREW, J. O. (ed.) *One Hundred Years of Anthropology*, Cambridge, Mass., 1968.

CASSON, STANLEY *The Discovery of Man*, London and New York 1939.

HARRIS, MARVIN *The Rise of Anthropological Theory, a History of Theories of Culture*, London and New York 1968.

LOWIE, R. H. *The History of Ethnological Theory*, New York 1937 and London 1938.

PENNIMAN, T. K. *A Hundred Years of Anthropology*, revised edition, London 1952.

3 Antiquaries and Antiquarian Thought

KENDRICK, SIR THOMAS *The Druids*, London 1927.

——*British Antiquity*, London 1950.

PIGGOTT, STUART *William Stukeley*, Oxford 1950.

——*The Druids*, London and New York 1968.

——*Ruins in a Landscape*, Edinburgh and New York 1976.

WALTERS, H. B *The English Antiquaries of the Sixteenth, Seventeenth and Eighteenth Centuries*, London 1934

4 Near Eastern and Egyptian Archaeology

BAIKIE, J. *A Century of Excavation in the Land of the Pharaohs*, London and New York 1924.
BAINES, JOHN AND JAROMIR MALEK *Atlas of Ancient Egypt*, Oxford 1980.
BRATTON, F. GLADSTONE *A History of Egyptian Archaeology*, London 1967.
CAIGER, S. L. *Bible and Spade*, Oxford 1936.
FAGAN, BRIAN M. *The Rape of the Nile. Tomb Robbers, Tourists and Archaeologists in Egypt*, New York and London 1975
——*Return to Babylon: Travellers, Archaeologists and Monuments in Mesopotamia*, New York 1979.
GREENER, L. *The Discovery of Egypt*, London and New York 1966.
LLOYD, SETON *Foundations in the Dust*, London 1947 (revised edition, London and New York 1980).
MACALISTER, R. A. S. *A Century of Excavation in Palestine*, London and New York 1925.
OATES, JOAN *Babylon*, London and New York 1979.
WORTHAM, J. D. *The Genesis of British Egyptology: 1549–1906*, Oklahoma 1971.

5 European Archaeology

EGGERS, J. H. *Einführung in die Vorgeschichte*, Munich 1959.
KLINDT-JENSEN, OLE *A History of Scandinavian Archaeology*, London 1975 and New York 1976.
LAMING-EMPERAIRE A. *Origines de l'archéologie préhistorique en France*, Paris 1964.
RODDEN, J. *A History of British Archaeology* (forthcoming)

6 American Archaeology

CERAM, C. W. *The First American: a Story of North American Archaeology*, New York 1971, London 1976.
FAGAN, BRIAN M. *Elusive Treasure*, New York 1977
VON HAGEN, VICTOR *Search for the Maya, the Story of Stephenson and Catherwood*, New York 1973.
WILLEY, G. R. AND J. A. SABLOFF, *A History of American Archaeology*, London and San Francisco 1974 (second edition, San Francisco 1980).

7 Collections of Extracts from Writers

CERAM, C. W. *The World of Archaeology*, London 1966 (US. *Hands on the Past*, New York 1966).

DANIEL, G. E. *The Origins and Growth of Archaeology*, Harmondsworth and Baltimore 1967

HAWKES, JACQUETTA *The World of the Past*, London and New York 1963.

HEIZER, R. F. *Man's Discovery of his Past: Literary Landmarks in Archaeology*, second edition. Englewood Cliffs, N. J. 1969.

SILVERBERG, ROBERT *Great Adventures in Archaeology*, New York 1964 and London 1966.

WAUCHOPE, ROBERT *They Found the Buried Cities: Exploration and Excavation in the American Tropics*, Chicago and London 1965.

8 Biographies of Archaeologists

COLE, SONIA *Leakey's Luck*, London and New York 1975.

DUFF, URSULA G. *The Life-work of Lord Avebury*, London 1924.

POOLE, L. AND G. *One Passion, Two Loves: the Schliemanns of Troy*, New York 1966 and London 1967.

RAWLINSON, G. *A Memoir of Major-General Sir H. C. Rawlinson*, London 1898.

THOMPSON, M. W. *General Pitt-Rivers*, Bradford-on-Avon and New Jersey 1977.

9 Autobiographies of Archaeologists

CRAWFORD, O. G. S *Said and Done*, London and New York 1955.

LAYARD, A. H. *Autobiography and Letters*, London and New York 1903.

LEAKEY, L. S. B. *White African*, London 1937.

MALLOWAN, SIR MAX *Mallowan's Memoirs*, London 1977.

MURRAY, MARGARET *My First Hundred Years*, London 1963.

PETRIE, SIR FLINDERS *Seventy Years in Archaeology*, London 1931 and New York 1932.

THOMPSON, J ERIC S. *Maya Archaeologist*, London and Oklahoma 1963.

WHEELER, SIR MORTIMER *Still Digging*, London and New York 1955.

WOOLLEY, SIR LEONARD *Spadework*, London and New York 1953.



الكشافات العامة



الكشافات العامة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الإسلامية





هذا الكتاب

يُعد هذا الكتاب محاولة لإبراز أمور مهمة في مجال الاكتشافات الأثرية، وكذلك في مجال تاريخ الفكر البشري.

ويشمل الكتاب مقدمة وستة فصول قدمت عرضاً وفق تسلسل زمني لتاريخ علم الآثار تبدأ من عام ١٧٩٧م وتنتهي بالربع الثالث من القرن العشرين.

وفي ثنايا الكتاب نجد حديثاً عن ميلاد علم الآثار، وبدايات الاكتشافات الأثرية ومن هم الرواد الأوائل من علماء الآثار؟ وتطور علم الجيولوجيا الحديث والوسائل العلمية المستخدمة في التنقيب عن الآثار.

المؤلف: غلين دانيال

❖ ولد بمقاطعة ويلز البريطانية عام ١٩١٤م، وتوفي بمدينة كيمبردج عام ١٩٨٦م.

❖ تخرج في كلية سنت جونز بجامعة كيمبردج بمرتبة الشرف الأولى في علم الآثار.

❖ عمل أستاذاً بقسم الآثار بجامعة كيمبردج، ثم أستاذ كرسي الآثار بالجامعة خلال الأعوام ١٩٧٤-١٩٨٦م.

❖ عمل محرراً لمجلة "آثار" خلال الأعوام ١٩٥٨-١٩٨٦م.

❖ أنشأ سلسلة «الشعوب والأماكن القديمة» التي يحمل هذا الكتاب الرقم ١٠٠ منها.

❖ قدم عدداً من البرامج الإذاعية والتلفزيونية، وله العديد من المؤلفات في مجال علم الآثار.

المترجم: عباس سيد أحمد محمد علي

❖ من مواليد مروي بالسودان عام ١٩٤٦م.

❖ نال الدكتوراه من قسم الآثار بجامعة كيمبردج عام ١٩٧٨م.

❖ عمل أستاذاً مساعداً، ثم رئيساً لقسم الآثار بجامعة الخرطوم خلال الأعوا
١٩٨٥م.

❖ يعمل أستاذاً مشاركاً بقسم الآثار بجامعة الملك سعود منذ عام ١٩٨٥م.

❖ نال منحة فلبرايت الأمريكية عام ١٩٨٣م.

❖ أجرى عدداً من التنقيبات الآثارية، وله العديد من المؤلفات في مجال آثار ما قبل

